عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو

دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر

دعاءنا ولكم بالخير.
* مكتبة جواد سامي *

دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر

عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقدمة

سبق لي أن ألقيت محاضرة عنوانها « دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر » تحت اشراف وزارة التربية الوطنية فى دائرة سلسلة المحاضرات التي نظمتها خلال السنة الجامعية ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ونشرت المحاضرة جريدة « الشعب » الغراء فى عددين .

فرأيت أن أنشر هذه الدراسة فى كتاب لتكون فى متناول الجميع وذلك نظرا لأهمية الموضوع الذى قليلا ما طرق عندنا ونظرا لرواية الحوادث الغريبة التى يصعب ايجادها فى مؤلف واحد باللغة العربية حتى يتيسر للقارئي مطالعته .

واستجابة لتلك الرغبات وخدمة للعلم ، عزمت على تأليف هذا الكتاب .

بيد انني لم أكتف بالدراسة كما ألقيت بل زدت فيها كثيرا ووسعت المجال وأتممت ووضحت الغموض وشرحت بعض الفصول والفقرات وبوبت لتكتسي صفة تأليف يوضع بيد القراء

الأخص بالأسبانية فى شكل مؤلفات أو تقارير رسمية أو رسائل من الولاة الأجانب الى ملوكهم ، كما توجد بعض الكتب الفرنسية القديمة من أسرى مسيحيين •

اما بالعربية فى تلك العصور ، فقليلة جدا تعد على أصابع اليد • وربما توجد التقارير والمكاتب الرسمية فى الاستانة ، الا أنه لم يلتفت اليها أحد بعد ، ويا للاسف ! فانها تحتاج الى الترجمة والنشر ليمكن بناء تاريخ بلادنا على أسس صحيحة • وهناك كتيب لا بأس به عنوانه « غزوات عروج وخير الدين » حرر على ما يقال باللغة التركية أملاه خير الدين نفسه على كاتبه سينان ، لكنه لا يشفى الغليل لتعاقب الحوادث الخطيرة بعد ذلك التأليف والتى لم تدون بالعربية •

يزعم الكثير من المؤرخين الأفرنج أن تاريخ المغرب العربى انما هو سلسلة حوادث دامية وأن بلادنا كانت تعيش فى عزلة عن البلاد الأوروبية المجاورة لها وفى حالة فوضى ، بينما كانت تلك الأقطار على زعمهم تمتاز بالرقى والحضارة ، لا علاقة لها بالدول « البربريسك » كما كانوا يسمونها والتى كانت تعيش من القرصنة وقطع الطرق •

فاننا نفند كل التفنيد تلك الأقاويل العنصرية التى لا أساس لها من الصحة ويوجد ولله الحمد مؤرخون هم الآن بصدد تكذيب زعم هؤلاء المفترئين على الله الكذب • ستلاحظ بنفسك أيها القارىء المنصف من سياق رواية الأحداث أن بلادنا كانت دائما وأبدا باتصال مع البلاد الأوروبية الجنوبية والآسيوية المجاورة للبحر الأبيض المتوسط التى يرتبط تاريخها بتاريخنا • وسترى الدور الذى لعبته الدول المسيحية ببلادنا والعكس

بالعكس وتدخلات الخليفة العثماني فى شؤون بلادنا ودور الجزائريين فى حروب تركيا البحرية والمحاولات التى قام بها الملوك المسيحيون وفرانسوا الأول وشارل الخامس وملوك صقلية والبندقية وغيرها فى بلادنا . وكذلك ما قام به أسلافنا من تدخلات فى أمور الأقطار الأوروبية . كل ذلك يجعلنا نقول القول الصحيح المبنى على الأدلة أن البلاد المجاورة للبحر المتوسط سواء أكانت اسلامية أو مسيحية تداخلت وأثر بعضها فى بعض من حيث الحوادث التى راجت فيها ، الأمر الذى أدانا الى تخصيص فصول لبعض الرجال السياسيين الأوروبيين والأتراك مثل سليمان القانونى وشارل الخامس وفرانسوا الأول وغيرهم .

هناك أمور تاريخية هامة لا زالت غامضة لم يوضحها المؤرخون . فأردنا أن نسد الفراغ على قدر المستطاع ونأتى بروايات التقطناها من عدة كتب قليلا ما توجد فى مؤلف واحد ، ومن التآليف القديمة ، وذلك اعانة للقارىء على معرفة فترة غريبة من تاريخ الجزائر بقيت مخفية بستار الغموض مدة قرن ونصف حجبها الاستعمار عمدا .

ولنا الأمل بأن يلقى الكتاب اقبالا من طرف القارىء الكريم عسى أن يأتى اليه بشىء جديد يروى ظمأه ، وهذا قصدنا والسلام .

الجزائر فى سنة ١٣٩٢ – ١٩٧٢ .

عبد الحميد بن أبي زيان بن شنهو

حلول أجنبي سلمي

نفتح فى هذه الدراسة نافذة من نوافذ تاريخنا الحافل تتطلع خلالها الى حوادث جرت فى القرن التاسع الهجرى ، ألا وهى حوادث استقرار الحكم العثمانى بالجزائر •

شاهدت بلادنا فى ممر العصور غرائب تاريخية قليلا ما نراها فى أقطار أخرى من البلاد الافريقية أو العربية • ومن جملة تلك الحوادث العجيبة حلول الأتراك العثمانيين بالجزائر •

لم يكن فى الحقيقة احتلالا بالقوة والعنف من طرف دولة أجنبية قائمة مثلما كان يجرى فى غالب الأحيان من جراء عدوان أجنبى يهجم بعدده وعدته على البلاد فيغزوها ويقاتل أهلها ويفتك بهم وينهب أموالهم ويخرجهم من ديارهم ويسترقهم ويترامى على الأراضى والدور والقرى ويفرض عليهم حكمه الجائر ويحاول أن يقضى على تقاليدهم ولغتهم وعوائدهم ودينهم ، كما يفرض عليهم أفكاره وعقائده وحتى تاريخه • وكان الأمر كذلك عندما استقر الفينيقيون والرومان بأفريقيا والوندال والروم وغيرهم من المتسلطين على بلاد المغرب التى كانت فى القرون بعد الموحدين فى حالة انحطاط يسدلها ستار الظلام حتى سميت تلك القرون « العصور المظلمة » •

بعض اسباب انحطاط المسلمين بالأندلس

لقد وقعت حرب شديدة سنة ١٢١٢ م بين جيوش محمد الناصر الموحدى فى حصن العقاب انهزمت فيها جيوش المسلمين شر انهزام . كان ذلك الحادث فى الحقيقة بداية تقهقر المدنية العربية وضعف شوكة المسلمين وتصاعد قوات المسيحية فى أوروبا ورد فعلها على العرب . وقد مرت ثلاثة قرون بعد تلك الواقعة التاريخية والعرب يحاولون استرجاع سلطتهم وسيطرتهم على كافة الأندلس وافريقيا والشرق الأوسط . وكانت نتيجة تلك المحاولات والجهود الجبارة المبذولة مجرد تأخير انحطاط المدنية الاسلامية وتقدم المدنية الأوروبية بعد الخروج من العصور الوسطى . أخذت الكنيسة بيد من حديد تلك الحركة وهى مستحوذة على الفكر تقوده وتوجهه كما تشاء آخذة العلوم من الجامعات العربية بالأندلس وفاس وتلمسان وتونس والقاهرة ودمشق اذ كانت القوات العربية فى تلك العصور الانحطاطية تنتصر تارة وتنهزم تارة أخرى وتبرم معاهدات السلم مع الدول الأوروبية طورا . انما الأمر الذى يلفت النظر هو أن المجهودات الجبارة التى بذلتها القوات العربية جعلتها لم تترك راحة للقوات المسيحية المتحالفة التى كانت هى أيضا تتمارس على التجلد والحروب والهجومات والغزوات . والأمر الهام الذى نشاهده فى ذلك العصر هو أنه بينما كان المسيحيون يسعون أشد السعى الى توحيد صفوفهم والتحالف بينهم وضم الممالك بعضها لبعض بفضل الزواجات التى كانت تعقد بين أمرائهم وأميراتهم بغية وضع عدة ممالك فى قبضة ملك موحد بيد رجل واحد ، كان العرب يؤسسون الممالك العديدة مثلما أحدثها ملوك الطوائف ، ويشتتون قواتهم

خالقين سلطنات وامارات جديدة معادية بعضها لبعض • وكان هؤلاء يعيشون فى بذخ وترف ورفاهية ، تاركين شعوبهم يتقاتلون بينهم ويتحالفون مع النصارى ليعينوهم على محاربة اخوانهم • وفى سنة ١٢٦٥ م استولى الملك الأسبانى دون الفونس العاشر على قرطاجنة بعدما أخذ من يد المسلمين مورسيا ويورقة ثم الميرية • والاستيلاء على تلك المراسى كان فى الحقيقة أعظم أمر من أخذ المدن الداخلية للجزيرة العبرية لأنها سمحت للاسبان بالاغارة على السواحل المغربية والجزائرية وتحويل ميدان الحرب من الأندلس الى أوكار المسلمين والعرب •

ظهرت اذ ذاك السفن الأوروبية الحربية التي كان دأبها الوحيد قطع الطريق على السفن العربية ونهبها والهجوم على السواحل المغربية ومحاولة احتلال الأراضى واقامة مراكز استعمارية سماها الأسبان بريسيديوس « presidios » والبرتغال فرونتيراس « fronteiras »

أسباب انحطاط البلاد المغربية

وما زالت شوكة ملوك المغرب تضعف شيئا فشيئا بسبب الخصومات التى كانت قائمة بين الزيانيين وأبناء عمهم بني مرين منذ نشوء مملكتيهما ، وبينهما وبين الحفصيين الذين أخذوا يتوسعون فى المغرب الأوسط • ولم يستطع بنوزيان ردهم على هجوماتهم وتوسعاتهم بحيث ملك هؤلاء بجاية وقسنطينة وعجز بنو زيان على القيام بحماية رعاياهم بالشرق الجزائرى • وفى المغرب الأقصى ظهر البرتغال فى شواطىء البحر المحيط • كما تقوى الأسبان من جهتهم بفضل اكتشافهم أميركا وكسبهم الثروات الواسعة •

ومن جهة أخرى ، تكونت طوائف فى الصحراء الجزائرية والتونسية وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلمسان أو تونس أو فاس . وما زاد الطين بلة سيطرة العرب الرحل فى الهضاب العليا على القطر وتجبروا على المدن والقرى وعسفوا وظلموا وتعدوا على أهلها وفرضوا عليهم الغرائم والضرائب غير الشرعية . وتكونت لصوصية فى الصحارى وفى الجنوب وأخذت العصابات تقطع الطرق وتحجز القوافل الآتية من البلاد السوداء ، أو الذاهبة اليها .. وتكونت اقطاعية مغربية فى الأقطار الثلاثة فى العائلات البارزة العربية والبربرية أخذت تفرض نفسها على الممالك المرينية والوطاسية والزيانية والحفصية التى أصبحت تحسب لها حسابا وتعتبر نفوذها وتستعان بها فى الشدائد. فتعيرها الاعانات بعوض .

وقد ظهرت الطوائف الصوفية فى جميع أنحاء البلاد الشمالية لتصلح الدين وتنها عن المنكر لكنها عوضا عن أن تقتصر على نشر الدين وازالة البدع ، حاولت اكتساب المال والثروة والسلطة والافلات من الخضوع للحكم الشرعي وأصبحت تحل وتعقد وتعين المتمردين على الحكم الرسمي وتؤسس لها دويلات .

وذلك فضلا عن تكوين شبه جمهوريات بحرية فى شواطىء البحر المتوسط والبحر المحيط مثل طرابلس وجربة وبجاية وجزائر بني مزغنة وشرشال ووهران وتطوان وسلا وغيرها .

هذه هى الحالة المنحطة التى وصلت اليها افريقيا والتي تفاقم أمرها حتى بلغ السيل الزبى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى الذى جمعت فيه كل الشروط للتدخل الأجنبى ببلداننا فوجد المجال فى الاستيلاء على الحكم فى كثير من أنحاء الجزائر وتونس ، هذا

الأجنبى هو التركى أولا ، لكنه كان مسلما ، فأتى ليحمى الدين ويطرد أجنبيا آخر ألا وهو الأسبانى والبرتغالى الذى عزم على احتلال المغرب كله لا لتغيير المنكر واستتباب الأمن فى صالح أهله بل لأخذ زمام الحكم والاستيلاء على ثروة البلاد ، وفى نفس الوقت لنشر الدين المسيحي ومحو الاسلام الذى أصبح والحق يقال غريبا بالبلاد الأفريقية وضعف الايمان وفسدت العقيدة وانحلت الأخلاق وترك الحبل على الغارب .

واذ كانت الحالة هذه بافريقيا ظهر الحكم التركى فيها وبسط نفوذه بسبب الظروف التى سنشرحها فيما بعد .

توحيد كلمة المسيحية فى أسبانيا

فى سنة ١٤٧٨ ورث فرديناند الخامس المكنى بالكاثوليكى مملكتى نافارو وأرغون وقد تزوج فى سنة ١٤٦٩ بايزابيلا أخت هانريكى ملك قشطيلة الذى مات سنة ١٤٧٤ وورثت ملكه ، بحيث أصبح ثلثا أسبانيا بيد الزوجين فرديناند وايزابيلا بدون منازع ولا معارض بينما كان المسلمون فى جوار ملكهما يتنازعون ويتقاتلون وهم متفرقون طوائف عديدة عدوة بعضها لبعض .

ان هذا الحادث البسيط فى حد ذاته كان له تأثير عظيم لا فى العالم المسيحى فحسب ، بل فى العالم العربى والاسلامى وحتى الأوروبى والشرق الأدنى والشرق الأوسط والمغرب العربى .

ان هذا الضم أو التوحيد للمملكات الثلاث الأسبانية كان وبالا وخيما على الاسلام ، اذ أنه أدى الى توحيد صفوف المسيحية والاه احتلال غرناطة سنة ١٤٩٢ وطرد ملكها « الزغيبى »

أى المشؤوم ، وهو عبد الله بن أبي الحسن بن سعد من بني الأحمر وخروج عمه أبى عبد الله « الزقل » أى الشجاع من مالقة واقصاء المسلمين من الأندلس • وبعدما استولى الكاثوليكيان على غرناطة أبرما مع أبى عبد الله صلحا ضمن للمسلمين حرية دينهم ، وما مر الا زمان يسير حتى نكثا العهد وأخذا يضطهدان المسلمين الذين لم يجدوا بدا من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال فراى دون فرنسيسكو خيمينيس دى سيسنيروس المدعو ابن الخميس عند العرب (١) الذى كان الوزير الأول للملكين المسيحيين ، فقد تمسح الكثير ممن بقي من المسلمين فى الأندلس وأخفوا الاسلام وخرج من خرج فى ٩٠٦ هـ ـ ١٥٠١ م ، ومما زاد خيمينيس قوة وجرأة ، وصية الملكة ايزابيلا التى قالت فيها عند اقامتها الأخيرة بمدينة ديل كانبو فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ـ (٩٠٩ـ٩١٠) قبل موتها : « أطلب من ابنتي الأميرة والأمير زوجي أن يهتما بأمور الايمان (أى الدين) المقدس وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو افريقيا وبمحاربة الكفار فى سبيل الدين » (تعني المسلمين) •

وقد ظهرت اذ ذاك الملاحة الأوروبية فى السواحل الأسبانية واحتل الأسبان النقط الاستراتيجية الهامة بشمال أفريقيا وتوسعوا فى الأراضى الأوروبية على حساب المسلمين وكانوا قد اكتشفوا أميركا ، وتوج شارل الخامس (٢) الذى جمع على رأسه تقريبا تيجان أوروبا كلها وظهر الأتراك فى آسيا الصغرى وفى أوروبا وضعفت التجارة العربية فى البحر الأبيض المتوسط الذى أصبحوا يعتبرونه بحرهم كما كان الروم قبلهم •

---

(١) خصصنا له فصلا فيما بعد

(٢) هو شارل كانت وعند الأسبان كارلوس كينطو كما ترد ترجمته فيما بعد •

ان هذه الحوادث كلهـا جعلت العرب يتقهقرون والمسيحيين يتقدمون بفضل اقتباسهم العلوم الاسلامية التى تلقاها أبناؤهم فى المدارس الكبرى الاسلامية بالبلاد الافريقيـة والأندلس والمشرق العربي •

واذ احتل الأسبان الأندلس برمتها وأخرجوا أهلها من ديارهم واضطهدوا وقتلوا وأحـرقوا وأرغموا المسلمين على اعتنـاق النصرانية أخذ من خـرج من هـؤلاء وبقي حيا ، يحارب العـدو الذى احتـل أراضيهم واغتصب أمـوالهم ظلما وقهرهم • وقـد صادف هذا النزوح ظهوررجلين مغامرين تركيين ،عروج وخيرالدين، فى البحر الأبيض المتـوسط • فحمـلا الكثير منهم واقـراهم فى السواحل المغربية أو أخذاهم معهما فى سـفنهما ليحاربوا معهمـا العدو ويغيروا على السواحـل التى كانوا يعرفونها حق المعرفـة دربا دربا ودارا دارا •

وقد فقد المسلمون بلادهم بسبب انغماسهم فى الملذات وشراء الضمائر من طرف الملوك المسيحيين والغدر والفتك والخداع الذى طالما ارتكبه المسلمون بعضهم ضد بعض • فوجد العدو المجال فى التوسع وتوحيد كلمته وتشتيت شمل الممـالك العربية باغراء من الكنيسة وأخذ « يأكل الرمانة حبة حبة » على حـد تعبيره (٣) « Grano a grano se ha de comer la granada » أى يستولى على أرض المسلمين قطعة قطعة •

---

(٣) قال عن ذلك بروسـلار ما يلي : «بيد ان الملكين الكاثوليكـيين فرديـناند وايزابيلا كانا يتابعان بصرامة واستمرار هدفهما العظيم الذى هو تحريـر كل أرض الجزيرة من سيطرة المسلمين وانهما لا يضعان السلاح حتى يدركا مرماهما بتمامه ، وقد كان قوادهما ينجزون هذا العمل الطويل المدى بنظام ، حقا كانوا يتقدمون ببطء لكن بتحقيق مستشهدين بالمثل العامي القسطلي : «تؤكل الرمانة حبة حبة» (أضرحة الملوك الزيانيين ص ١٦٥) .

فعلا نفذ ارادته ولم يكتف بجمع شتات الممالك المسيحية وضم ممالك المسلمين بالأندلس اليها ، بل خرج غازيا متوسعا الى الأراضى الأفريقية وفتح عهد الاستعمار فى القرن الخامس عشر بعدما وقع نزاع بين أسبانيا والبرتغال فيما يخص تحديد مناطق نفوذهما . فعقدا مؤتمرا بصور ديسياس بايعاز من البابا اسكندر السادس الذى أصدر أمره فى شهر مايو سنة ١٤٩٣ ، فاتفق الفريقان على أن يستولى البرتغال من الرأس الأخضر الى شرقه والأسبان على ما بغربه ، لكنه لم تنحسم مادة النزاع بينهما كما هو شأن اللصوص الذين يريدون اقتسام الغنائم المنهوبة . وبقي النزاع قائما حتى أبرم اتفاق ثان بين خوان الثانى ملك البرتغال ، وفرديناند الخامس ملك قسطيلة وجددا العقد ، فانفرد بموجبه الأسبان باحتلال الأراضى الافريقية من رأس نكور (باديس) وما بشرقها ، بينما يستولى البرتغال على غربي المغرب العربي . وكان هذا الاتفاق بفيلا فرانكا دى خيرة سنة ١٥٠٩ .

القــــرصنة (٤)

وكان النصارى هم البادئون بالحروب البحـرية ، فكانـوا يسبون المسلمين ويأخذون الفيء ويسترقون الأسرى ويبيعونهـم فى أسواقهم ويفدونهم بأثمان باهظة أو يعمرون بهم سفنهم المجذافية والشراعية ، ويستعينون بهم فى جوب البحار وفى اكتشاف الأراضى البعيدة على السواحل الأفريقية والآسيوية حتى الصين .

تلك الحروب التى أطلق عليها فى القرن الخامس عشر الميلادى اسم قرصنة ما هى الا ابتكار من طرف المسيحيين انما بلغت أشدها فى عهد الأتراك كما سنراه .

وسمى ابن خلدون القرصـــان غزاة البحر وصفهم فى النص الآتى بايضاح وواقعية كعادته فى وصف الأحوال التاريخية الممتازة: « كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي فى الشـمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقـراض دولة الـــروم فملـكوا جـــزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملات أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملـكوها وعادت لهم سورة التغلب فى هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخـر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومراكبـه فغلبهم الفـرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بنى مرين أياما ، ثم

---

(٤) فيما يخص هده المؤســة انظر الفصل الهام فى كتاب دان عنوانه تاريخ بلاد البربر والقرصنة ص ١٠ وما يليها

فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة ، وافترقت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقيا لغزو بلادهم ، وشرع فى ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ويغالون فى فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافريقية فصم عن سماعها وتطارحوا سهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزل المسلمين والأخذ بالثأر منهم » . (٥)

وقال ابن خلدون أيضا : « كان المسلمون قد تغلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم فيه ، فلم تكن لأمم النصرانية بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وكذا جزر صقيلة وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص ، وقد ملأت سفنهم الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلما وبحرا للنصرانية فيه ألواح » .

---

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٩٠٢ طبع دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ .

وكانت القرصنة تدر نفعا عظيما لا على القراصنة وحدهم فحسب ، بل على الشعب كله الذى يشارك فى تجهيز السفن من ماله ، والدولة التى كانت تأخذ خمس الفيء . وقد ضعفت القرصنة فى أواخر العهد التركي لتحالف الدول الأوروبية وأمريكا ضد الأتراك بحيث أصبحت القرصنة شيئا ليس بهين لا يستطيع القيام بها الا الرؤساء الصناديد مثل عروج وخير الدين وحسن آغا وسينان باشا وصالح رئيس وطرغد والرئيس حميدو الذى اشتهر فى المعارك البحرية ومراد رئيس وغيرهم من الفحول الأبطال الذين رفعوا عاليا راية الاسلام .

نعم ، ان تلك الحروب البحرية التى أخذوا فى القرون المتأخرة يطلقون عليها لفظ القرصنة هى فى الحقيقة كما قلناه من اختراعات الفرنج لا العرب وحتى الكلمة لهم ، وهى دخيلة على العربية لا يوجد فى اللغة العربية مرادف لها وربما استعربت فى القرن التاسع الهجرى وهى مشتقة من « كورسة » بالايطالية و « كورس » بالفرنسية . والقرصنة هى الاغارة فى البحر على العدو مثل الحروب البحرية فى الزمان المعاصر لنا guerres navales وبدأت القرصنة فى القرن الرابع عشر بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامت أربعة قرون بدأها النصارى من مختلف البلدان المجاورة للبحر المتوسط ولكن مهر فيها الأتراك وخصوصا أهل الجزائر اذ ازدادت شدة بعد استيلاء فرديناند الكاثوليكي ملك أرغون وايزابيلا ملكة قشطيلة على غرناطة سنة ١٤٩٢ ، أما المؤرخون الأفرنج فانهم يزعمون أنها كانت من أعمال المسلمين انتقاما من المسيحيين الذين أخرجوهم من بلادهم ، فهذا الزعم واه تفنده العناصر العربية ، حقا لقد أورث هذا الطرد حقدا شديدا فى قلوب أهل الأندلس المهاجرين الذين راموا الانتقام من الغاصبين

الظلام واشهار الحروب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم وأموالهم، وكان الأوروبيــون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل أكثر من سبي وقتل وفتك واستعباد وبيع الفيء والـرقيق وارغـام هؤلاء على الأعمال المتعبة والشاقة ويبيعون الرجال والنســاء والأطفــال وينصرونهم اكراها ويستخـــدمونهم فى منازلهم وفى الحقــول والجنات ، وقد نسب المؤرخون ذلك للمسلمين فقط الذين كانوا يلقبونهم بأخبث الألقـاب غيظا وحقـدا كالعصابات والقراصنـة ولصوص البحر والناهبين وقطاع الطرق الخ ...

brigands, corsaires, pirates, flibustiers, forbans, gredins, chenapans..

وعلى كل حال فقد وقع رد الفعل من المسلمــين على هــذه الحركة الجديدة . وعزم المسيحيون اثر غارات المسلمين البحرية على احتلال المواقع الحيوية والحساسة لافريقيا كى يضعوا حـدا لحروبهم وأذاهم فشيد الأسبان فى الشــواطىء الافريقية قلعـا وحصونا سموها بينيون « pegnon » أى الصخرة أو طورى torre أى البـرج فى المـراسى وأمام المـدن الـكبرى المغـربية . فاستــولوا عــلى جـزيـرة غمــارة « Pegnon de Velez » (حجر نكور) ومليلة ومن ثم أخــذوا يحاربون الشـــواطىء الافريقية والاراضى الداخلية .

وكانت القرصنة من أعمـال الخواص الــذين كانوا يجهزون المراكب الشراعية والمجذافية ويسلحـونها باذن حكـوماتهم التى كانت فى حالة حرب مع دولة أجنبية أو عدة دول . فتعطيهم جوائز يحتجون بها عند الحاجة كـانت تسمى بالفرنسية رسائل العلامة « lettres de marque » أو الباسابورطي بالاسبانية ، فيبحـر القرصان بعدتهم ومحاربيهم للبحث عن سفن العـدو ويجوبـون

البحار الى أن يصادفوا أحد مراكبه فيهجمون عليه بعدما يصبون عليه طلقات مدافعهم وبنادقهم . واذا تغلبوا عليه فيقتربون منه ويرمون عليه المخاطف « grappins » ويجرونه اليهم ويثبون عليه وتقع المشاجرة فيقتل من يقتل ويقبض على من فى المركب المغلوب وتحجز البضائع ويساق المركب الى أقرب ميناء صديق أو الميناء المركزى حيث يباع الفيء بعدما تأخذ الحكومة خمس بيت المال ، وعندما ترسو السفينة يحضر قناصل الدول الصديقة المعتمدة بالجزائر ليتعرفوا على الأسرى الذين هم من جنسهم ، واذا رأوا أحدا منهم وتحققوا أنه لم يكن من المحاربين فتسلمه لهم السلطة الجزائرية ليردوه الى وطنه بدون فداء . واذا كان من جملة المحاربين فيباع كسائر الأسرى حتى يعتقه قنصله أو مؤسسة دينية أو أهله . واذا أسلم فانه يدمج فى الوسط الجزائرى (٦)

ومن غريب ما ذكره المؤرخون هو أنه اذا أرست سفينة فرنسية بمرسى الجزائر فيكبل جميع الأسرى خشية أن تحملهم السفينة الى مواطنهم حيث أنه كان يسمح لها ذلك بموجب الاتفاقات المبرمة بين الجزائر وفرنسا دون أية دولة أوروبية أخرى وتبقى السفينة على سبيل الاحتياط راسية بعيدة شيئا ما من الميناء (٧)

وبقيت القرصنة قائمة من العصور الوسطى الى سنة ١٨٥٦ تاريخ انعقاد مؤتمر باريس الذى قرر الغاء الحروب البحرية أى القرصنة ، ومن الغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا والمكسيك امتنعت اذ ذاك من الالتزام باسقاطها غير أن الولايات

---

(٦) ص ٨٥
(٧) ص ١٤٣

المتحدة وأسبانيا منعتا على نفسهما فى سنة ١٨٩٨ الالتجاء الى القرصنة ، ونعلم أن الحروب والغارات البحرية قد استعملت أثناء الحرب العظمى الأولى والحرب الثانية بصفة شديدة جدا لم يتقدم مثلها .

توسع الاسبان فى افريقيا

كانت قرطاجنة والمسيرية نقطتي انطلاق لبحارة الأسبان والجنويين والفنيسيين (٨) للاغارة على المراسى المغربية للبحر الأبيض المتوسط ، وأول مرسى أخذه الأسبان هو المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ثم والاه مرسى وهران فى ديسمبر سنة ١٥٠٩ على يد الكردينال خيمينيس دى سيسنيروس ثم احتلوا موانيء بجاية والجزائر وشرشال وهنين وغيرها وكانوا يغيرون على المناطق الداخلية لهذه الموانىء ويلزمون سكانها المسلمين على أداء الضريبة التى سموها الرومية وبيع المؤن والأنعام والزروع والتجنيد فى جيوشهم المرابطة على الشواطىء المغربية وكانوا يسمونهم لوس موروس مقاطاسيس« les moros mogataces »أى العرب الملتزمين « المغطسين » أو لوس موروس دى باس« los moros de paz »أى عرب السلم . وكان كثير من العرب فى جيوش الملوك الأسبان المسيحيين يسمونهم لوس موروس ديل رى« los moros del rey »أى عرب الملك ادليديس « adalides » أى الدلائل .

كان المسيحيون المرابطون فى السواحل يحاربون العرب باخوانهم ومنهم قبائل بنى عامر وقبائل المخزن أو الجيش وهم الزمول والدوائر الذين كانوا بطانة الملوك الزيانيين وكذلك حميان وكيزة والشفع .

وقال سواريس فيما يخص اشهار الحروب على المراسى المغربية والاستيلاء على المرسى الكبير ووهران ما نصه :

« وبمجرد ما وقع الاستيلاء على مملكة غرناطة وساحلها (فى آخر القرن الخامس عشر) أخذت البحرية المسيحية لقرطاجنة تظهر فى البحر المتوسط وفى شواطىء بلاد البربريسك وكانت تجهز السفن الكبرى والزوارق والمركبات الحربية المزودة بالمجاذف والأسلحة وكانوا يتوجهون الى الأمام بدون خوف وكانوا يغيرون مرارا على سواحل مملكة تلمسان الموجودة أمام جنوب قرطاجنة فيصلون اليها بعد أربع وعشرين ساعة من الابحار فى جو هادىء وخصوصا أقليم وهران الذى هو أقرب أرض من أسبانيا وكان العرب « los moros » يضطرون للقيام بالحراسة ليلا ونهارا فى أعلى الأبراج ووضع الحرس بمينائي وهران والمرسى الكبير ، وكان المسيحيون يضعون مرارا الكمائن فى داخل الخليج وحتى فى اليابسة قصد أسر العرب الذين كانوا يسافرون فرداء من ناحية الى أخرى على طريق البر أو البحر وكثيرا ما كانوا يهجمون فى وسط الليل على القرى الصغيرة الساحلية فى ضواحي وهران والمرسى الكبير كالونزة وبوصفر وكرارة وكاناستيل شرقي وهران وقرى بحرية أخرى وكانوا يدخلون الى الأرياف ويغزون العرب على بغتة دون أن يبتعدوا عن البحر ثم يرجعون الى مراكبهم بسرعة بالغنائم أو بدونها عندما كانوا يشعرون أن السكان قد استيقظوا لهم ، وكان عرب مملكة تلمسان لم يعرفوا الى ذلك التاريخ القراصنة المسيحيين الذين أخذوا يقلقون راحتهم ويسبونهم فى البر والبحر » (٩)

---

(٩) المجلة الافريقية سنة ١٨٦٤ – ١٨٦٥ ص ٢٥١

كان لقرطاجنة عدد عديد من المراكب الحربية يتعاطى أصحابها القرصنة ، فاشتهر رؤساء منهم فرفارة وأوفيد كانت تظهر السفينة فى غالب الأحيان فى حالة سلم معلنة ومشهرة راية الأمان كأنها تريد المصالحة والمسالمة وتبادل الأسرى المسلمين بالمسيحيين وحينما يقترب المركب يقع الهجوم من السفينة المسالمة فتجرى المشاجرة بينهما .

لقد وقعت ردود فعل من طرف المسلمين الذين أخذوا يغيرون هم أيضا ويهجمون على المراسى الأسبانية مستعينين بأهل الأندلس المقيمين بالجزيرة العبرية أو المهاجرين الى المغرب .

ولما استولى الأسبان فى شهر يوليو سنة ١٥٠٥ م ، صفر ٩١٠ ، على المرسى الكبير على يد الماركي كوماريس ثم على وهران سنة ١٥٠٩ على يد الكيردينال ابن الخميس كما أسلفناه ، فجعلوا من المرسى الكبير مركزا هاما لتموين الجنود والمقيمين الأسبان بالمدينتين والذين تمركزوا ورابطوا وأخذوا يجولون فى الضواحي تحت قيادة الجنرال ماركي كوماريس . وربما كانوا يتوغلون فى الصحارى الوهرانية ويصلون الى جبل العمور والى صحارى جنوب تلمسان .

بيد أنه بعدما فقد السلطان الزياني مولاى عبد الله بن أبى زيان المرسى الكبير أخذ يسلح وهران ليحميها وليسترجع المرسى الكبير لأنهما النقطتان الحيويتان لمملكته ، فترد عليهما وتصدر منهما جل البضائع الممارسة فى الغرب الجزائرى والصحراء ، لكن ذهبت جهوده سدى لتقهقر الملك وفساد الحكم .

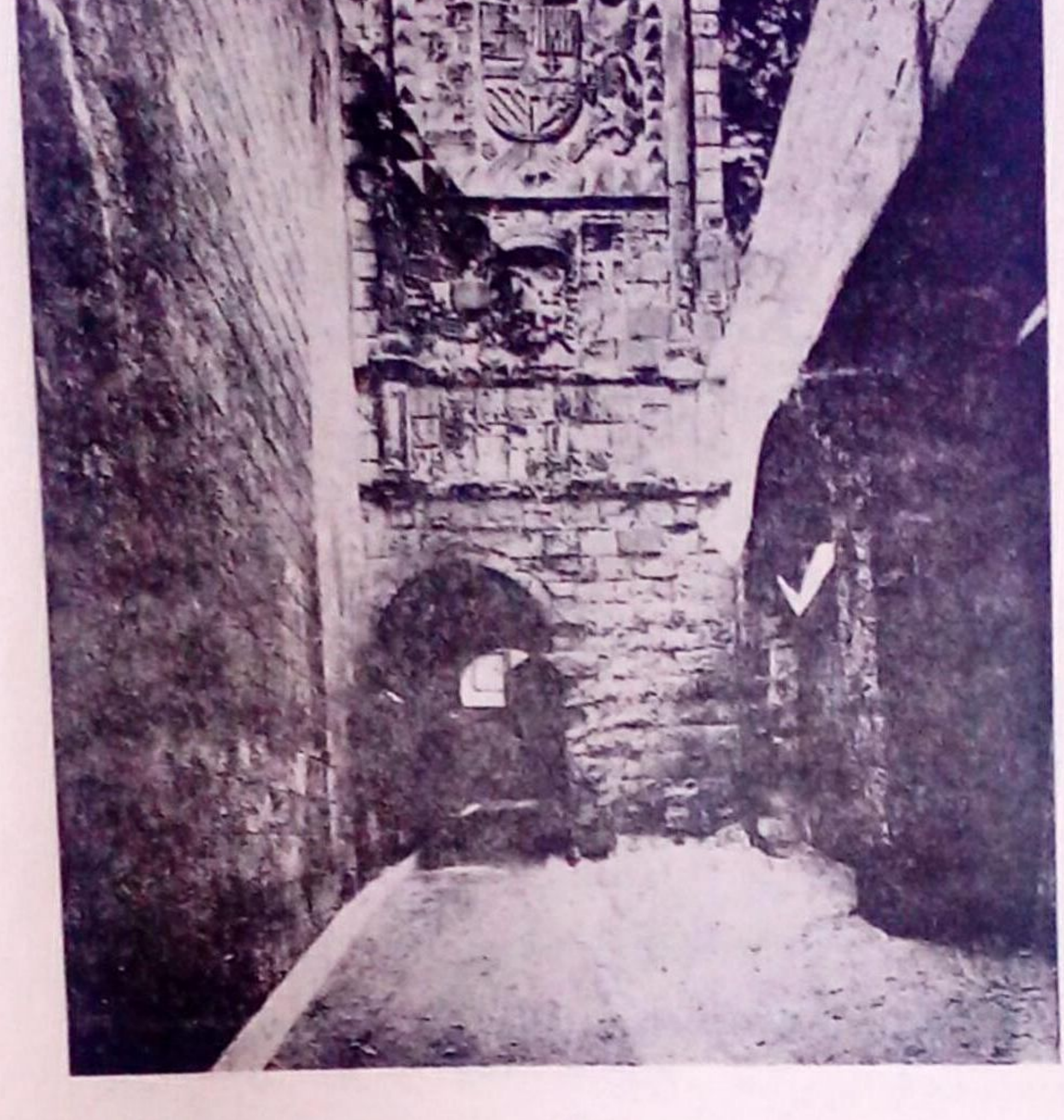

برج اسبانى بوهران

ظهور الحكم العثمـانى

بينما كانت تجرى تلك الحوادث الهامة بالنسبة لتاريخ بلادنا ، ظهر الحكم العثمانى على أطلال الممـالك والامارات التى مـزقت البلاد تمزيقا لسوء تصرفها وجورها . وما زاد الحالة تفاقما انحلال الأخلاق وقيام الطوائف الصوفية وانتشار نفوذ الزوايا واطفـاء العلوم التقدمية والاكتفاء بتقليد الفقهاء لما كتبه العلماء من قبلهـم والتكثير من الشروح والحواشى والطرر والتعاليق وما الى ذلـك من التحليلات الفقهية الجوفاء . وكان الجهل متغلبا على الشعوب الافريقية لا علم لهم الا حفظ بعض الأمهـات والمتـون وشرحهـا يقلدونها ويتوارثونها خلفا عن سلف . وكان الموردون فى الـزوايا يصرفون أوقاتهم فى الوجد والغيبوبة وفى الجدال حول شواذ آراء العلماء وغرائب الأحكام كحكم الراقد والخنثى والعبد الابق وغير ذلك من الهزالات .

وكثيرا ما كان المتفقهون يكفـر بعضهـم بعضا فى جـزئيات الجزئيات مثل قبض اليد أو سدلها فى الصلاة ويؤلفون فى ذلك المطولات والشروح والحواشى والطرر وطرر الطرر . وكان الكثير يحيي الاسرائيليات والخرافات التصـوفية مثل المناقب والمعجزات والرؤيات والتآويل المخالفة للدين والعقل السليم . وكان يتخلـل ذلك تعديات الحكام وجورهم وتعدى الأسبـان الذين أخـذو يخرجون من بلادهم ويغيرون على الأراضى الافريقيـة . فتسرب

الحكم التركى الى الجزائر بصفة شبه سلمية بطلب من الأهالى أنفسهم الذين كانوا يستغيثون بالأتراك المغامرين المرتزقة ليصدوا عنهم العدو الاسبانى الذى حل بشواطىء المغرب ، بيد أن هذا الاستنجاد لم يوجه الى الحكم الرسمي باسطنبول (١٠) بل الى قراصنة لم تكن لهم مسؤولية ولا نفوذ سياسي الا ما كانت تكتسبهم أياديهم من القوة والعنف .

نعم ، كانت بلادنا فى حالة فوضى وانقسام ، السلطة فيها موزعة بين الملوك الزيانيين والحفصيين وسلاطين الصحراء وشيوخها من أولاد بن جلاب المرينيين (١١) والزوايا وكانت الشعوب تعيش فى ضنك وظلم شديد والبؤس مخيم على القطر لكثرة المجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية التى كانت تتسلط عليه ، كما كانوا يظلمون ويظلمون وما زاد الطين بلة تدخل الاعراب الرحل فى شؤون الملوك وكانت القبائل تجد مجالا للتطاحن فيما بينها فتنتصر طائفة منها لملوك وأشياخ وأخرى لآخرين . وأخبرنا عبد الرحمن ابن خلدون وأخوه يحيى والحسن الوزان وابن عسكر والمؤرخون المعاصرون لهم بتلك القلاقل التى كانت تسود البلاد ، الأمر الذى أدى ببعض المؤرخين الأجانب مثل قوطي الى الزعم أن الجزائر لم تقم لها دولة .

---

(١٠) تسمى عاصمة تركيا العثمانية اسطنبول أو الاستانة او اسلام بول أو قسطنطينية وكانت تسمى فى الزمان القديم بيزانس وهى عاصمة الروم فى عهد ظهور الاسلام .وكان يسميها الوكينس من قبلهم ميكليقرد .

(١١) قيل انهم من بقايا بني مرين انتقلوا الى بلد ريغة جدهم الاول يدعى الحاج سليمان المرينى المدعو الجلاب اى المتجر فى الأغنام او واسقها واثبت لنا هذا الخبر الرحالة المغربي العياشي .

وقد اتبع مع الأسف هذه الفكرة الزائفة كثير من أبناء وطننا ، فنريد هنا أن نفتح بابا على مصراعيه ونؤكـد أن الجـزائر كانت دولة من أكبر الدول فى عهد بني يغمراسن الأولين وقبلهم وكان لها فى عصرهم شعب وأمة وحـدود ترابية ودواليب ادارية وتقـاليد لا يختلف فيها اثنان ، تلك الشروط التى تتـوفر لقيام أمة ودولة انما هزمت الدولة ونهض مغامرون وشتتوا شملها ، ولا نستغرب من ذلك اذا علمنا أن الدول المجاورة للبحر المتوسط المعاصرة لبنى زيان الأخيرين كانت كلها تعاني نفس الفتن الداخليـة وتعيش فى الفوضى والتفرقة ، ونعلم أن ايطاليا كانت السلطة فيها موزعة على البابا وفينيزيا وجنوة وسردينيا وصقلية وفلـورانزا ولونبارديا تتطاحن فيما بينها . وكذلك كانت ألمانيا وفرنسا وأيضا أسبانيـا التى لم يوحدها ويجمع شمالها بجنوبها الا الملكان الكاثوليكيـان على حساب المسلمين . وفعلا احتـلا غرناطة وطردا منها صاحبهـا أبا عبد الله بن أبى الحسن آخر ملوك بني الأحمر والمسلمين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم فى الأندلس .

أهل الاندلس النازحون

وأقام هؤلاء فى مدن الشواطىء المغربية للبحر المحيط والبحر المتوسط ، هؤلاء الذين سماهم المؤرخون الأفرنج بالموريسكوس « Moriscos » وهورناتشيروس « Hornacheros » وكان العرب يطلقون عليهم لفظ الأندلس .وتقارين « Tagarins » ينسب هذا الاسم لسكان الجزيرة العبرية كلها ولو أن أرض الأندلس مكونة من الأقاليم الجنوبية لأسبانيا التى هى : هيلفا وشبيلية وقديس وقرطبة ومالقة وغرناطة وخاين والميرية .

وأهل الأندلس هم فى الحقيقة الجغرافية سكان أسبانيا الجنوبية ، وربما أصل الكلمة من الوندال . ولما غادر أهل الأندلس فى آخر القرن الخامس عشر الميلادى مطرودين من ديارهم أو فارين من الاضطهاد سماهم الأسبان موريسكوس أى العرب الصغار احتقارا واهانة لهم . وهم أهل شبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وفلنسية وضواحيها وغيرهم من سكان الجنوب الأسبانى أى ما يقرب من نصف القطر وهو أخصبه وأرقاه .

أما سكان الشمال أى من برشلونة وما دونها وأراغون وقشتيلة ، فكانوا يسمونهم الثغريين وصحف النصارى اللفظ وحولوه الى تقارين لأن هؤلاء كانوا قريبين من الثغور أو العمارات الموجودة فى الحدود المجاورة لبلاد المسيحيين من

الجزيرة • أما المستعربون « Mozarabes » فهم الأسبان الذين كانوا يتكلمون بالعربية ويسكنون فى الجنوب مع العرب انما يدينون بالمسيحية أو كانوا مسلمين وتمسحوا تحت الضغط وكانوا موضوع اضطهاد لأنهم كانوا يضمرون الاسلام ويقيمون صلواتهم فى بيوتهم ويظهرون النصرانية ويدخلون الكنائس • وكانت لهم لغة خاصة وعوائد ومذهب مسيحى يدونونه باللغة العربية ممزوجة بالأسبانية ولما طرد المسلمون من الأندلس ألزمتهم الكنيسة الرومانية متابعة مذهبها لكن عندما أخذ الكردينال خيمينيس زمام رئاسة الحكومة سمح لهم بالرجوع الى شعائرهم المتأثرة بالمبادىء الاسلامية ولفظ مزاراب يقابل لفظ لوس مرانيس « los marranes ـــبة لليهود المتظاهرين بالنصرانية ومعناه الخنازير •

أما المدخرون « mudejares » فهم الأندلسيون الذين مكثوا بأسبانيا واحتفظوا بدينهم لكنهم نسوه مع طول الزمان ونسوا لغتهم العربية وشعائرهم أو كادوا واندمجوا فى المجتمع المسيحى انما احتفظوا ببعض التقاليد العربية والدين الاسلامى وبالمهن والفنون التى ورثوها عن أسلافهم لكنهم ألحقوها بتغييرات جذرية وأصبح لهم فن خاص يدعى فن المدخار (١٢) • وبقوا كذلك حتى ذابوا فى المجتمع المسيحي •

ولم يكتف العدو الأسبانى والبرتغالى باعادة فتح أسبانيا والبرتغال « reconquista » كما كانوا يسمونها بل صمموا العزم على متابعة حروبهما فى التراب الافريقى نفسه غير مكتفين باخراج

---

(١٢) لقد ابتعدوا فى الحقيقة كل الابتعاد عن الفن الاندلسي العربي الجميل الرائع المتمثل فى الآثار التى تركها لنا أهل الاندلس النازحون .

المسلمين من منازلهم فرأيا أنه لا يستتب لهما الأمر ولا يطمئنان بالا الا اذا أخضعا المسلمين بأفريقيا لحكمهما ونصراها . ولذلك اتفقا سنة ١٥٠٤ على اقتسام النفوذ فى افريقيا الشمالية باغراء من الكنيسة الرومانية . فاحتل البرتغال الشواطىء المحيطية للمغرب الأقصى ، بينما أخذ الأسبان يبسطون نفوذهم على الشواطىء الشمالية من طنجا الى طرابلس وأخذوا كلهم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى يركزون قوتهم على احتلال المراسي الهامة لطنجا وريومرتيل وسبتة والحسيمة (جزيرة باديس أو حجر نكور) ومليلة والمرسى الكبير ووهران ومستغانم وشرشال وجزائر بنى مزغنة وعنابة وبجاية وتونس وطرابلس .

وكان الأسبان قد اكتشفوا منذ قليل أمريكا واحتكروا استغلالها والتجارة بها وأرادوا أخذ زمام المعاملات الاقتصادية من يد العرب الذين كانوا مسيطرين على البحر الأبيض المتوسط وعزموا فى نفس الوقت على احتلال البلاد السوداء ليستحوذوا على ثرواتها ويأخذوا منها الرق قصد تعمير مغارسهم بكوبة وكارولينا واللويزيان وغيرها من البلاد الجديدة الأمريكية الخصبة ، هؤلاء الزنوج الذين يشكلون اليوم أخطر قضية فى الولايات المتحدة .

تصادم القوات التركية والمسيحية

وقد قويت شوكة الأسبان بفضل الخيرات التى كانت تتدفق على بلادهم وبفضل السلاح النارى الذى اخترع منذ زمان قليل وأخذوا يفكرون فى التوسع فى البلاد الاسلامية كلها ومحو الاسلام ونشر المسيحية ، وكان الأتراك العثمانيون ذوى نفوذ وسطوة يقرأ لهما حساب فى الشرق الأوسط وآسيا الصغرى والبلقان واليونان

وأوروبا الوسطى • ومنذ صعود شوكتهم أخذت قواتهم تتصادم مع القوات المسيحية فى البر والبحر وخصوصا فى البحر المتوسط وكان التنافس العنيف بينهما وتجرى الحروب الشديدة سجالا بينهما •

لقد شاع خبر الأتراك فى البحر الأبيض المتوسط ابتداء من سنة ١٥٠٣ فكانوا يغيرون على شواطىء جنوة وفرنسا وأسبانيا وسردينيا ومايورقة ومينورقة واليابسة وفى شرق البحر بفينيسية وصقلية وقبرص ورودس ونابل • وكثيرا ما كانوا يتفوقون على أعدائهم ، وكونوا أسطولا عثمانيا هاما كانوا يغزون بواسطته تلك الأقطار الى أن ظهر فى عنفوان أمرهم رجلان بستة مراكب فقط كانا يرأسانها على قول سواريس وهما الأخوان عروج وخير الدين المدعوان بارباروسة الأول والثانى واللذان لم يكن يعرف لهما خبر اذ ذاك •

وكانت الأساطيل تلتقى بعنف شديد ، وكثيرا ما كان البحارة الأتراك ينتصرون على أعدائهم لشجاعتهم فيسبون ويسترقون الأسرى الذين كان يسلم الكثير منهم ويشاركون هم أيضا فى الحروب البحرية ضد النصارى •

نعم كان ظهور الأتراك منذ بعض السنوات فى آسيا الوسطى وهم طورانيون من العنصر الصينى الأصفر اللون كانوا منقسمين الى آل سلجوق الذين قامت لهم القيامة فى عهد الخلفاء العباسيين ثم انقرضوا فخلفهم أبناء عمهم آل عثمان الذين استولوا على آسيا الصغرى ، وعثمان بن سليمان هو الذى أسس الدولة وفتح مدينة بورصة وجعلها قاعدة ملكه وغزا بحر الأرخبيل اليونانى

عازما على حلول محل الامبراطورية البيزنطية حتى آل الأمر الى محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية يوم فاتح يونيو سنة ١٤٥٣ وعمرها بالعائلات التركية التى حولها من آسيا وفتح بلاد اليونان كلها . وصادف طلوع نجم الأتراك من آل عثمان انتهاء العصور الوسطى ودخول العصر الحديث وانبعاث المدنية فى أوروبا « renaissance » وثبت أثناءها الدول الأوروبية وثبة عظمى على حساب المسلمين وبفضل اقتنائها العلوم الاسلامية التى كان المسيحيون يتلقونها فى الجامعات العربية بالمشرق والأندلس والمغرب وبفضل الحروب الصليبية التى كانوا يشهرونها على البلاد الاسلامية ، تلك النهضة التى جعلت أوروبا تتفوق على العرب الذين صارت مدنيتهم تضمحل .

فنشأت الدولة العثمانية على تلك الأطلال لكنها لم تستدرك الموقف المتفاقم ، انما كانت حامية بيضة الاسلام الذى كادت المسيحية أن تمحوه لولا تصلبهم وشدة بأسهم ووقوفهم كالبنيان المرصوص فى وجه أوروبا المتحالفة المتكالبة على الاسلام والعروبة .

وكانت المملكة التركية وراثية فى آل عثمان الذين انتسبوا للخلافة . فكانوا يحمون باسمها الاسلام ويدافعون عنه كأمراء المؤمنين تقام باسمهم الصلوات كأيمة ويدعى لهم فى جل الأقطار الاسلامية بآسيا وافريقيا لا تحاجهم فى ذلك دولة اسلامية حتى الفرس الذين دخلوا فى طاعتهم فى عهد سليمان القانوني .

الحرس التركي
ظهور آل يعقوب بن يوسف
نشـــأة عـــروج

كان فى عهد القراصنة عـدد من الحراس الأتراك فى جيـوش ملوك بني زيان وبني حفص وأشياخ الصحراء الجزائرية مثلما كان الحراس الســويسريون فى بلاطات الملوك المسيحيين • وكان ذلك الحرس شديد الطاعة للملوك والأشيـاخ اذ كـانوا بعيدين عن أوطانهم متجلدين لا يؤثر فيهم اغـراء الأهالى ولا دسائسهم ، ولذلك كان هؤلاء الرؤساء يضعون الثقة فيهـم ويعتمـدون على اخلاصهم •

واذ كانت الحالة هذه فى البـلاد العربية والتـركية المجاورة للبحر المتوسط ، كان يعيش فى جزر موريا باليونان بقرية ملى رجل يونانى الأصل يسمى يعقوب بن يوسـف • وكـان خزافا وهـو مسيحي أو اسرائيلى (١٣) يدعى أيضا على قـول حاجى خليفـة ينيجوردر أو على قول بعض المؤرخين كان مسلما روميليـا جنديا محترفا فى الجيش التركى المرابط فى مدلى جزيرة ليسبوس قديما التى تسمى الآن بميتيلان « mitylène » الواقعة فى بحر ايجيـا •

---

(١٣) من غريب ما يلاحظ هو ان اسماء الأسرة كلهـا من اسماء انبيـاء بني اسرائيل منها يعقوب ويوسف واسحاق والياس

وربما كان خزافا ثم تجند فى الجيش التركي فى عهد السلطان محمد خان الثانى أو كان نوتيا رئيس سفينة • فتزوج على قول هؤلاء بنت مسيحية اسمها كاطالينة باذن من رؤسائه • يقال أنها كانت أرملة رهيب أو كان هورهيب وأسلم وأتت له بثلاثة أولاد • وعلى كل حال ولدت له بنين كثيرين من جملتهم اسحاق وعروج أو أروج وخير الدين والياس وبنتين (١٤) •

ومهما يكن من أمر فان يعقوب لم يستطع القيام بتوفير معيشة أولاده • كان اسحاق على ما يظهر بحارا وخير الدين خزافا مثل أبيه اسمه الأول خذر وعروج بحارا والياس أو محمد طالب علم وكان حافظا للقرآن • فرباهم أبوهم على الدين الاسلامى الصحيح أما أختاهم فقد ربتهما أمهما على الدين المسيحى ويقال أن يعقوب كان انكشاريا حضر فى فتح ميدلى من طرف السلطان محمد الثانى العثمانى سنة ١٤٥٧ الذى انتزعها من يد الجنويين وفرسان رودس • ولما فرغ من الخدمة العسكرية أخذ يتعاطى الخزافة • فخرج الأولاد من بلدهم ليرتزقوا ويعينوا العائلة على تحمل عبئها الثقيل وأول من خرج أخوهم عروج الذى لا يعرف الا بهذه الكنية الغريبة • يقال ان اسمه الحقيقى هو أروج وهو تركى معناه رمضان لأن الأتراك كانوا يسمون أبناءهم ببعض شهور السنة الهجرية مثل رجب وشعبان ورمضان ولا يتلفظ الأتراك بحرف العين • ويستدلون بلوحة وجدت بشرشال فى برج الترك عليها نقش هذا نصه :

« هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود ابن فارس التركي

---

(١٤) نأتي على سبيل الاستطراد بخبرواه أورده بعض المؤرخين الفرنسيين بأن يعقوب فرنسي الاصل من عائلة شريفة ، آل أوطون .

فى خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد فى سبيـــل الله أروج بن يعقوب بتاريخ أربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٧) وكانت شرشـال بيد أحد رؤسائه الذى قتله عروج وسكـانها من العرب والبربر وأهل الأندلس النازحون من غرناطة وفلنسية وأرغون •

أتى الأستاذ الكبير السيد أحمـد توفيق المـدنى بآراء جديدة تتجت بعضها من أبحاثه الخاصة والبعض الآخـر من استنتاجاته من العناصر التى عثر عليهـا وان لم نوافقـه فيمـا يخص بعض الأخبار التى أوردها فاننا نبسطها هنا للقارىء • واذا أخذنا عنـه فاننا نرى أن السيد يعقوب بن يوسف كان تركيا يعيش فى جـزيرة مدلى ببحر الأرخبيل من بقايا الفاتحين المجاهدين • كان متزوجـا من سيدة أندلسية (١٥) ولدت له أولاده اسحاق وعروج وخـرف (وهو خير الدين) • وهذه الكنية منحها له أصحابه فيما بعد ، عن السيد أحمد توفيق المدنى ومحمد الياس وحقق أيضا « أن أولاد يعقوب نشأوا نشأة اسلامية صلبة وترعرعوا فى حجـر الجهـــاد الاسلامى العنيف يوم كانت الملحمـة عامة عارمة بحـرا وبرا ، بين المسيحية والاسلام » • فاذا كان ابنه محمد اليــاس اختار طريق العلم والتبحر فى دراسة القرآن والفقه فان الآخرين قد اندفعـوا فى طريق الجهاد •• واذا كان الدم الأندلسي يجرى فى عروقهم عن طريق والدتهم كان نداء الدم قد قادهم للجهاد فى الحوض الغربى من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالبلاد الأسبانية » (١٦) •

---

(١٥) اكد هذا القول ميشو فى ترجمته العامة فى فصل باربا روسة :
Biographie générale. Art. Barberousse

(١٦) أحمد توفيق المدنى ـ حـرب الـ ٣٠٠ ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبـانيا ص ١٥٠ ـ ١٥٧ •

أما عن لقب عروج فاننا نلخص رأى المؤرخ الجزائرى المصلح، أن أصله العروج أى الصعود • كان الأتراك يسمون أبناءهم بالشهور الهجرية مثل رمضان ، شعبان ، رجب ، وسمى باسم عروج • هكذا مأخوذ من المعراج وعروج رسول الله (صلع) وأيد ذلك بلوحتين احداهما بالجزائر فيها نقش أروج محتجا بأن الأتراك يلفظون العين آلفا ولذلك يقال أن لفظ أروج عربى محض مصحف • والله أعلم •

خروج عروج من مدلى

أبحر عروج على متن سفينة تركية اشتغل فيها كمجرد بحار وكانت سفينة قرصنة تغير فى البحار على مراكب العدو ، فتحاربها وتسبيها عند الظفر بها وتسوقها الى أحد الموانىء التركية حيث يباع الفيء •

وقال صاحب تحفة الزائر عن عروج ما نصه :

« نشأ عروج نوتيا فى مراكب الجزيرة ثم اتخذ لنفسه قرصانا واستكمل تعبئته وأخذ يغزو ويغور الأفرنج ويتوغل فى سواحلهم ويترصد مراكبهم ويرجع بالغنائم • فشاع ذكره واشتهر أمره » (١٧) •

فامتاز عروج بشجاعته وشدة بأسه ولم يعرف هل كان فى أول أمره مسيحيا فأسلم أو كان مسلما فى الأصل وعن هايدو كان نصرانيا وأسلم عند دخوله كبحار • وعلى كل حال كان شديد التمسك بالدين الاسلامى وآل به الأمر الى أن كثرة انتصاراته جعلته يترأس سفينة امتلكها بفضل بطشه وعمرها وجهزها •

---

(١٧) تحفة الزائر ص ٦٠ ج ٢ .

صورة عروج

ولحقه اخوته الواحد تلو الآخر ، فخير الدين ثم الياس ثم اسحاق الذى هو أكبرهم وهو آخر من التحق به عند رجوعه الى مدلى بعد تغيبه . فوجد أباه قد صار الى عفو الله تاركا أولاده فى حالة احتياج فحملهم معه .

وعمر عروج سفنا عديدة عاونه اخوته على سيرها أخذوا يجوبون البحار ويحاربون ويظفرون تارة ويفرون تارة أخرى ، أمام تفوق العدو . فاشتهر عروج فى البحر المتوسط وشاع صيته فى البلاد المغربية من تونس الى الرباط وسلا . وقد سبي فى احدى حروبه قرب جزيرة رودس استشهد أثناءها أخوه الياس فى معركة ضد فرسان رودس (١٨) واشترى عروج بشاركة رجلين من أعيان الجزيرة ، وحاول أخوه خير الدين تخليصه فلم يفلح . انما خلص نفسه بفضل دهائه . قيل أنه قطع طرفا من لحم قدميه ليخرج الكبل من رجليه . ولما كان أسيرا فى الجزيرة تعلم الفرنسية والايطالية وأطلع على سير ادارة الجزيرة وسياستها مما جعله على بصيرة من الأمور الادارية عندما استولى على الجزائر كما سنراه . وبعد ما نجا من يد أعدائه انتقل الى مصر على متن سفينة كمجرد بحار وحمال . لكن سرعان ما أخذها النصارى انما نجا بنفسه والتجأ الى ايضاليا من بلاد اليونان كانت بيد الأتراك ثم استعان بأخ السلطان سليم المدعو الأمير قرقود فجهز له سفينة ليحارب بواسطتها أعداءه وخصوصا أهل رودس بقصد الانتقام منهم واكتساب الرزق . فتصدى له القراصنة النصارى فأخذوا مركبه ولاذ بالفرار مع أصحابه ، فزار قرقود ليستعطفه من جديد متوسلا بأحد الرؤساء البحريين المدعو باس باى فعمر له قاضى أزمير سفينة

---

(١٨) يزعم بربور فى كتابه بربروس أنه استشهد فى معركة بجاية وليس ما يرجح قولا على الآخر .

جديدة بأمر من قرقود • فصحبت عروج سفينة أخرى لباس باى • فمر عروج بجزيرة مدلى (١٩) مسقط رأسه حيث زار عائلته التى كانت فقدت أخباره ثم قصد البلاد الايطاليـة وقام بعدة حـروب مظفرة وأخذ المتاع والأموال الطائلة • وتوجه بها الى مدلى حيث علم بخلاف قائم بين السلطان سليم العثمانى وأخيه قرقود (٢٠) • فخاف على نفسه من انتقام الخليفة والتجأ الى مصر حيث سمح له سلطانها المملوك الشركسي بالمكوث بأحد مرافئها على أن لا يقوم بأية مناورة حتى فصل الربيع فيذهب الى حال سبيله حيث أنه كان من عادة القرصان أن لا يبحروا الا فى فصـل الربيع خـوفا من هيجان البحر فى أيام الشتاء ولما تحسنت الأحوال الجوية توجـه عروج الى الناحية الغربية من البحر المتوسـط وطلب من سلطان تونس الحفصى محمد بن الحسن الارساء فى موانىء ايالته فقبـل السلطان بشرط أخذ أخماس الفيء من بضاعة ورق وسفن • واتخذ عروج أولا جزيرة جربة مركزا له سماه السلطان الحفصى واليـا عليها • فحط أثقاله بها ابتداء من سنة ١٥٠٠ م (٢١) وأخذ ينطلق منها ويغدو اليها غازيا سواحل الأفرنج ، ثم اتخذ تونس قاعـدة له • فجاء الى حلق الوادى بأثقاله مع أخيه خير الدين الذى كان التحق به بجربة •

تركيب جيش عروج

كان عروج يستعين بالمجاهدين من مختلف النواحي المغربية من الجزائريين والتونسيين والمغاربة والـزنوج والأسرى المسيحيين

---

(١٩) أصله من قرية صغيرة على شاطىء البحر تدعى ملى كما مر بنا .

(٢٠) قبض عليه السلطان وأمر بقتله ويخبرنا التاريخ أن سليما كان سفاحا قبل انه قتل ستة عشر من الامراء وجل وزرائه الواحد تلو الآخر بحيث لم يجد فى آخر الامر احدا يريد تقليد خطة الوزارة لما حدث لسوابقه .

(٢١) يسميها هايدو « Ile Gelves » والوزان « Ile Zerbi »

المعتنقين للاسلام المدعوين عند النصارى بالمرتدين « renégats » (٢٢) وخصوصا بأهل الأندلس الذين طردوا من ديارهم أو فروا منها ، وكانوا أشد الناس صلابة فى الحروب وبفضلهم كان ينتصر عروج على أعدائه لشجاعتهم وشدة بأسهم وهم أقوى الناس عداوة للاسبان لما قاسوه من اضطهاد وعذاب من جانبهم ، وكان عروج قد أسدى اليهم معروفا بنقله اياهم من السواحل الأسبانية الى المغرب وتخليصهم من اليد العادية . وقد حمل منهم ما يزيد على عشرة آلاف مهاجر فى سفنه كما حمل منهم أخوه خير الدين مايزيد على ٧٠٫٠٠٠ فى سبعة أسفار أو أكثر .

وكان المحاربون الأتراك فى سفن عروج قليلين جدا بالنسبة لسائر الأجناس حتى يجدر بنا القول أن عدد الأتراك الأولين الذين كان يحارب بواسطتهم عروج وأخوه خير الدين عند طلوع نجمهما ، ضئيلا جدا يعد على أصابع اليد على أن هؤلاء كانوا من جنسيات مختلفة من اليونان والشركس والروميليين والألبانيين المدعوين غرناوط انما كانوا ينتسبون للاتراك افتخارا بهم وكان يسميهم هايدو « الأتراك حرفة » .

وكانت سفن عروج شراعية تستعين بالمجاذيف كثيرا ما كان يقذفها الأسرى النصارى الذين يفضلون الاسترقاق على ترك عقيدتهم الدينية . وكانت حالتهم مثل حالة المسلمين الذين يعملون فى السفينة يأكلون من أكلهم ويعاملون مثلهم خلاف المسلمين الذين كان القراصنة المسيحيون يسبونهم فى سفنهم الحربية « Chiourmes » وقال جوليان عنهم « كانت تغذية البحارين (أى

---

(٢٢) لم يسمهم المسلمون بالمرتدين انما يسمونهم اسلاميين او العلج .

الأسر الأفرنج) سيئة وكانت تفتش ثيابهم عند الاقتراب من الساحل أو في وقت الفرار . وكانوا ممن يؤسف عليهم أكثر من غيرهم لكنهم لم يكونوا أكثر بؤسا من الافريقيين الذين كانوا يعملون في سفن ملك فرنسا ، اذ أن الأولين لم يكونوا يسمونهم بالحديد الحامي وكانت تترك لهم حريتهم في القيام بشعائرهم الدينية » .

ضابط قرصان جزائري

احتلال الاسبان المرسى الكبير ووهران
نظام المستعمرات السياسى والعسكرى

بعدما تم العدو الأسبانى من طـرد جل المسلمين من الجزيرة العبرية عزم على احتلال الشواطىء الافريقيـة وأول مركز سقـط ضحية غزو الأسبان على التراب الجـزائرى كان المرسى الكبير ثم والته مدينة وهران .

والمرسى الكبير يعد من أحسن وأوسع وأهدأ ميناء من موانىء العالم ، الأمر الذى أدى بالأسبان الى احتلاله قبل غيره لكي يكون أسطولهم فى مأمن من شواطىء أفريقيا . وكثير من المؤرخين العرب وصفوا هذا الميناء وذكروا الدور الذى لعبـه فى التـاريخ وكان الرومان يسمونه المرسى الربانى « portus divinus » وكذا ذكر المؤرخون أهمية وهران . فأول تاريخ ذكر عن وهران هـو سنة ٢٩٠ هـ ــ ٩٠٢ م فى عهد أمويي الأندلس (٢٣)، فانهم أرادوا أن يسدوا سلطتهم على المغرب الأوسط ، فوجهوا القائدين محمد بن أبى عـون وابن عبدون اللذين أبرما اتفاقا مع فرقة بني مزجن من القبيلة البربرية ازداجة الصنهاجيين فسلمت الفـرقة للخليفـة الأموى قطعة مـن الأرض شيدوا عليها مدينة وهران أو كانت قرية قديمة فوسعوهـا وهى تسمى كيزة ذكرها المؤرخون اللاتينيون فأصبحت المدينة نقطة انطلاق للامويين فى المغرب الأوسط ، فتوسعت المدينة بفضل البلاد الخصبة المجاورة لها وأصبحت ميناء ذات ثروة وحـركات تجارية

(٢٣) كانت توجد بلا شك قرية قديمة تسمى كيزة ذكرها المؤرخون اللاتينيـون وكيزة قبيلة بربرية قديمة .

هامة للغرب الجزائرى لايضاهيها مرسى آخر وبقيت هكـذا حتى أخذها المرابطون . فأصبحت لهم مركزا منيعا أمام الجزيرة العبرية وبسقرب منها الى أن آل الأمر الى الأمير المرابط تاشفين ابن على بن يوسف الذى لقى حتفه بوهران يوم ٢٧ رمضـان عـام ٥٣٩ (١٠٤٤) قتل أثناء الحرب التى شنها عليه عبد المؤمن بن على الموحد. ولم يعر الموحدون بعد ذلك أهمية لوهران . كما كان المرابطـون يعيرونها اياها .

وكانت فى عهد بني عبد المؤمن مجـرد ميناء للناحية الغربية للمغرب الأوسط . ثم لما بسط بنو عبد الواد حكمهم على هـذا القطر كانت أهم ميناء مع هنين وارشقول ترد عليها البضائع بكثرة وتصدر منها لكن تحول المـرسى مرفـأ للقراصنة فى أوائل القرن السادس عشر ، الأمر الذى جعل أهل وهران ينفصلون عن الحكم المركزى لتلسان وفى ذلك التاريخ ظهر طمع الأسبان ، عالمين أن المدينة متمتعة بشبه استقلال لا علاقة لها بأمير تلسان بحيث رأوا أنه يسهل عليهم احتلالها وكان الأمر كذلك . وقد جمع فرديناند جيشا هاما أعده لفتح المرسى الكبير ، فخرج من مليقة بأسبانيـا يوم ٢٩ غشت سنة ١٥٠٥ . فأخـذ أهل المرسى يستعدون للدفاع وترصدوا للعدو لكن تأخر الأسطول لريح شديدة هبت عليـه فى الطريق بحيث ظنوا أن العدو عدل عن الهجوم فتفرقوا وذهبوا الى حال سبيلهم . فاذا بالسفن الأسبانية قد أقبلت كسيـل عرم فى ١١ شتنبر سنة ١٥٠٥ واحتلت المرسى بسهولة لأنه لم يكن محميا . ولم يكن الأسبان يتوقعون هذا الأمر اليسير .

وبعدما سقط المرسى الكبير على هذا الشكل أخذ العدو يتهيأ للاستيلاء على وهران وفعلا احتلها فى ١٩ مايو سنة ١٥٠٩ وسمى على رأسها بيدرو نفارو كوال عسكرى .

وبذلك كان من المتوقع أن ينفذ الملكان الكاثوليكيان أملهما وهو احتلال أفريقيا ونشر النصرانية فيها ومحو الاسلام حيث أن حلولهم بالمرسى الكبير كان يوما مشهودا عندهم أدوا فيه الصلوات الرهيبة وسرح الشعب ليقيم مدة أسبوع فى مجموع التراب الأسبانى التعبدات والمهرجانات والأفراح والتسليات وذلك تبركا بالتراب الذى سوف تنشر فيه الديانة المسيحية وتعم بسهولة حيث أراد المسيح أن تفتح أعظم قلعة للاسلام بلا عناء . واستعظم الأسبان احتلالهم المرسى الكبير وظنوا أنهم سيستولون على باقى أفريقيا والدليل على ذلك ما كتبه أحد قوادهم دون قونزالف آيورا فى تقريره للكردينال خيمنيس عند حلوله بالمرسى الكبير : « هانحن الآن فتحنا نصف افريقيا » (٢٤) وقال المؤرخون الأفرنج أن الأسبان لما احتلوا وهران لم يمت لهم أكثر من ثلاثين نفرا بينما استشهد العدد العديد من المسلمين واستلم الباقون مع الوعد بالحماية على الأموال والأرواح لكنه خان العدو الوعد وقتل وسفك الدماء وأسر ما بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ من المجاهدين وأخذ الأموال الطائلة اذ كانت المدينة مثرية غنية . أما خيمنيس فانه اختلس النفائس وعددا هاما من المخطوطات العربية وضعها عند رجوعه فى كنيسة طليطلة . (٢٥)

كانت وهران عندئذ تحت سلطة الملك الزيانى الاسمية الا أن مجلسها كان منظما على شكل جمهورية شبه مستقلة وغاية ما كان يعمل السلطان هو أنه كان ناصبا أمينا له يتقاضى باسمه الرسوم

---

(٢٤) وزارة الحرب – جدول حالة المؤسسات الفرنسية بالجزائر يونيو ١٨٤٠ ص ٢٤٥ – المطبعة الملكية

Ministère de la guerre. Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie. Imp. Royale - Juin 1840.

(٢٥) نفس الجدول ص ٢٤٥

الجمركية عن السلع الصادرة من وهران والـواردة عليهـا وبقيت وهران مستقلة مدة أربع سنوات كان الأسبان ينظمون أثناءهـا جاسوسيتهم قصد احتلالها وكـانوا باتصـال مستمـر مع بعض الخونة الجزائريين من جملتهم الاسرائيلي زواوة وتجار مسلمين كانوا مكلفين بسك الاعشار باسم السلطان • (٢٦)

ان هذه الفتوحات السهلة التى حصلوا عليها بفضل الجوسسة والضربات السريعة ، جعلت الأسبان يظنـون ان افريقيـا أصبحت أرضا تحت رحستهم لكن خاب أملهم بفضـل المشاكل الهائلة التى حدثت لشارل الخـامس خلف فرديناند من حسـن حظ الاسلام وافريقيا • ذلك أن المشاكل التى أخذ يجابهها الامبراطور ووقوف الأتراك فى وجهه قد خيبت آمال المسيحية (٢٦) •

وبمجرد ما حل الأسبان بالمرسى الكبير ووهران أسسوهـا ونظموهما وأنشأوا ادارة عسكرية خاضعة لقائدالجيش واعتبروهما كـأرض أسبانيـة • كـان عـزم الـكاردينـال خيمنيس عـلى احتـلال الشـاطئ الأفـريقى بكـل يقظـة وتبصر حيث وجه عـدة جـواسيس الى تلمسـان ووهـران والمرسى الكبير ليطلعوه على أحوال الناس ووسائل الدفاع التى يتوفر عليها السلطان الزيانى وأهل المرسيين • ومن جملة هـؤلاء ، الأسبانى لورنزو باديا • Lorenzo Padilla • والفينيـي جيرو نيمـو فيانيلي • Vianelli الذين زودا الـكردينال بالمعلومات الثمينة التى استنار بها عند هجومه على الشاطئ الجزائرى واحتلال المدينتين• كما استعان بعمل الجاسوسية الخطير من طرف أحد تجار وهـران

---

(٢٦) البحث العلمى • Exploration scientifique • ص ١١ ج ١

الاسرائيليين المثريين بن زواوة المذكور الذى فتح باب المدينة ويسر دخول الجيوش الأسبانية الى المدينة باعانة الأهالى .

ومن المعلوم أن خيمينيس هو الذى مول الجيش من كيسه الخاص مهيئا له مؤونته لمدة شهرين لأن بيت مال فرديناند كان خاليا بسبب الحروب التى كان شنها من قبل على المسلمين . واعتبر الأسبان المدينتين كقطعتين من ترابهم الوطنى سموهما بريسيديوس وعمروهما بالجنود وبمواطنيهم المدنيين من المغامرين والمرتزقة والمجرمين الفارين من الحكم بأسبانيا وأبناء الأغنياء العاقين والخلعاء الذين نفاهم الحكم النظامي بايعاز من آبائهم كان يسمى الجميع رباطيين « rabatines » (٢٧) .

وكان الأسبان يعاونون فى حكمهم من طرف العملاء العرب يختارونهم من القبائل المجاورة للبلدتين كانوا يسمونهم عرب السلم « los moros de paz » او « los moros inclinados a la paz » أى العرب الذين يعتمد عليهم بكل أمان والمعاونون المدعوون العرب الملتزمين « mogataces » والمخبرون الأدلاء المدعوون « los adalides » أما العرب الآخرون فكانوا يقسمونهم الى قسمين فالقبائل التى هى مستعدة للصلح أو تكاد تدعى للصلح « los moros inclanados à la paz » والقبائل المعادية لا أمل فى اخضاعها للحكم الاسباني تدعى « los traidores » معناه « الخونة » .

وكان الاسبان القاطنون بوهران والمرسى الكبير قد أسسوا نظاما ملكيا مثل ما كان موجودا فى مدريد وسموا قصر الوالى

---

(٢٧) ويطلقون هذا الاسم ايضا على المرابطين فى المرسى الكبير ووهران سنة ١٧٩٥ عندما اخلوهما .

المدعو قبدان خنيرال ، كورطى شيكا « corte chica » أي القصر الملكي الصغير كانت له حاشية وبطانة تخدمه وتقوم بالمهمات السياسية والادارية .

ومن وهران والمرسى الكبير كان الاسبان يسمون غاراتهم لاس خرناداس « las jornadas » يرتزقون منها أو ينهزمون كما كانوا يفرضون على العرب الضرائب التى كان يسميها الأهالي الزكاة الرومية .

وقد لعب والي وهران دورا سياسيا هاما أزاء ملوك بني زيان الذين كانوا يستغيثون به عندما كان الأتراك مسيطرين عليهم، خصوصا منهم عروج وخير الدين . وكان يصل الى بني زيان المدد والمعونة من الأسبان من المرسى الكبير ووهران اللذين أصبحا المينائين للجهة الغربية وظلا تحت سيطرة العدو مدة ثلاثة قرون الى أن أخرجه الأتراك نهائيا سنة ١٧٩٥ .

ان ذلك النظام السياسي والاداري للمدينتين المذكورتين قد طبق على المراسى الأخرى المغربية الواقعة تحت سيطرة الأسبان الا بعض التغييرات الجزئية . كان ابتكره ورتبه فى الحقيقة الوزير الاول للملكين ، الكردينال خيمينيس الذى كان يسيرها دون غيره من بورقوس أو مدريد لا يزاحمه فى الحكم أحد بعد ما فرض هو أيضا على الملكين فتح تلك المراسي التى كان يعتبرها بنات مجهوداته رغم أشمئزاز القواد العسكريين وانفتهم من الخضوع لرجل الدين لا المام له بالامور الحربية . وقد روى المؤرخون الخلاف العنيف الذى كان قائما بينه وبين أمير البحر بيدرو نفارو المذكور أعلاه .

نظام المستعمرة الاسبانية فى الجزائر

كانت المستعمرة الاسبانية الشاطئية موضوعة تحت حكم القائد العسكرى المدعو « جنرال كبطان » الذى كان مسؤولا أمام الملك الأسبانى أو الامبراطور وهو يتكاتب معه مباشرة بدون وساطة .

كان يقضى بين الناس فى الأمور المدنية والتجارية وحتى الجنائية بدون استئناف لدى الملك ويفوض سلطته القضائية لقاض يدعى القاضى « Al Cade » الذى كان مختصا بالنظر فى الدعاوى وبأمن البلد بمساعدة جند الاحتلال .

وللوالي أيضا مستشارون « Cortes » يجلس معهم فى المهمات لحل المشاكل المدنية والعسكرية والاقتصادية والتموين الذى كان يشكل الامر الخطير فى المستعمرة نظرا للصعوبات التى كان يلاقيها الوالي فى تموين الجيش والسكان وقلة المال الذى يرد عليه من أسبانيا .

وكان يساعده فى الأمور المالية والدخل والخرج والمراقبة عليهما موظف سام يدعى كوريخيدور « Corregidor » وهو تحت أمره الا فى بعض الأحيان التى كان يتوفر فيها على السلطة المطلقة من طرف الملك لا يتشاور الا معه بحيث كثيرا ما كانت تحدث خلافات وتصادم بينه وبين الوالي لوجود سلطتين مستقلتين فى المستعمرة الامر الذى أدى بأحد الولاة المتجبرين الماركي دى كرضوبة الكاوديتي الى مغادرة وهران وأبى الا يرجع اليها حتى ينهي الامبراطور مهام الكوريخدور أو يضعه تحت أمرته . « Varas del corregimendo »

وهناك موظف آخر وهو القائد « al caide » الـذى كان له النظر فى أمور الأمن ويقضي فى الجنايات والجراحات ويحرس على نظام المدينة الداخلى . وكان أمام القاضي عدول للتوثيق بين الناس يدعونهم اسكريبانوس بوبليكوس أى الكتاب المعسومين . escribanos publicos .

وتوجد مكاتب عديدة كتبها الملوك الـكاثوليكيون لولاتـهم بالمستعمرات الجزائرية والعكس بالعكس لا زالت الاصول موجودة عليها الملاحظات بخط يد الملوك وهو التوقيع كما كان يجرى عند الملوك المسلمين فى ذلك العهد .

كانت وهران من بين المستعمرات الاسبانية كلها ذات الاهمية العظمى يعيرونها الاعتناء الكبير لموقعها الاستراتيجى الخطير وكانوا يسمونها باب أسبانيا « puerta de Espagna » ورغم فقرهم فى ايـام الانحطاط والصعوبات التى كانوا يلاقونها لتموينها ومشاكل الاحتلال كانوا يصبرون على المشاق لئلا تسقط بيد المسلمين لأنهم كـانوا يعتبرونها بابا مفتوحا على المشرق العربي والبلاد الاسـلامية وبيت المقدس وكانوا يلقبونها فى وثائقهم الرسمية بالمدينة الشريفة والوفية « Ciudad noble y leal »

وكان الملوك يعينون عليها ولاة من العائلات الاسبانية الوجيهة مثل ماركي دى كوماريس كوندى دى كرضـوبة تلك العـائلات التى تولت عليها أكثر من قـرن من أب الى ابن . وكانوا يـدعون انفسهم كبدان جنيرال لوهران والمرسى الكبير ومملكتي تلمسـان وتنس .

هذا وان دأب الاسبان عند احتلالهم المواقع الحساسة بالجزائر هو استراتيجي وروحي فى نفس الوقت ـ استراتيجي لكي يراقبوا

سفن البحر المتوسط ويجوبونه بحرية ويكونوا أسيادهم حتى لا يبقى العرب والمسلمون مسيطرين عليه كما في السابق . ثم الهدف الثاني وربما كان رئيسيا في أعين الكثير منهم هو ديني . اذ كان شغلهم الشاغل محو الاسلام من الجزائر واحلال المسيحية محله وتلك كانت دائما همتهم والتبشير في البلاد المغربية تحرضهم على ذلك الكنيسة وتحثهم على القيام بالحروب الصليبية . ان الجيش مهما كان يرابط في ناحية الا ويتبعه فوج من الرهبان ليقوموا بالتنصير . نعم حصلوا على بعض النتائج في دائرة الأراضي التي كان الجيش مسيطرا عليها غير أنه ذهبت الجهود الجبارة المبذولة أدراج الرياح بحيث عندما انجلوا نهائيا عن الأرض المغربية لم يبق ولو مسيحي واحد يرزق بل عكس ذلك بقي بها عدد من الجنود والسكان المدنيين الأسبانيين وعائلاتهم بالمستعمرات فطلبوا الأمان من المسلمين وعاشوا مدة من الزمان ثم أسلموا والكثير منهم بوهران (٢٨) .

الكردينال خيمينيس دي سيسنيروس

هو فراي فرنسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس يسميه العرب ابن الخميس ، أسقف طليطلة ، كردينال ووصي على عرش أسبانيا في مدة قصر شارل الخامس وغيابه عن عرشه . ازداد بقرية كائنة في قسطلية سنة ١٤٣٧ من عائلة خاملة وفقيرة كان أبوه قابضا للضرائب وأمه من عائلة شريفة أسبانية فقيرة .

ان هذا الراهب كان من الشخصيات الأسبانية الغريبة الذين عاشوا تلك الفترة الاستثنائية من طرد المسلمين من الأندلس

---

(٢٨) ابرنيست لافيس ج ٤ ص ٨١٢

الكردينال خيمينس دي سيسنيروس

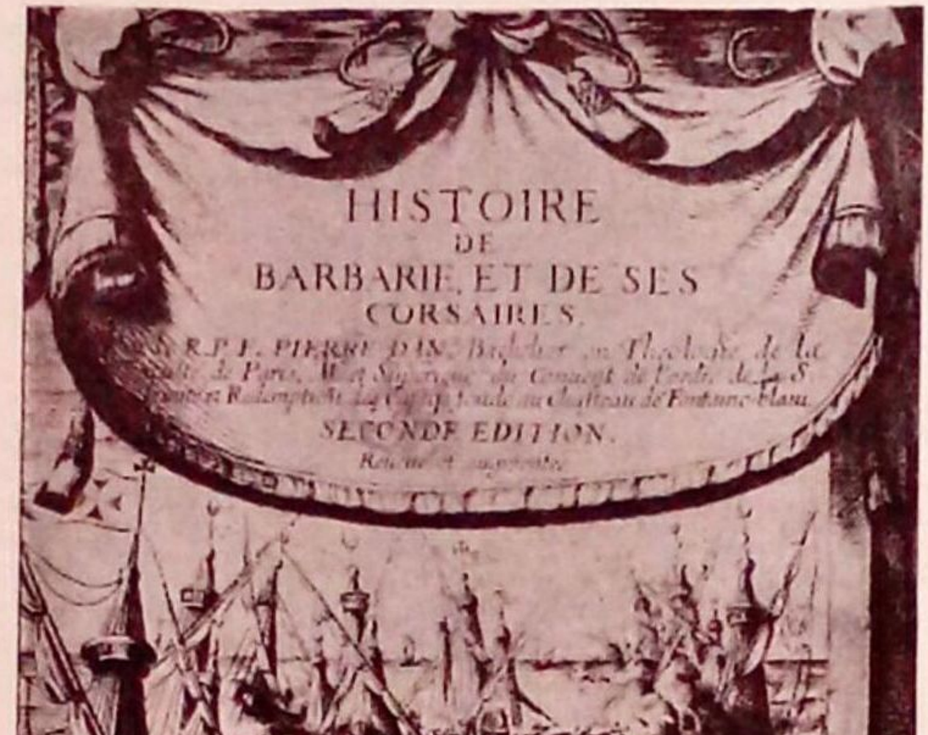

الكردينال خيمينيس بعمد مسلمين

واكتشاف أمريكا وهجوم المسيحية على البلاد المغربية انتقاما من حكم المسلمين وحسما لمادة استرجاع نفوذهم لا فى الجزيرة العبرية فحسب ، بل لمحو الدين الاسلامى بأفريقيا واحلال المسيحية محله وسفك دماء المسلمين ظلما وعدوانا وفرض الحروب الصليبية من الطراز الجديد .

وامتاز هذا الرجل العنيف بتعصبه الشديد وارادته الفولاذية فى اضطهاد المسلمين وحرقهم وحرق كتبهم باسم السيد المسيح عليه السلام الذى حاشاه أن يفرض عليه أن يقتل ويعذب ويحرق رجالا كانوا يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله ويقولون برسالة عيسى ابن مريم وظن أنه كان يخدم دينه خدمة المخلص انما حصل على نتيجة غير التى كان يترجاها فى تصرفاته طيلة حياته الدينية والسياسية .

كانت أوصافه الطبيعية حادة جدا لا يبالى بالحواجز التى تتعرض له فى القيام بمهمته التى كان يعتبرها أمانة دينية سطرها لنفسه لخدمة دينه مهما كلفه ذلك من المشاق والمتاعب والتضحيات البدنية والانتقادات والشتم والقذف من اخوانه وحتى من أفراد عائلته .

تخرج من جامعة سالامنك التى كانت اذ ذاك أشهر جامعة مسيحية درس الفلسفة والتوحيد ان صح هذا القول والحقوق المدنية والقانون الدينى المسيحى واللغات الشرقية .

وبعدما دخل الى الرهبانية وأتم دراسته أخذ يدرس الحقوق ، ثم انتقل الى رومة حيث تولى الدفاع عن أسبانيا لدى الفاتيكان بحيث سلم له البابا سيكست الرابع أمرا خوله بموجبه

أسقفية طليطلة عند شغورها مجازاة لخدماته ولما رجع الى أسبانيا لتشييع جنازة أبيه وفى انتظار فراغ المنصب أراد أن يشغل أسقفية أوسيدة فزج به فى السجن لجرأته وبقى معتقلا مدة ست سنوات وبعد العذاب الشديد أطلق سراحه ومنح المنصب فاخذ يعظ وينذر ويوعد ويهدد حتى اكتسب شهرة بعيدة عند الشعب البسيط بلغت الى الملكة ايزابيلا التى دعته لديها ليكون متلقى أسرارها وشرع فى الدعاية ضد الاسلام ونشر المسيحية فى البلاد الأسبانية والمغربية • وبعد موت الكردينال دى مندوسة أسقف طليطلة عين خلفا له وكان فى أول أمره متقشفا بسيطا فى حياته ، يتغذى بقليل من الأكل البسيط وينام على الأرض ويرتدى الكسوة الخشنة تقليدا لسيرة السيد المسيح عليه السلام لكنه لما رأت الملكة فيه خصال التجلد والارادة القوية وحدة الأخلاق والثبات فى شؤونه وكراهة الاسراف جعلته مستشارا لها رغم رفضه القيام بهذه المهمة التى اعتبرها فى أول الأمر مخالفة لتعاليم المسيح ولما ذاق حلاوة السلطة والجاه وعزة الوزارة المطلقة والبذخ انغمس هو أيضا فى الملذات والأكل الطيب واللباس الفاخر مثل الوزراء والكبراء والوجهاء والأعيان الذين أخذوا يدورون حوله فى البلاط الملكي وأخذ يجمع الأموال ومتاع الدنيا لكنه رغم ذلك لم يحد قط عن عزمه على محو الاسلام وتنصير أهل الأندلس المسلمين واضطهادهم عند رفضهم الارتداد أو طردهم من ديارهم أو اصدار الأمر بقتلهم واحراقهم واحراق كتبهم باسم الدين •

فانه شرع فى ترجمة التوراة بعدة لغات شرقية اعتبارا من النسخة العبرية • وأحيا المذهب المسيحي المدعو المستعرب الذى كان يعمل به من قبل أهل الأندلس المستعربون والذى كان

يضمحل باضمحلال اللغة العربية بأسبانيا فأحياه وثبته وطلب من الفاتيكان اثباته رسميا .

وصرف عنايته الخاصة ونفوذه وحدته وشدة جرأته للفقهاء المسلمين من أهل الأندلس الذين كان يرى فيهم الخطر من حيث بث الروح الاسلامية فى الناس وابقاء المسلمين على دينهم . وأخذ يرغم الناس على اعتناق المسيحية باذلا الجهود الجبارة فى ذلك بحيث قيل أنه كان ينصر يوميا من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مسلم واسرائيلى اكراها تحت التهديد بالقتل والحرق ، وأسس محكمة تفتيشية تولى قيادتها . فأخذت تصدر أحكامها يوميا على الألوف من المسلمين بالغرامات وضربهم بالسوط وتعذيبهم وتقتيلهم والفتك بهم ، وقد أدت تصرفاته التعسفية المتعصبة والوحشية الى تمرد المسلمين عليه وكادوا يقتلونه بعد ما قبضوا عليه لو لم يحمه منهم أحد الأمراء المسلمين . وقد حاول شقيق له أن يقتله لأعماله الوحشية .

ولم تكن اذ ذاك الجالية الاسلامية بأسبانيا وافريقيا موضوع اضطهاد وعنف وقتل وحرق فحسب ، بل كانت البلاد الأمريكية أيضا فى نفس الوضعية ونفس الابادة بالنسبة للهنود أهالى أمريكا الذين كان الأسبان يقتلونهم ويعذبونهم باسم المسيح ورغما عن نفوذه لم يستطع أن يضع حدا لسفك دماء الأبرياء الذين كانوا يعيشون فى بلادهم فى أمن حتى تعدى عليهم هؤلاء ظلما وعدوانا باسم الدين . وبقى خيمنيس هو صاحب الأمر والنهى الى أن ماتت ولية نعمته ايزابيلا سنة ١٥٠٤ التى تركت له وصيتها المشهورة بمحاربة الدين الاسلامى . فقد اكتسب ثانيا ثقة زوجها

فرديناند الذى كان من طبيعته كثير التردد . فأسند اليه أمور الملك واعتمد عليه فى تسيير سياسة أسبانيا ومستعمراتها . فأخذ ينجز أحلامه أكثر من ذى قبل وهى الفتوحات فى البلاد الافريقية . فحرض الملك على تكوين جيش هائل لكنه تردد الملك لكون خزينة الملك كانت فارغة ، فالتزم بتمويل الجيش من ماله الخاص وقاد الجيش الى وهران رغم كبر سنه . فاحتل المدينة بفضل الجاسوسية التى كان أطلق خيوطها فى المدينة بواسطة عملاء يهود وخونة مسلمين بحيث دخل وهران بدون حرب تذكر رغما عن شجاعة أهلها وقد أسند الحكم فيها لأمير البحر بيدرو نفارو الذى فتك بالمسلمين فتكا ذريعا وقتل وأحرق باسم الكاردينال وباسم الدين . وقد فتح الأسبان بايعازه المراسى المغربية لحجر نكور وبجاية والجزائر وغيرها .

ولما مات فرديناند سنة ١٥١٦ عين خيمينيس واليا على العرش الى بلوغ رشد حفيده شارل الخامس الذى كان غلاما لست عشر سنة . لكن لما بلغ الامبراطور أشده أبى الا أن يأخذ زمام الحكم بيده لكنه وجده متوغلا فى ممارسة السلطة بحيث عسر عليه أبعاده لقوة نفوذه عند الشعب . فأخذ شارل الخامس ينقص من سيطرته بلباقة حتى انتزعها من يده وعزله يوم ٨ نوفمبر سنة ١٥١٧ وعمره ٨١ سنة . وما لبث الا بعض الساعات من اعلامه بالعزل فى قيد الحياة وذلك لافراطه فى حب السلطة والنفوذ والحكم . وقيل أن شارل الخامس قد ضجر من تصرفاته وشدة معاملاته وحدة أخلاقه بحيث أطعمته حاشيته السم الذى أخذ يسرى فى عروقه ويعمل مفعوله حتى مات .

احتلال بيدرو نفارو ميناء بجاية

بعدما استولى الأسبان على المرسى الكبير ووهران ، عزموا على الاغارة على الجزائر وعلى بجاية لقطع دابر القرصنة على حد قولهم .

والحقيقة هى أنهم أرادوا أن يراقبوا جميع المواقع الحساسة للبحر الأبيض المتوسط والاستحواذ على التجارة والملاحة التجارية ومحاولة اطفاء الاسلام فى أفريقيا .

وبينما كان عروج مرابطا فى تونس سنة ١٥١٠ دخل الأسبان مرسى بجاية على يد أميرهم للبحر بيدرونفارو (٢٩) واحتلوا المرسى وتحصنوا فيه وبنوا برجين منيعين بسهولة ولم يتعرض لهم أحد ، بيد أنه كان أمراء بجاية يتحاربون فيما بينهم مثل عبد العزيز وأخيه أبى بكر الذين ملا البلاد حروبا ومعارك طاحنة .

كانت بجاية فيما قبل تحت امارة بني زيان ملوك تلمسان وكانت لها شهرة عظيمة فى العلوم والمعارف وخصوصا منها

---

(٢٩) لعب هذا الاميرال دورا هاما فى احتلال الاسبان للشواطىء الجزائرية وتونس وطرابلس ، كان بحارا مغامرا أصله من بيسكاي جلبه الملكان الكاثوليكيان واستعملاه لتوسعهما فى الشواطىء الافريقية وكان اول وال على وهران ولكن بعد الحرب بين فرانسوا الأول والأسبان اسره الملك فى رافين سنة ١٥١٢ ولم يفده الاسبان فغاظه الامر فاختار التجنيد فى الجيوش الفرنسية وامتاز فى مارينيان وفى بيكوك سنة ١٥٢٢ ثم قبض عليه شارل الخامس سنة ١٥٢٦ وشنقه على ما قيل .

الفلسفة والرياضيات وتخرج من جامعتها عدة فحول فى العلم الى أن استولى عليها أبو فارس السلطان الحفصى حتى آل أمرها الى عبد الله الحفصى الذى عزله أخوه عبد الرحمن واستولى على العرش فى تاريخ استيلاء الأسبان عليها أى ٥ يناير سنة ١٥١٠ على يد نفارو المذكور آتيا اليها بجيش من يابسة فى الجزر الخضراء . ففر عبد الرحمن من بجاية الى الجبال وجمع جيشا ليحارب به العدو .

أما تلمسان فلم يعنها الأمر ولم تحرك ساكنا لأن بجاية كانت تحت حكم الحفصيين منذ زمان طويل اذ أن الملوك الزيانيين لم يستطيعوا حمايتها من غارات الحفصيين فبايعت لملوكهم .

لما فر عبد الرحمن من بجاية وطلع الجبل المجاور لها نادى عروجا ليعينه على اقصاء العدو من المدينة . وكان مركز عروج مرسى جيجل واضعا أثقاله فيه . فيغير فى البحر على سفن العدو ويغدو اليه فأجاب لطلب عبد الرحمن وأتى الى أبواب بجاية بعدد من المحاربين الأتراك وجند نفرا من القبائل المجاورة للمدينة وأتى بسفنه ودارت حروب عنيفة بين جنود عروج والأسبان وحاول المسلمون أن يدمروا البرجين لكنهم لاقوا مقاومة شديدة استشهد فى الملحمة عدد من المجاهدين الأبطال ما يزيد على مائة وخمسين وجرح عروج فى ذراعه . وكان الجرح خطيرا بحيث قطع ذراعه الأيسر وحمل الى جيجل وقفل الجيش راجعا بدون نتيجة تذكر . ولما ضمد الجرح ورأى نفسه مستعدا لاعادة الحرب رجع الكرة بعد عامين . فحاصر البرجين وبقى يرميهما بالقنابل ويحارب العدو خارج جدران المدينة عدة أسابيع لكنه لم يحصل على نتيجة لحصانة العدو وقوة جيشه وخطورة نيران مدافعه بحيث

قتل له كثيرا من محاربيه واستشهد عدد من المجاهـدين المتطوعين من القبائل المجاورة لجبال بجاية • ولما حـان وقت الحرث ورأى الباقون أن الحرب قد فتكت بهم فتكا عنيفا انسحبـوا وانفصلوا عنه • وقد تركه الحفصى وشأنه ولما نفد له البارود ولم يمده بيد المعونة رفع الحصار وأحرق سفنه التى كانت راسـية فى الوادى الكبير لئلا يستولى عليها العدو والتجأ الى جيجل • وذكر هـذا الحادث الهام الحسن بن محمد الوزان المدعو ليون الافريقى الذى كان باتصال بعروج ببجاية وأراد أن يشاهد مآل الحصار لكنه لما رأى استفحال الأمر غادر بجاية كما مر • ونعلم أن السبب فى مكوث عروج بجيجل هو أنه قد خلصها من يد الجنويين الذين كانوا قـد احتلوها سنة ١٥١٣ وخلصها سنة ١٥١٤ من يد اندريادوريا الذى كان أسس فيها على حساب فرنسا فندقا للتجارة وكان عروج ينطلق من مرسى جيجل ليغير على الجـزر الشرقية للبحر المتوسط ويرجع اليه ليصلح أموره حيث أنه كان ترك حلق الـوادى الذى احتـله اندريادوريا وأحرق أسطوله •

نعم كان أهل بجـاية نادوا عـروجا لما نالوه من العدو الذى ضيق عليهم أشد تضييق بعدما أعطاهم الأمان ونكث عهده وأخـذ أطفالهم وأرسلهم الى أسبانيا حيث نصروهم وكان الذى شجعـه على استرجاعها سلطان تونس مولاى محمد وزوده بالمال والسفن والمحاربين •

كما يبدو لنا من مكاتبتهم لعروج أوخير الدين كانا عازمين على السفر الى سبتة فى المغرب الأقصى غازيين فى عشر سفن • فسمع بهما أعيان البلاد وعلماؤها وصلحـاؤها وأشياخها فبعثوا اليهـما كتابا يشكرونهما عـلى ما يسر لهما الله من غـزواتهما الكثـيرة

وفتوحاتهما الشهيرة قائلين لهما فى ذلك الكتاب « ان الله تعالى تكفل بنصركما حيثما توجهتما ، لم ينكس لكما راية قط فى الجهاد، فكيف تدعونا فى أيدى العدو الكافر لا نعبد الله الا على خفية ولا نقدر على اشهار ديننا وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم » (٣٠)

وقد أغار عروج على بجاية مرة ثالثة بدون جدوى وبقيت تحت سيطرة العدو حتى سنة ١٥٥٥ تاريخ استرجاعها الى الدولة الجزائرية على يد صالح رئيس كما سنراه فى الكلام عن هذا الأمير .

بيدرو نفارو وجزائر بنى مزغنة

بعدما فرغ بيدرو نفارو من توطيد قواه ببجاية رأى أن يحتل الجزائر حيث أن أهلها كانوا يتعاطون القرصنة ويقطعون على سفنه الطريق . وكان لهم شيخ يسمى سالم التومى أو ابن التومى من قبيلة الثعالبة من العرب المعاقل المقيمين بسهول متيجة . فأراد الأسبان قطع دابر القراصنة الجزائريين باستيلائهم على الجزر الأربع الموجودة أمام المدينة التى سميت بها وبنى على احداها بيدرو نفارو حصنا منيعا سماه بنيون دى أرخيل أى صخرة الجزائر ليراقب أهلها حتى لا يخرجوا فى سفنهم لتعاطى القرصنة ويفرض الضرائب على وارداتهم وصادراتهم فشعر أهل الجزائر بالخطر المحدق بهم والحصار المضروب عليهم فاشتد قلقهم . فأوفدوا سفراء الى بجاية لطلب الصلح من الاميرال بيدرو نفارو . فأشار اليهم بالانتقال الى أسبانيا ليعقدوا صلحا مع الملك الكاثوليكى . فنفذوا أمره وذهبوا الى برغوس حيث كان الملك

---

(٣٠) غزوات عروج وخير الدين ص ٢٥

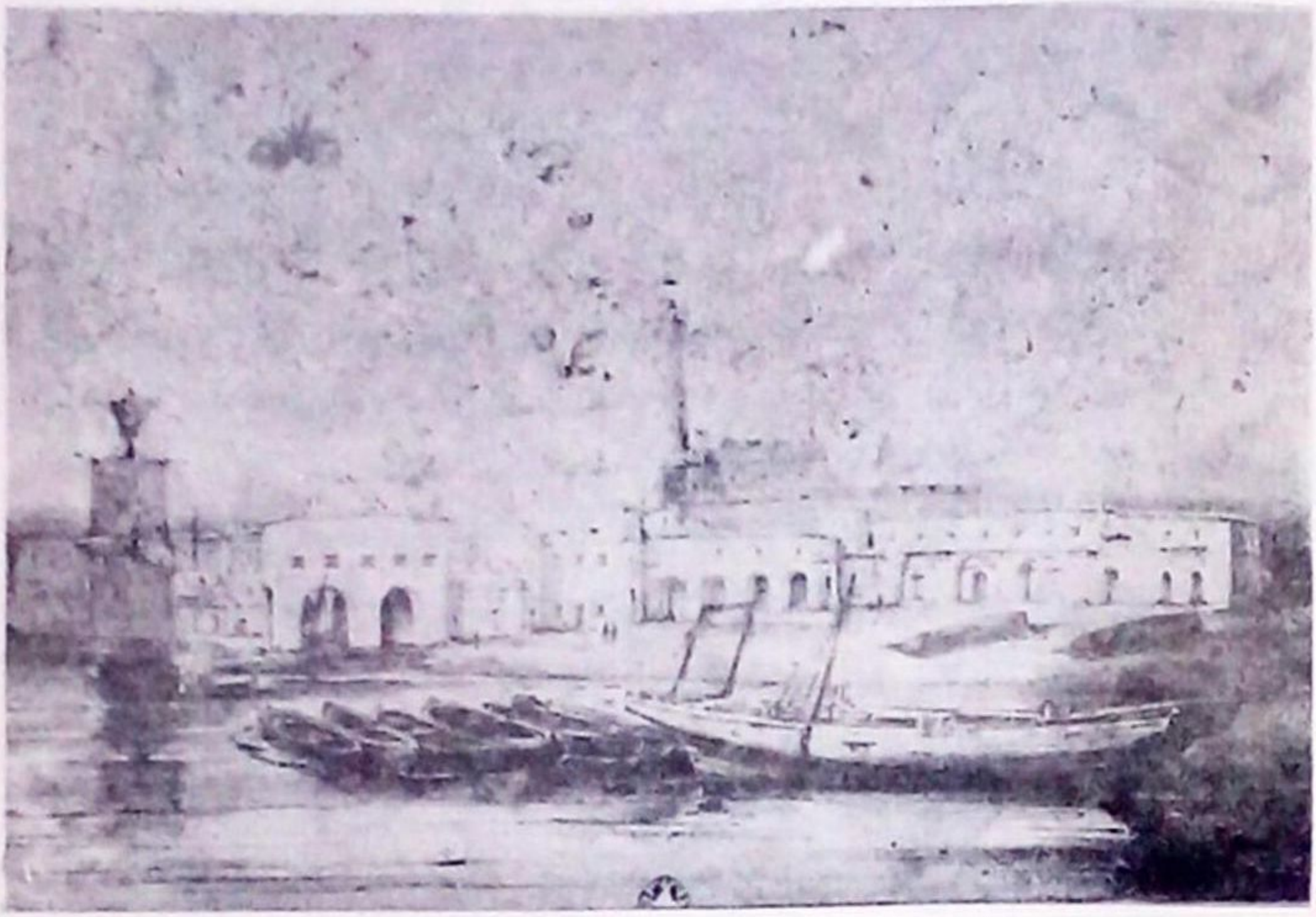

مرسى الجزائر مع الصخرة

مرسى الجزائر

مقيما . وكان يترأس الوفد على ما يظهر سالم التومي شيخ الجزائر وعقدوا صلحا لمدة عشر سنوات على أن يؤدوا جزية سنوية . وأتوا معهم بمائة وثلاثين مسلوكا مسيحيا كانوا أسرى بالجزائر وكان فى الوفد مسثلون عن تنس ودلس وأتوا بالهدايا وبصحبتهم الأسرى فاستقبلهم الملك الأسباني وعقد معهم المعاهدة فى ٣١ يناير سنة ١٥١٠ وزودوا الوفد بالهدايا من جملتها ثلاثة آلاف مخطوط بالعربية لم نعرف ما فعل الله بها (٣١) وبقيت الجزائر هادئة الى أن مات الكاثوليكى يوم ٢٢ يناير سنة ١٥١٦ وخلفه شارل الخامس فنقضوا العهد رغم تعرض سالم التومى . فأخذ الأسبان المرابطون فى الصخرة يدمرون المدينة .

واذ خاف أهل الجزائر من انتقام الأسبان التسوا النجدة من عروج الذى كان مرابطا اذ ذاك بجيجل ، فوعدهم بالقدوم فجهز سفنا شحنها بالمجاهدين والعتاد الحربى وأمر أخاه خير الدين بأن يأتيه بالأسطول . أما هو فانه توجه نحو الجزائر على طريق البر . ومر بالمدينة دون أن يقف متوجها الى شرشال حيث التقى بصاحبها قارة حسن الذى كان من رؤسائه العاملين تحت سلطته لكن انفرد بالحكم وقويت شوكته ، ولما رأى عروج علو شأنه خاف أن يزاحمه فى السلطة ، فأضمر له حقدا شديدا ، فخاف حسن على نفسه فتضرع له وعبر له عن طاعته واخلاصه واستعطفه لما كان يعلم فيه من شدة الانتقام وقساوة القلب فغدر به وفتك به وقتله ليستريح من منافسته وليستولى على شرشال لما كان يعلم من حسن موقعها وثرواتها ثم قفل راجعا الى الجزائر حيث كان ينتظره سكانها بفارغ الصبر ، فخصصوا له استقبالا حارا واعتبروه

---

(٣١) الى بهذا الخبر حسن بن محمد الوزان الذى شاهد الجزائر فى ذلك العهد ووصفها .

منقذهم فأسكنه سالم التومى قصرا فاخرا بجواره تشريفا له • فاستعد عروج لمحاربة الأسبان المحصنين فى قلعة الصخرة أمام مدينة الجزائر وتلقى النجدة من أخيه خير الدين ومن أحمد بن القاضى المدعو بوقطوش شيخ كوكو بالقبائل الكبرى اللذين توجها على طريق البر •

بينما كان عروج يستعد للحرب اذ أحس بفتور اعترى سالم الذى خشى أن ينتزع الحكم من يده فأخذ يتجسس على عروج فقتله هذا واستراح من المنافسة وانفرد بالأمر بدون منازع وأحضر أخاه خير الدين ونظم الادارة وجند الجنود وكون جيشا قويا أخضع بفضله القبائل العربية والبربرية المجاورة للجزائر وخصوصا منها قبيلة الثعالبة التى كانت ترعى أنعامها فى سهول متيجة ودلس • فسهدها خشية من تمردها حيث أن سالم التومى منها لما استقر عروج بالجزائر ودرس موقعها ظهرت له أهميتها وحصانتها ومناعة المرفأ فعزم على الاستقرار بها نهائيا وأخذ الحكم بيد من حديد واتخذها عاصمة له • فرأى أنه لا يستتب له الأمر الا بتمهيد أهل الجزائر ، فقتل سالم التومى بعد الدخول عليه الى الحمام واغتاله بمعاونة خديسه وصاحب أسراره رمضان شاوش (٣٢) واتهم الغير بقتله • لكنه تفطن له أهل الجزائر الذين شعروا أنه يريد الاستيلاء على الحكم والطمع فى الامارة • فراموا التمرد بالاعانة بالجيوش الأسبانية ومؤامرة يحيى ولد سالم التومى الذى فر الى وهران عند الأسبان خوفا على نفسه من أن يقتل مثل أبيه • فوجهه والى

---

(٣٢) بعد قتل سالم التومي حاول عروج أن يتزوج بايمه المدعوة ظفيرة التى كانت مفرطة الجمال والثقافة والعلم . فخاطبها مرارا عديدة ورفضت الرفض التام رغم الحاحه وتهديده الى حد أنها كادت أن تقتله بخنجر أخفته تحت جبتها فتفطن لها لكنه صفح عنها . فاكلت السم لئلا تتزوج برجل قتل زوجها وكانت تلك القضية من أروع القضايا فى حياة عروج الذى عجب من شجاعة تلك المرأة وذكائها واخلاصها لزوجها . روى هذه الحكاية مؤرخون افرنج وكذبها آخرون دون أن يرويها المؤرخون العرب .

وهران الماركى كوماريس الى أسبانيا حيث التقى بالـوزير الأول الكاردينال خيمينيس الذى وعده باعطائه النجدة ورده الى عرش أبيه . وكان خيمينيس اذ ذاك وصيا على عرش أسبانيا فى صغر سن شارل الخامس .

وسبب قتل سالم التومى هو التهمة التى وجهها اليه عـروج بكونه تحالف مع العدو . والحقيقة هى أن سـالم شعر بالخطر التركى حينما مكث عروج وأخوه بالجزائر وعزما على اتخاذهـا مركزا لهما .

ثار أهل الجزائر على عروج وحاولوا أن يضعوا يحيى بن سالم على عرش والده ودبروا مؤامرة مع الجيوش الأسبانية المرابطـة فى الصخرة واتفقوا مع القائد بأن يحرقوا سفن عروج فى المـرسى وحينما يخرج الجنود الأتراك لاخماد النار يغلقون الأبواب عليهم. فتسرع الجيوش الأسبانية الى المـدينة فيفتح الجزائريون لهم الأبواب فيقتلون عروج وينصبون ابن سـالم . لكن استيقـظ عروج لمكيدتهم ولم يشعرهم بشىء ولم يلمهم عليها كاتما السر ومترقبا الفرصة حتى ينتقم منهم ويأخذ بالثـأر . ودام تربصـه مدة الى يوم الجمعة بينما كان أعيان البلد مجتمعين فى المسجـد الجامع لأداء صلاة الجمعة قتـل منهم اثنين وعشرين وأصـحابه متفرقون فى المسجد قصد شد عضده . وأصـبح عروج منفـردا بالحكم لا يزاحمه فيه أحد . فتفرغ له وبويع له بالملـك . فأعطى لنفسه لقب السلطان وأخذ ينظم الادارة والسياسة ويضرب النقود ويتولى الحل والعقد ويفرض الزكاة ويقرر الجهاد فى سبيل الله ضد العدو الأسبانى الذى كان له بالمرصاد .

الثعالبة ونفوذهم فى الجزائر

عندما ظهر عروج فى الجزائر كان مستوليا على الحكم بها سالم التومى السالمى الثعالبي كما مر . والثعالبة قبيلة عربية من المعاقل كانت مسيطرة على الجزائر وما جاورها . فشتتها عروج ومنعها من رعى أغنامها فى سهول تدلس وقطع دابرها حتى لم يبق لها أثر ولا شوكة ولا سطوة وبعثر أفرادها فى وسط القبائل الأخرى المجاورة للجزائر وتدلس .

وقد تكلم ابن خلدون عن الثعالبة وقال عنهم أنهم من العرب المعاقل أتوا مع بني هلال وكان موطنهم فى عهده بمتيجة من بسيط الجزائر وكانوا قبل ذلك بتيطرى نزلوا به منذ عصور قديمة وأقاموا به حيا حلولا أزيحوا من تيطرى وسكنوا متيجة تحت أمر مليكش من صنهاجة بعد اقصاء هؤلاء عن الحكم من قبل الموحدين .

وفى عهد الزيانيين كانوا خاضعين لملوك بني عبد الواد وبقوا يتنقلون من أرض الى أخرى قصد الرعى حتى سنة ١٤٣٨ حيث قتل السلطان الزيانى أبو زيان محمد . فاستولوا على الحكم فى الجزائر وما جاورها بعد الفوضى التى تلت اغتيال السلطان وعينوا مجلسا للشيوخ فى الجزائر التى اتخذوها عاصمة لهم وعينوا على رأس المجلس سيدى عبد الرحمن الثعالبى الذى عين أميرا عليهم الى أن توفى سنة ١٤٦٨ وبقي الحكم بيدهم الى أن آل الأمر الى

أولاد سالم منهم من أبناء عمهم الذين انتخبوا أميرا عليهم سالم التومي فأخذ النفوذ بيد من حديد وتسيطر على أهل الجزائر وكان حكمه شديدا وله مجلس يدعى «الجماعة» أعضاؤه من بطانته يتشاور معهم في المهمات لكن حاول أهل الجزائر الخروج عن طاعته حتى أرغموه على التحالف مع الأسبان لعلهم ينقصون من وطأته وكان العدو قد احتل الصخرة أمام الجزائر محاصرا عليهم الميناء حتى طلبوا الصلح كما رأيناه .

هجوم الاسبان على جزائر بنى مزغنى

أما الأسبان عندما رأوا أن عـروجا قد أصلح أمـره وقويت شوكته فتروعوا وخافوا على حصونهم فى البحر بأفريقيا • فوجهوا جيشا هاما الى الجزائر فى ٣٥ سفينة ليستولي عليها ويقطع دابر عروج وينصب يحيى بن سالم الذى التجأ الى وهـران • وكان الجيش الأسبانى تحت قيادة دييقوا دى فيرا ، فنزل على رمل باب الوادى يوم ٣٠ شتنبر سنة ١٥١٦ موافق للثـالث رمضان عـام ٩٢٢ لكنه قابله عروج بعنف واشتدت الملحمة وقتل عروج أكثر من ١٥٠٠ من محاربي العدو •

فأخذ عروج بعد هذا الظفر يتوسع بحلوله بشرشال وضواحى الجزائر ومليانة وتنس وتدلس • وقسم الملك الى قسمين وضرب على يد المغرضين وعلا شأنه ، فزاد رعب الأسبان لأنهم خافوا من استفحال أمر الأخوين اللذين ملآ البلاد الأوروبيـة فزعا وخشيت الكنيسة من سيطرة الأخوين على البحر والقطع على النصـارى طريق السفن وامتداد طمعهما على الأندلس والبـلاد الأوروبية • فأخذوا يشترون الضمائر فى الجزائر ويتجسـون ويخلقون الفتن والتفرقة بين أهل الجزائر الذين كـانوا قد أعطوا يد المساعـدة للاسبان ولابن سالم • ولما مهد عروج وأخـوه الأمـن فى الجزائر والنواحى المجاورة لها وركزا سلطتهما توجه عـروج الى الغـرب

الجزائرى ليحارب الأسبان الذين كانوا مسيطرين على وهران والمرسى الكبير وقلعة بنى راشد وضواحيها .

ثم بعد ما قام ببعض الحروب رجع الى الجزائر وتفرغ لاستقرار الملك . فقرر أن يبسط خير الدين حكمه على الجهة الشرقية للجزائر مع الاقامة بتدلس بينما تولى هو النفوذ على الناحية الغربية .

ولما استقر الأمن نسبيا بالجزائر ونواحيها ورد عليه وفد من أهل تلمسان طالبا منه النجدة ضد العدو الأسبانى الذى كان تحالف مع ملكهم أبى حمو موسى ورد ابن أخيه أبى زيان على عرش بنى زيان حيث كان قد عزله أبو حمو موسى فاستجاب عروج لطلب الوفد وبعدما أعد جيشه تحرك نحو الغرب . وعندما علم العدو الأسبانى بتوجه عروج نحو عاصمة بنى زيان هاله الأمر اذ أنه دنا منه الخطر حيث أن المرسى الكبير ووهران يصبحان تحت رحمة الأتراك . فخاف الأسبان أن يقطعوا عليهم طريق قلعة بنى راشد (٣٣) التى كانت تموِّنهم . وفعلا عزم عروج على أخذها ليقطع على العدو المدد فتوجه نحو الغرب ووقف قرب تنس التى حارب صاحبها حميد العبد شيخ أو ملك تنس . فاحتل المدينة التى فر منها حميد والتجأ الى الجبال المجاورة لها . فنصب عروج أخاه اسحاق على رأس تنس . ثم تابع طريقه نحو الغرب . ولما وصل الى تلمسان فر منها أبو حمو موسى . فأخرج أهل تلمسان ابن

---

(٣٣) وهى قرية هامة منيعة كانت تدعى ايضا قلعة هوارة قريبة من قرية هلل الحالية على ٢٠ كيلومترا من المحطة الحديدية كانت مشيدة فى جانب الجبل محصنة جدا بين الشعب يصعب على العدو احتلالها ولعبت دورا هاما فى عهد الأسبان لأن ضواحيها كانت خصبة جدا وكثيرا ما كانوا يحرصون على الاستيلاء عليها قصد أخذ التموين منها .

أخيه أبا زيان من السجن ونصبوه على عرش أجداده . لكنه ما لبث حتى أخذ يعكر الجو على عروج ويثير أهل تلمسان عليه فقتله وأغرق عددا من أفراد الأسرة الملكية ثم وجه فرقة من الجيش الى قلعة بنى راشد برئاسة أحد قواده العلج اسكندر القرصيقى الذى كان رفيقا له فى الحروب البحرية ومعه اسحاق أخ عروج . وفى ذلك الوقت كان الماركى دى كوماريس والى وهران يتهيأ لمهاجمة القلعة بالجيوش الأسبانية وجيوش أبى حمو فحاصروا القلعة ليقطعوا المدد على عروج ويعزلوه عن الشرق لكي لا تأتيه النجدة وكان الجيش الأسبانى يرأسه الكولونيل مارتين دى أرقوتى . وبعد الحصار طلب الأتراك الأمان فمنحوهم اياه فوعدهم الأسبان بالأمان مقابل تسليم القلعة . فسلموا أنفسهم مستأمنين لكن فتك بهم جيش العدو واغتالهم وسفك دماءهم ظلما وعدوانا عن آخرهم والسبب فى ذلك عن أقوال المؤرخين الأسبان ليبرروا موقف اخوانهم الوحشى هو أن أحد الجنود رأى بيد اسكندر ترسا خيل له أنه لأبيه المقتول فى المعركة . ولم يستطع أبو حمو ولا الكولونيل الأسبانى ايقاف المجزرة الى أن قتل المجاهدون واستشهد فى المجزرة اسكندر ذلك الصنديد واسحاق الذى دفن هناك . وقال هايدو أن قبره لا زال موجودا فى وقته . وازدادت هذه الأعمال الشنيعة فى صحيفة الأسبان تدنس تاريخهم .

ومن ثم رجع والملك الى وهران ومنها توجها بحرا الى حلق وادى تافنة بجنودهما التى أتيا بها الى أسوار تلسان فحاصراها ، فالتجأ عروج الى مشور المدينة أى القصر الملكى .

وبمجرد ما وصل عروج الى تلمسان وجه الى السلطان الوطاسي مولاى محمد ليتحالف معه كي يوجه اليه النجدة مقابل شد عضده في محاربة السعديين الذين أخذت شوكتهم تتقوى في بلاد سوس ومراكش . وفعلا وجه الوطاسي جندا يقدر بـ٢٠٠٠٠ محارب على طريق مليلة . واذ كان عروج ينظر وصولهم حاصره العدو وشدد عليه الخناق كما سنشرحه فيما بعد .

حصار تلمسان من طرف الاسبان

استشهاد عروج

ولما احتل عروج تلمسان واستولى على المشور الذى كان قصر الملوك فاعتبر الأسبان ذلك خطرا خطيرا عليهم لا بالنسبة لمستعمراتهم بأفريقيا فحسب ، بل أصبحوا مهددين في بلادهم اذ أن قاعدة تلمسان قريبة جدا من الجزر الخضراء وسواحل أسبانيا الجنوبية الشرقية وخصوصا منها مالقة والمارية وقرطاجن واليكانطي وغيرها من المرافىء الحساسة ، التى خاف الأسبان أن يستولى عليها عروج فأسرع الحاكم الأسبانى على وهران الماركى دى كوماريس الى أسبانيا . فالتقى بشارل الخامس وأعلمه بالخطر المحيط بهم من علو شأن عروج . فاستحسن الأسبان بوهران هذا العزم وقالوا أن هذا الرأى لسديد وحكيم حيث أنه اذا لم نبادر باخماد تلك النار فقد تضرم في القريب العاجل جزءا من المسيحية ، الأمر الذى أخذنا نشاهده الآن (٣٤) وقد صحب الحاكم السلطان أبو حمو (ملك تلمسان المخلوع) ليؤيده فيما كان يريد

---

(٣٤) تاريخ ملوك الجزائر هايدو ص ٢٠ و ٢١

الحصول عليه من النجدة (٣٥) ولما مثل السلطان أمام الملك المسيحي ارتمى على قول هايدو بين رجليه وتضرع له واستعطفه لينال منه العون حتى يسترجع عرشه فحصل على رضى الملك لما أظهر له حاكم وهران من خطر مجاورة الأتراك لسواحل أسبانيا الى تلمسان • فأمر بتوجيه النجدة لمحاربة عروج • فوصل جيش عرمرم مكدس بالقوة والسلاح ونزل فى مرسى أرشقول آتيا من أسبانيا ومن المرسى الكبير ووهران • فانتقل بسهولة الى ضواحى تلمسان • فاحتمى عروج كما شرحناه بالمشور حيث بقي مضيقا عليه منذ ستة وعشرين يوما حتى أنه لم ير بدا من مغادرة المشور ليلا من بويبة مخفية بعدما طال انتظاره وصول نجدة السلطان الوطاسى • ففر بعدد قليل من الأصحاب ، فتبعه العدو • وقال المؤرخون الأسبان أنه أخذ معه أموالا طائلة اذ أنه كان يعلم طمع الجنود الأسبان وحبهم للمال ، فأخذ يرميهم النقود والنفائس ليشتغلوا بالتقاط الذهب والفضة ويتركوا سبيله (٣٦) لكن تفطن له قائد جيشهم ومنعهم من التوقف تحت طائلة الاعدام • فأدرك العدو عروجا على قول بعض المؤرخين قرب الوادى المالح بناحية وهران "Rio Salado" وعن قول آخرين ببنى يزناسن وهى رواية أصح ، ببلاد المغرب الأقصى قرب دبدو بجبل بنى موسى (٣٧) حيث وقعت معركة شديدة استشهد فيها عروج مع أصحابه يوم

---

(٣٥) اتى الحاكم الى برقوس ليؤدى تحياته لشارل الذى توج ويبايع له ويعلمه فى نفس الوقت بالخطر المحدق بالمسيحية . هايدو تاريخ ملوك الجزائر ص ٣٠ و ٣١ .

(٣٦) استعمل نفس الاسلوب ميتريدات الذى حارب الرومان طول حياته ١١١ ـ ٦٣ قبل المسيح

(٣٧) وقع الخلاف بين المؤرخين الافرنج فيما يخص استشهاد عروج منهم ميرسى وقرامون وباربر وفجار وهايدو ومرمول والدكتور شاو جدهم هو مرسي انظر تاريخه ج ٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ يروى الحادث بتفصيل .

عيد الفطر (٣٨) قال المؤرخ الانجليزى شاو : « قتل عروج بربروس على ٩٢ كيلو مترا من تلمسان بينما كان فارا متوجها الى بنى يزناسن غربي تلمسان على جبل بنى موسى قرب وادى يسلى أو وادى وجدة فى ناحية تابعة لدائرة دبدو » .

وهذا الخبر مؤكد برواية ابن عسكر المعاصر لعروج قائلا بالنص : « ان عروجا عاش بتلمسان لما افتتحها وثار بها أهل تلمسان فأوقع بهم ثم خرج الى جبل بنى يزناسن » وقال أيضا فى ترجمته عن ابن ملوكة « وهو الشيخ العالم ولي الله تعالى من أشياخ شيخنا هبة الله وكان عالما ماهرا أسيرا فاضلا مجابا للدعوة . قال لي شيخنا أبو عبد الله بن هبة الله : لما عتا عروج التركمانى بتلمسان وساء السيرة وأفحش بالقتل والسبى فثار به أهل تلمسان ثم أوقع بهم وخرج الى جبل يزناسن فأشفق أهل تلمسان على أنفسهم وخافوا من رجوعه اليهم فلجأوا الى الشيخ ابن ملوكة واشتكوا اليه ما أصابهم منه وما يخافونه . فانقبض الشيخ انقباضا عظيما ثم ضرب بيده الأرض ، فقال : « والله لا يرجع لتلمسان أبدا اعتمادا على الله تعالى . فكان كما قال . وقتل عروج ومن كان معه من الاعلاج والتركمانيين فكان الشيخ ممن قال فى حقهم الصادق لو قسم على الله لأبادهم . وعروج هذا هو خير الدين التركمانى أول أمراء الملوك العثمانيين بالجزائر » (٣٩) .

---

(٣٨) راجع المقال الهام الذى نشره وباربر وفجار فى المجلة الافريقية تحت عنوان وفاة مؤسس امارة الجزائر . ص ٢٥–٢٢ سنة ١٨٦٠ .

(٣٩) دوحة الناشر كذا فى المخطوط وفى الترجمة الفرنسية ص ٢٢٣–٢٢٢ . ونعلم ان ابن عسكر كان لا يحب الاتراك لأنه كان فى حرب البرتغاليين العميل ولقي حتفه فى معركة الملوك الثلاثة بوادى المخازن سنة ١٥٧٨ .

واذ أتينا بهذا الحديث بما فيه من الخرافات انما أوردناه لأجل الخبر الهام الموجود فيه فيما يخص موت عروج ببنى يزناسن ببلاد المغرب الأقصى •

اننا نؤكد هذه الرواية التى تثبتها محالفة عروج مع سلطان فاس محمد الوطاسى الذى لم يسعه الوقت لتوجيه النجدة فان عروج فر نحو الغرب لعله يلاقى « المحلة » المغربية الآتية من مليلة وحين قربت من وجدة وصل خبر عروج أنه استشهد مع رفقائه فرجعت المحلة الى فاس وأثبت الأمر ايبولار مترجم كتاب الحسن بن محمد الوزان عن وصف أفريقيا (٤٠) •

ولنا اليقين أن استشهاد عروج كان فى تراب البلاد المغربية لا قرب وهران • وليس من المعقول أن يكون قد توجه نحو الشرق وهو يعلم أن البلاد محتلة من طرف الجيوش الأسبانية التى حشدت كل امكانياتها لتقضى على جيوش عروج وخير الدين وكان أهل تلمسان قد تآمروا عليه لظلم جيوشه ونهبهم أموال الأهالى أو لشعورهم بضعف عروج واحتشاد الجيوش الأسبانية وخوفا على أنفسهم من انتقام أبى حمو • وقد جرت المعركة التى قتل فيها عروج وأصحابه الأبطال بتاريخ ٢٩ شتنبر سنة ١٥١٨ (٤١) على زعم مؤرخي الأسبان قتله على قولهم الجنرال كارسيا فيرنانديس دى لابلاسا دى تينيو الذى هنأه شارل الخامس بنفسه على عمله

---

(٤٠) ص ٢٢٥ ح ٢ . كما اثبت ذلك هايدو ص ٣٤ قائلا ان المحلة المركبة من عشرين الف جندى وصلت الى مليلة بعد خمسة عشر يوما من يوم استشهاد عروج ولما علم الملك بالحادث قفل راجعا فى الحين •

(٤١) يوافق هذا التاريخ لـ ١٣ رمضان عام ٩٢٣ لكن المؤرخين العرب يجعلون استشهاده يوم عيد الفطر اي اول شوال عام ٩٢٣ موافق اكتوبر سنة ١٥١٨ وقال نور الدين عبد القادر انه استشهد فى جمادي الاولى عام ٩٢٤ (مايو سنة ١٥١٨) ص ٥٠

ولم يقصر فى حسن مواساته لأنه أراحه من بطش عروج الذى كان استشهاده على ما يظهر فى الشهور الأولى لسنة ١٥١٨ اذ أن شارل الخامس وجه بعد مدة يسيرة من هـذا الانتصار للمسيحية ، أسطولا هائلا فى غشت سنة ١٥١٨ (٤٢) الى الجزائر ليحارب خير الدين ويستغل الموقف الحرج وانزعاجه بموت أخيه وانهزام جيشه وتحطيم معنويته بعد وفاة ثلاثة من أخوته اللهم الا اذا أراد شارل الخامس اغتنام فرصة تقسيم جيوش الأتراك بين تلمسان والجزائر حتى يضرب الضربة القاسية لينتقم من الأخوين ويستريح منهما .

وعلى كل حال ، كان موت عروج حدثا هاما عند النصارى وكان ذلك اليوم يوما مشهودا لظنهم أنهم أبعدوا عنهم الويل . ودقت الأجراس فى كل فج عميق من البلاد المسيحية وأقيمت الصلوات « تي ديوم » شكرا للمسيح كما أقيمت الأفراح . وقد حمل رأس عروج الى وهران وأتوا بلباسه الفاخر المصنوع من ثوب الوبر الأحمر المطرز بالذهب وصنعوا منه أقمشة دينية وضعوها فى دير سانت خيروم بقرطبة كتذكار يفتخرون به أمام ذويهم كانوا يسمونها «شابا بابروسة» أى ثوب بربروس وكان لقتل عروج دوي عظيم اذ اعتبر هذا الحادث حدثا وطنيا بأوروبا على العموم وبأسبانيا على الخصوص الى حد أن الجنرال الذى قتل عروج قد منحه الامبراطور شهادة الاعتراف بجميل الأمة له ونظرا لأهميتها أبينا الا أن نأتى بنسختها المعربة من النص الفرنسى هذا مضمونها :

---

(٤٢) اي شهر شعبان ٩٢٣ .

« أنت قارسيا دى لابلاسا حامل راية سرية القائد دييقو دى اندارادا أحد نقبائنا ،

أنت المولود بتينيو فى امارة أسطوريا ،

لقد أديت خدمات جليلة ومخلصة فى الحملة العسكرية التى بعثناها ضد برباروسة التركي الذى انتحل لنفسه صفة ملك تلمسان وتنس والجزائر التى أستولى عليها بغيا وجورا بعد أن أخرج منها ملوكها من أبناء البلاد وهم موالينا وحلفاؤنا الذين أرجعناهم الى عروش ممالكهم ،

نمنحك بموجب هذه الوثيقة الرسمية علائم الشرف المشتملة على ترس ومعه رأس برباروسة المذكور وعمامته وبيرقه وصفيحته المجردة والمثبتة على خلفية من المينا الخزفى مع خمسة رؤوس أخرى لجنود الأتراك تحف بهذه الشارة . منحناك كل ذلك تذكارا ودليلا على أنك نلت هذا الشعار فى خدمة الله وخدمتنا فى الظروف التالية :

منذ ستة أشهر تقريبا كان برباروسة محاصرا من طرف فصيلة من حملتنا العسكرية المذكورة التى كانت تحيط بقلعة تلمسان التى التجأ اليها برباروسة وظل يقاوم بها مدة . غير أنه لما رأى نفسه على وشك القبض عليه أو القتل من طرف جنودنا وبسبب هجوماتهم والألغام التى كانت تفجر والجدران التى كانت تدمر والأسوار التى كان يرمسها أتباعه على التوالى فتهدم ، فخرج فى احدى الليالى من هذه القلعة صحبة عدد من الأتراك والقبائل المتعصبين له فلحقتموهم ببعض الأفراد من عساكرنا وطاردتموه بشجاعة وعزم متكبدين الأتعاب ومتعرضين للاخطار يدفعكم لذلك حرصكم على خدمتنا فأدركتموه على بعد ثلاثة وعشرين فرسخا من

تلمسان فى مملكة « دوقود » وعلى الجبل المدعو « مسنات »
وهناك اختلى برباروسة بعد أن رآك مقبلا مع خمسة وأربعين
مسيحيا ، فى زريبة كانت موجودة فى ذلك الجبل مع ثلاثين من
الرماة الأتراك . فقام بترميم هذا المخفر ووضع به الحواجز
للدفاع عن نفسه ، غير انك اذ كنت عازما على وضع حد للاذايات
التى كان يجنيها هذا الرجل والتعسفات التى كان يرتكبها فى
المسالك المذكورة هاجمته فى ذلك الموقع مع أنه كان يوجد هناك
لمطاردته عدد كبير يناهز العشرة آلاف من السكان القبائل والعرب
كانوا كأنهم قد عسكروا فى ذلك المكان الا أنهم لم يجرؤا على
مهاجمته خوفا من الاذايات التى لحقتهم من طرف رماته والتى
يمكن أن تلحقهم مرة أخرى فهاجمتموه مع من كان معكم من
رفاقكم الخمسة والأربعين وقاتلتموه وحدكم فدخلتم تلك الزريبة
دون معاونة القبائل وكنت أنت حامل الراية أول من اقتحم
المكان .

وهكذا دخلت أنت ومن معك فى المكان الذى اعتصم به
برباروسة لمقاتلته فالتحمتم فى القتال حتى قتلتموه وقتلتم معه
جنودا آخرين من الأتراك كانوا أقبلوا لنجدته يروق لنا ونريد أن
تحمل هذا الشعار الذى منحناك اياه أنت وأولادك وأحفادك
وذريتك الى أبد الدهر وأن توشحوا به اجلالكم وتعلقوه فوق
بيوتكم وعلى أبواب هذه البيوت وعلى جميع الأشياء والأماكن
الأخرى التى يروق لك ولهم ولأى كان منهم أن تروه منقوشا أو
منحوتا على ترس مثل الترس الذى أهديناك اياه » .

نعم اذا حللنا هذه الواقعة التى كانت فى الحقيقة ظفرا باهرا
لجيوش شارل الخامس وجدناها من أخطاء عروج الجسيمة وعدم

تبصره فى انتقاله الى تلمسان مع أنه قد عودنا على ترتيب أعماله وتهيئتها بكل دقة وثبات فانه والحق يقال أظهر فى هذه القضية تهاونا وخفة ليستا من عوائده • فانه :

— أولا : استجاب بسرعة لطلب أبى زيان الذى خلعه عمه من العرش بدون أن يتهيأ لحصار تلمسان •

— ثانيا : اعتمد على جيوش الزيانى التى خانته فى أول الأمر لما رأت من القوة الهائلة التى أتى بها الأسبان من أسبانيا ومن وهران والمرسى الكبير •

ثالثا : لم يراع أن الموقع الذى اختاره له العدو لمحاربته ولربما كان كمينا نصبه له ولم يتفطن له عروج اذ أن الناحية من بنى راشد الى تلمسان بما فيها مستغانم والمرسى الكبير ووهران وأرشقول كلها كانت تحت سيطرة الأسبان وحلفائه المسلمين الخونة العملاء •

— رابعا : لم ير عروج أنه اذا انقطع عن جيشه سيبقى وحده مع عدد ضئيل من الجنود الأتراك المخلصين له تحجزه عن قاعدة امارته مسافة تزيد على ستمائة كيلومتر •

— خامسا : كان من حقه أن ينتظر وصول النجدة من السلطان الوطاسي الى ناحية وجدة قبل أن يتحرك من الناحية الشرقية •

مدينـــة الجـــزائر

أصبحت الجزائر عاصمة لعروج بصفة رسمية لوقـوعها على شاطىء البحر وفى وسط المغرب الأوسط ولحصانة المرفأ والبـلاد المجاورة لها التى تحجبها سلسلة من الجبال الأطلسية والذرىٰ ذات الأراضى الخصبة وبجوارها العربان والبرابر الشجعان . وقد قال هايدو عن مدينة الجزائر :

« مدينـــة ذات أهميـــة وهى غنيـــة وذات عمران وصالحـة للقرصنة » (٤٣)

وأضحت الجزائر تنافس تلمسان وبجاية وغيرهما من العواصم الجزائرية . وأسس عروج دار السلاح وهيأ مرفأ هاما لارسـاء سفنه دون غيره . وأخذ يغير منه على السواحل الاسبانية . وأول من رأى أنها حصن منيع لا يجد مثله فى شـواطىء البـلاد ، هو عروج لوقوعها فى أرض مرتفعة يسيرة الحماية ومشرفة على البحـر ومرفأها منيع جدا مع أنها كانت عاصمة سالم التومى الذى كان اتخذها مقرا لامارته . ويسميها ابن حوقل فى أيام زيرى بن مناد (٣٣٧ هـ) « جزائر بنى مزغنان وهى مدينة عليها سور فى نحر البحر وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولهـا

---

(٤٣) المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ٥٢ .

بادية كثيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة وأكثر أموالهم المواشى من البقر والغنم سائحة فى الجبال ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز الى القيروان وغيرها ..

ولهم جزيرة تحاذيها فى البحر اذا نزل بهم عدو لجأوا اليها . فكانوا فيها فى منعة وأمن » .

وأطلق اسم الجزائر على القطر فى عهد الأتراك لأنه كان يسمى المغرب الأوسط أو المغرب الجوانى واللفظ معناه بالنسبة للمغرب الأدنى والمغرب الأقصى وكان المغاربة يسموننا العرب الواسطة أى سكان المغرب الأوسط .

كما قال أبو عبيد البكرى عن الجزائر « هى مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للاول وآزاج (أى أقواس) محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة بني مزغنةكنيسة عظيمة بقى منها جدار مدور من الشرق الى الغرب وهو اليوم القبلة الشرعية للعبيديين مفصص كثير النقوش والصور . ومرساها مأمون ، له عين عذبة يقصد اليها أهل السفن من أفريقية والأندلس وغيرهما . وهو مرسى مأمون منشأ بين جزيرة سطفلة من الشرق والغرب وبين البر » وهى احدى الجزر الأربع التى تقابل المدينة وقد جمعها الأتراك مع البر .

وكل المؤلفين متفقون على غزارة المياه العذبة التى تنحدر من الجبل الى البحر وعلى آبارها .

وعن الأدريسى « مدينة الجزائر على ضفة البحر شرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهى عامرة وآهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتها الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشى من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا ولذلك العسل والسمن فى بلدهم كثيرا وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة » (٤٤)

ولما ظهر عروج وخير الدين اتخذاها عاصمة لهما فكانوا يسمونها فى عهدهما وبعدهما جزائر الغرب أو الجزائر الغازية .

وأخذت الجزائر من القرن الخامس عشر الميلادى تضاهى تلمسان وبجاية سعة وتعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الأندلسيين والعرب ومعاقل الثعالبية والبربر ايسازيغن (٤٥) واليهود الأهالى البربر الذين كان يسميهم اليهود الأجانب « اليهود العرب » أما المهاجرون من الأندلس فأتوا خصوصا من الجزر الخضراء ميورقة ومينورقة واليابسة وكان فى أول الأمر عدد سكان الجزائر العاصمة ما يقرب من ستين ألف نسمة نصفها اسلاميون أوروبيون قد أسلموا بعد أسرهم فى البحر واندمجوا فى المجتمع الجزائرى (٤٦) و ١٢٫٥٠٠ من العرب والبربر المتبلدين وستة آلاف من الأندلسيين يكنون تقارين وموريسكوس وهرناتشيروس

---

(٤٤) وصف افريقيا الشمالية ص ٦٢ الجزائر ١٩٥٧

(٤٥) ان لفظ بني مسغنة او مزغنة مشتق من ايمازيغن وهو تصحيف له والجزائر متخذ من الجزيرات التى كانت موجودة قبل الاتراك أمام المدينة حيث شيد عليها بيدرونفارو حصنه التاريخي وقد اتصلت تلك الجزر بالارض وهى الآن المارية

(٤٦) كان جلهم من كرسيكة قال لنا براندبل ان من بين ١٠٫٠٠٠ اسلامي بالجزائر يوجد ٦٫٠٠٠ كرسيكي .

و ٥٠٠٠ يهودى وعدد من القرغلين وهم أبناء الأتراك والعربيات أو البربريات وعدد من البسكريين الذين كانوا يتعاطون المهن البسيطة وبني مزاب الذين كانوا أصحاب الحمامات والجزارة والتجارة وعدد من السودان أصلهم من غنيا ومالى وغيرهما .

أما اليهود فكانوا على مذهبين ، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سكليين وكبوسيين يسمونهم الأجانب « fostareros » أو العجم والآخرون أى الأهالى البرابر فيدعون توشابيم résidents أى المقيمين والمذهب كان هو مذهب السيفارديم وبعض القرائم .

أما الاشكينازيم فلا وجود لهم فى الجزائر والسفارديم هم التلموديون والآخرون هم بنو قارىء أى أصحاب التآويل الظاهرة للتوراة .

وزيادة على عدد السكان المشار اليهم أعلاه ، كان عدد مرتفع من الأسرى يختلف على حسب الحروب البحرية التى كانت تشهر من طرف الرؤساء القراصنة وانتصاراتهم وقد أخبر هايدو بأقصى عدد منهم وهو ٢٥٠٠٠ كانوا يشتغلون بجنات الأعيان الجزائريين وكان يعيش بالجزائر أوروبيون يشتغلون فى القنصليات ، من قناصل ، وكتاب وسماسرة وتجار مقيمين فى المدينة أو منتقلين فى الموانىء الأوروبية كانت لهم دكاكين وفنادق يضعون فيها سلعهم ويتجرون فيها ويشترون الرقيق والسلع المأخوذة فى الحروب . وكانت الحياة فى الجزائر رغدة توجد السلع فيها بكثرة وبثمن زهيد حيث أنها ترد من الخارج أما بصفة شرعية واما أنها من السبي وكانت الحركة التجارية فى المدينة مهمة . كان كل صاحب مال يشارك فى تجهيز وتسليح السفن الحربية فيدر له ذلك نفعا له

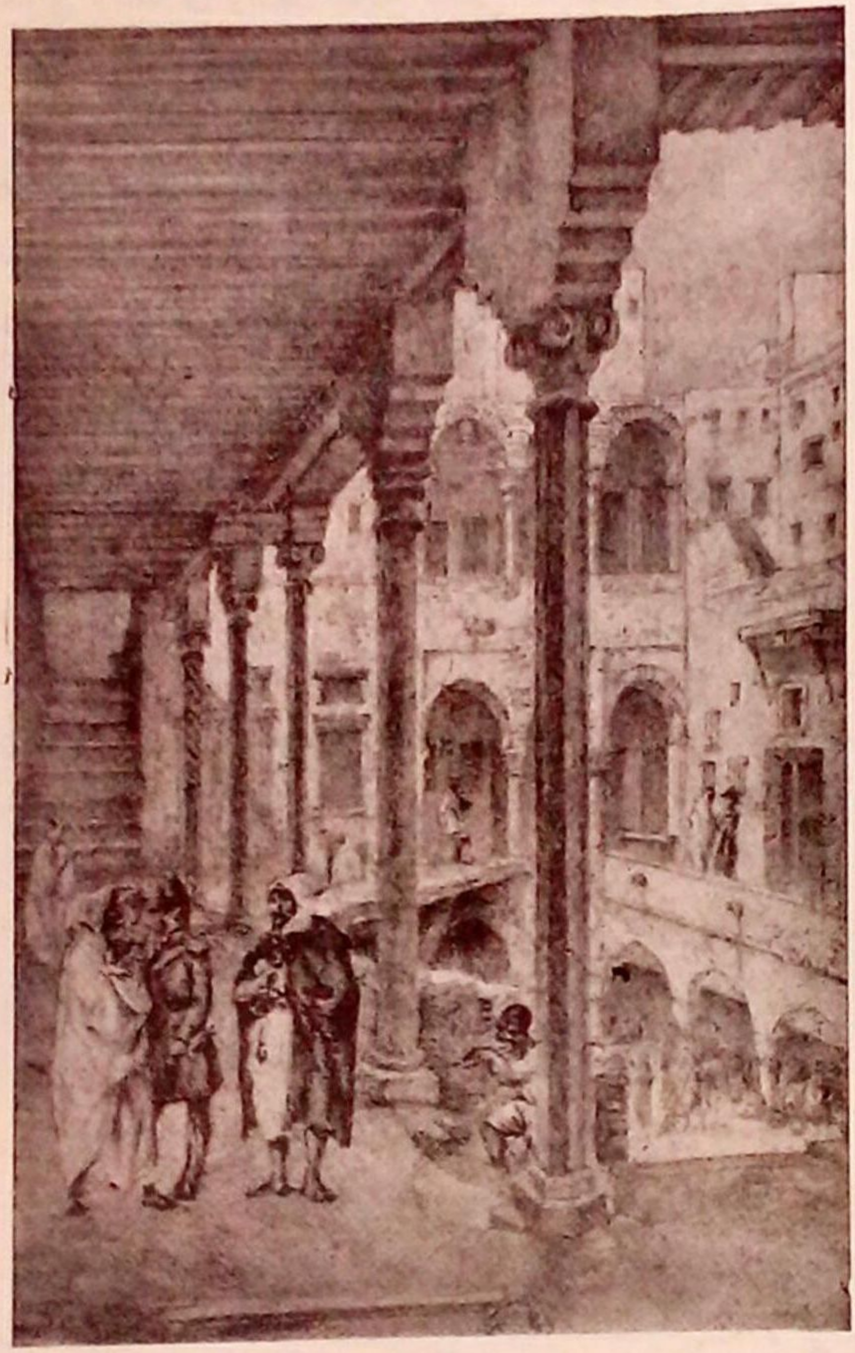

بابستان الجزائر
او سوق بيع الغنائم

بال عند رجوع السفن مظفرة ملآنة سلعا ورقيقا ويباع كل ذلك في سوق واقعة في وسط المدينة تسمى « بابيستان » وهي عبارة عن ميدان متسع مسقف مركب من أروقة يختص كل رواق بنوع من البضاعة وجل السلع كان يشتريها اليهود وخصوصا منها الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأنواع الخمور والكحول واللحوم المقددة المحجوزة في السفن الحربية المسيحية تلك البضائع التي كان المسلمون يحرمون على أنفسهم الخوض فيها .

وكان اليهود ماهرين في التجارة محتكرين جلها فيصدرونها الى البلاد الأوروبية وخصوصا منها ايطاليا . وكانت مدينة ليفورن تحت سيطرتهم مستحوذين فيها على التجارة والصناعة فكانوا يسمون يهود قرانة أي أهالي ليفورن أو يهود النصارى كما كانوا يكنونهم . كان لباسهم مثل لباس الأوروبيين يحميهم القناصل الأوروبيون وخصوصا منهم القنصل الفرنسي . ولذلك كانوا يسمونهم أيضا خوديوس فرنكوس أي اليهود الأفرنج . وكانت لهم في المدينة المذكورة الفنادق والمخازن الهامة التي كانوا يضعون فيها السلع الواردة من الجزائر والمقتنية بأثمان زهيدة حيث أنهم لا يجدون في البابستان حيث يجري بيع الفيء بالمزايدة أي منافس من المسلمين فيبيعونها بأسعار باهظة في أسواق أوروبا منتهزين الفرص ومحصلين من تلك المعاملات على الأرباح المضاعفة وكانت السفن العديدة تحت ملكهم الخاص يشحنونها ببضائعهم وبضائع المستأجرين وكانوا يعمرون أيضا السفن الحربية ويسلحونها لأجل تعاطي القرصنة . وكانوا محتكرين التجارة الخارجية لا يزاحمهم فيها أحد ، وقليلا ما يكون لهم أعوان مسلمون يقومون بدور الوكالة بالجزائر وبالخارج .

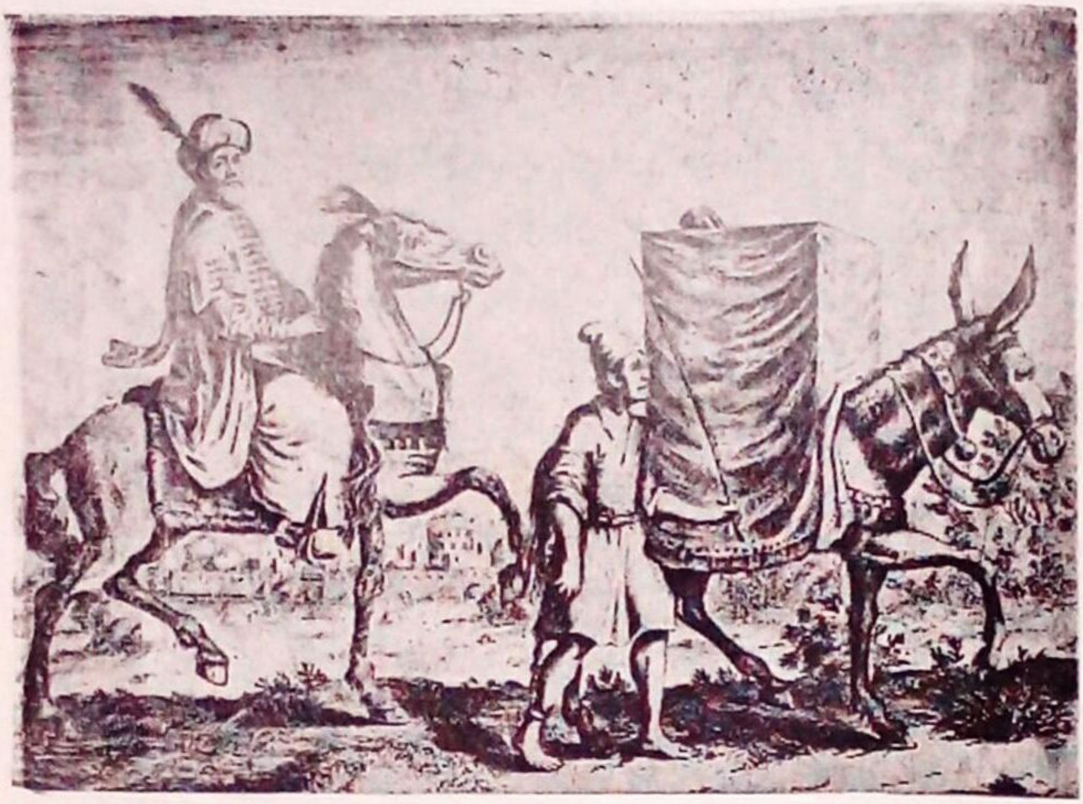

خادم وسيده

تجارة الجزائر الخارجية

كانت تجارة الجزائر مزدهرة فى وقت الأتراك الأولين • كانوا يشجعونها لما لضواحي المدينة من الثروة الفلاحية وتربية الضأن والبقر والخضر والفواكه والزيت والعسل والشمع التى كانت تصدر للخارج وكانت السفن التجارية ترد على المرسى وتصدر منها الى تونس ومرسيلية ونابل وجنوة وليفورن وحتى الى أسبانيا عندما كانت الهدنة سائدة بين تلك الدول والى طرابلس والاسكندرية وتركيا فمن فرنسا ترد الشحنات من السكر والبن والحديد وشظايا الحديد للقرطوش وكور المدافع وأنواع الورق والمنتوجات الحديدية والأقمشة الحريرية لليون • وكانت تجارة ذلك نصفها بيد الفرنسيين والنصف الآخر بين اليهود والمسلمين الجزائريين • ومن ليفورن كانوا يستوردون الثوب الحريرى الرفيع والقطيفة ، ومن جنوة البلور والزجاج والمرايا والتوابل ومن تركيا كانوا يجلبون الأساور من قرن الجاموس ومن الفضة والذهب وأواني الطبخ النحاسية والخزف الصينى والمجاذيف والبن والأرز ومواسير التدخين (الغلايين) ومن الاسكندرية تأتى السفن المشحونة بالأقمشة القطنية والأوانى ••

وكانت التجارة مع المغرب تجرى بواسطة تلمسان على طريق البر فيقع التبادل التجارى فيما يخص الجلباب والنسيج والملف وأوانى الطبخ ومنتوجات البلاد السوداء والرق الأسود الذى كانت تجارته نافدة فى تلمسان وفاس ومراكش وغيرها •

وقد أدركت الجزائر اذ ذاك أهمية عظمى لم تدركها فى أى عصر من قبل وشاع صيتها فى البحر المتوسط بحيث كانت الدول

تنافس للتصالح معها واجراء العلاقات التجارية والاتفاقات الحربية .

وصف المدينة

وكانت توجد بمدينة الجزائر أسواق عديدة مقسمة الى فنادق مخصص كل واحد منها لنوع من البضاعات يسمى أيضا قاعة : فقاعة الزيت وقاعة الجلد وقاعة اللوح وقاعة السمن ورحبة الزرع الخ ...

والمدينة كانت محاطة بأسوار شامخة طولها كيلومتران ونصف تقريبا وعلوها من ١٠ الى ١٢ مترا وعرضها متران وفى أسفلها خندق كثير العمق وعريض كل ذلك مناعة من هجوم العدو من البحر ومن البر وكانت تتخلل ذلك بروج مربعة محصنة وفى البروج والأسوار نوافذ مختلفة الاتساع بعضها واسعة خصوصا المشرفة على البحر لتلقى منها طلقات المدافع والبندقيات المدعوة الكرابيلا « carabine » أو الكابوس « arquebuse » وكان للسور خمسة أبواب كبيرة فباب عزون قبلة وجنوبا متصل بباب الوادى شمالا بطريق مستقيم وهو أكبر شارع المدينة وباب الجزيرة شمالا يدعى أيضا باب الجهاد يؤدى الى المرسى وباب الحوت أو الديوانة والباب الجديد الواقع جنوب غربي المدينة وهو فى أعلاها وتغلق الأبواب من غروب الشمس الى شروقها لا تفتح بأى وجه من الوجوه .

وكانت الدور مكدسة فى وسط المدينة والأزقة ضيقة تنقل السلع والبضائع والمؤن اليها بواسطة الحمير والبغال .

وقد خملت مدينة تلمسان ونقصت أهميتها بسبب استيلاء الأسبان على وهران والمرسى الكبير اللذين بفقدانهما اضمحلت تجارة البلاد الغربية وانحطت سلطة الملوك الزيانيين .

وكانوا يتعاطون مختلف الحرف بالجزائر حتى فى وقت القرصنة انما لم تكن فى ذلك الابان من أهم مدخول الدولة .

واللغات التى كان يتكلم بها الناس هى العربية والبربرية والتركية وبرطانة هى مزيج من الفرنسية والأسبانية والايطالية كما أخبر بذلك الرهيب دان Dan (٤٧) كانوا يسموها اللغة الأفرنجية

---

(٤٧) تاريخ بلاد البربريسك وقراصنتها ص ٩٢ و ٩٣

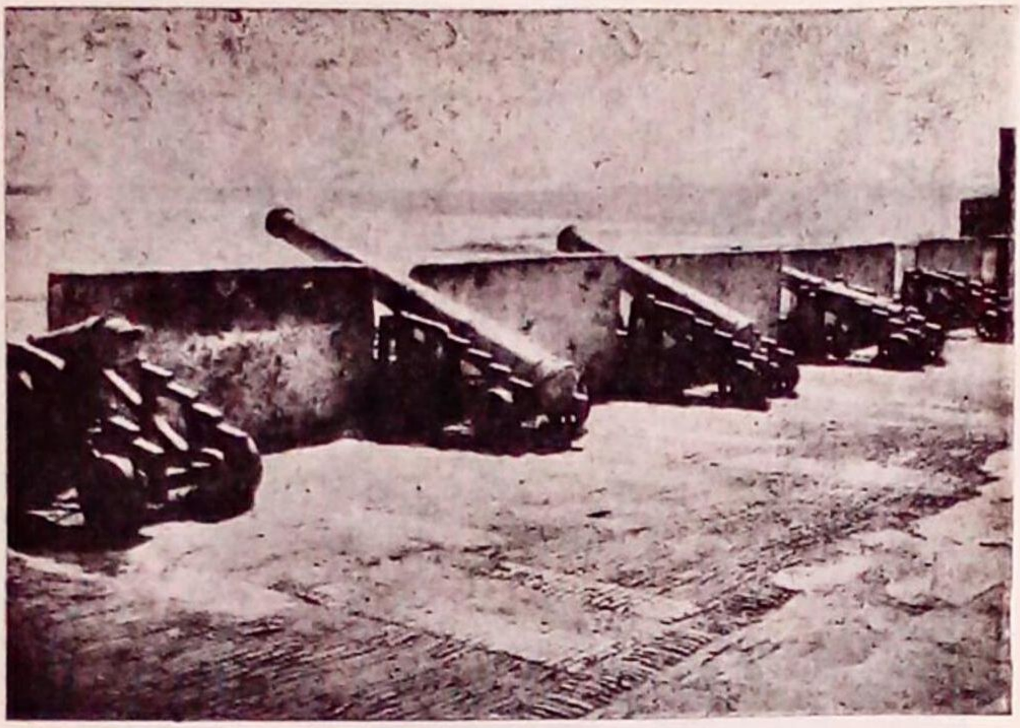

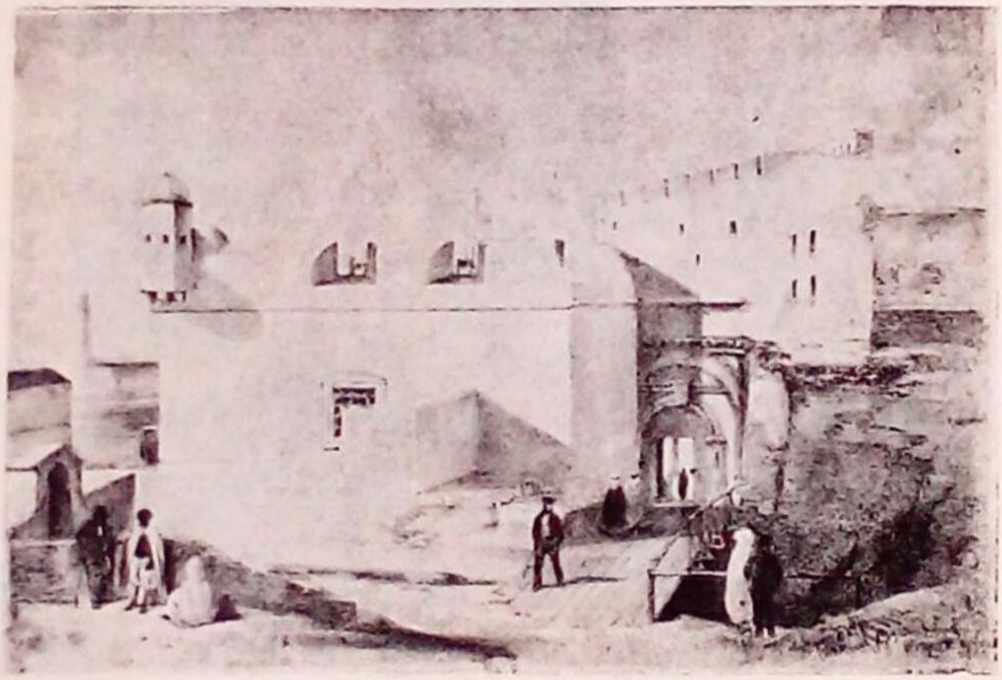

اسوار الجزائر

جزائري في لباس تركي

الأسطول الجزائرى

تتسلح أمة بطبيعة الحال وتعزز قوتها البرية اذا كان الخطر محيطا بها برا من طرف العدو فى الخارج وحتى فى الداخل . كما تقوى أسطولها وتصلحه وتنميه اذا كانت مهددة من جهة البحر لكي تدافع عن ترابها ضد العدو الوارد من الخارج أو تريد التوسع فى الخارج ومثل ذلك الفينيقيون فى الماضي الذين كانوا ماهرين فى الأسفار فى البحار وفنيزية وأسبانيا والبرتغال وبريطانيا واليابان الآن .

وكان ذلك شأن الجزائر فى عهد عروج وخير الدين وخلفائهما من الأمراء الجزائريين حتى سنة ١٨٣٠ لأن الجزائر كانت اذ ذاك فى حالة الدفاع عن ترابها .

وكان عروج وخير الدين يهتمان على الخصوص بالأسطول مع العلم أنه هو السلاح الوحيد الذى كان بالامكان لهما أن يتغلبا به على أعدائهما من أسبان وبرتغال وطليان وغيرهم أو على الأقل أن يدافعا عن أنفسهما .

وقد لعبت الملاحة الجزائرية دورا هاما جدا فى ذلك العهد وربما لم تدركه دولة أخرى فيما قبل . وأبدى الجزائريون مهارة عظمى فى الملاحة حتى أصبحوا لا يغلبهم أحد فى حروب البحر واتخذوا لهم المراسى الأحسن مناعة فى الساحل الجزائرى

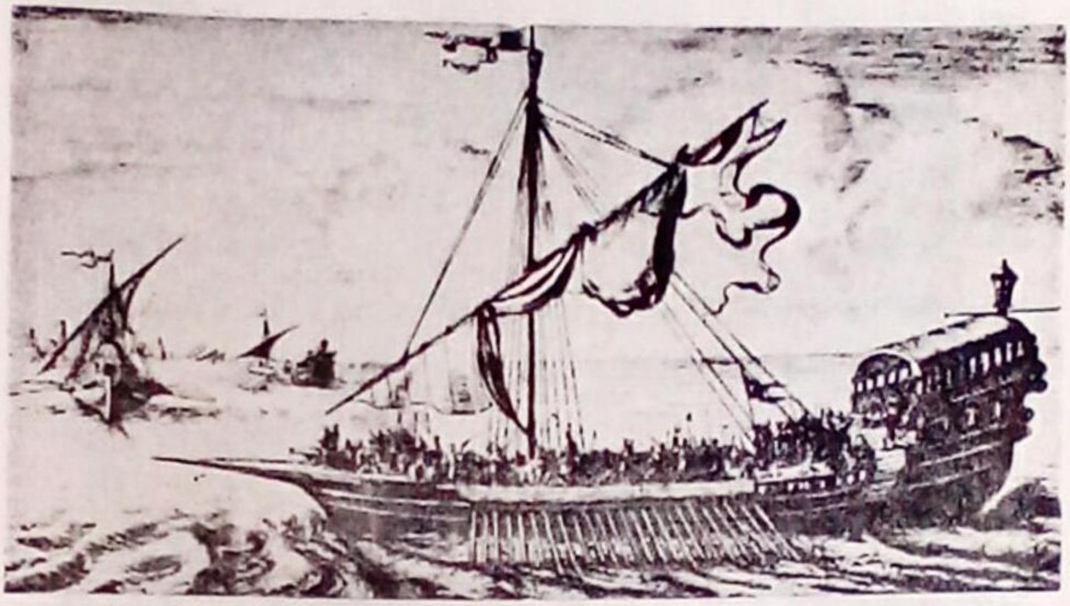

سفن جزائرية

والتونسي من جربة الى قرب مستغانم وأخـذوا يغيرون على البلاد المسيحية . وكانوا يصنعون المـراكب بأيديهـم ويصوغونها على حسب آرائهم وخبرتهم وتجاربهم ليسنحـوها الخفـة والسرعـة والاحكام اللازم للقيام بالغزو فى البحر ومواجهة الأخطـار أمـام العدو اللدود المتـكالب والمـكون عصبـة فى أوروبا تحت ظـل البابوية وكانت عند الجزائريين ورش الصناعة البحرية فى جيجـل وبجاية وشرشال . وكانت هذه الأخيرة زيادة على ذلك مستـودعا للخشب ومركز معامل لصنع البشاط والحبال والشراع والأجفان والمجاذيف فكانت تصنع خصـوصا فى المـدن المجـاورة للغابات الكثيفة الخشب الصالح لتركيب السفن ، وأشهرها غابات جيجل والقل وبجاية المكونة من شجر الصنوبر والأرز وبلـوط الفلين المدعو الكروش .

وكان يدير الورش اختصاصيون مسلمون يساعدهم فى عملهم مسيحيون أحرار أو مماليك أو موالي . أما الصوارى والشراع والحبال والأدوات الأخرى اللازمة للسفن الحربية فكانت الـدول الأوروبية تزود بها الجزائر فى مقـابل الجزية التى كـانت تفرضها عليها سنويا أو يشتريها منها الجزائريون أو يعوضـونها ببضائع أخرى برسم المقايضة .

وقد أدرك الجزائريون فى هذه الصناعة المهارة الكبرى بحيث كان الباب العالى يتوقف على خبرتهم ومعونتهم فى ذلك الوقت .

ان السفينة أو المركب يرأسه رئيس يكون هو مالكه أو قائده يختار من بين رجال البحر الماهرين والمتجلدين الشجعان ذوى البطولة المفرطة لا يأخذهم رعب ولا خوف ويكـونون قد قاسـوا شدائد البحر وأهواله .

للاسطول نظام شديد وعنيف لا فتور فيه ولا انحلال • يحتوى على عدة وحدات مجهزة بالمدافع والعتاد الحربي والشرائع والمجاذيف يقودها البحارة أو الرياح أو هما معا اذا كانت الريح غير كافية أو مضادة لسير المركب •

والبحار الذى يحرك المجذاف يسمى بالتركية كركجي (٤٨) والدرجة الأخيرة من الرتبة هى رتبة بحار ج• بحارة،يكون فى مقدمة السفينة • اما سوطة رئيس فهو البحار المقيم فى خلفها •

والقلفاط هو البحار المشتغل بطلاء السفينة وتزفيتها وغلق الشقوق بالزفت •

والنجار كان يدعى مستر داش • والخزناجى هو المكلف بالعنابر التى يخزن فيها البارود وهو يوزعه على المدفعين أو الطبجية ورئيسهم باش طبجى •

والعنبرجى هو صاحب المخزن المعد للمؤن والسلع • ووكيل الحرج هو المكاف بالمؤن • ويختلف عدد وكلاء الحرج حسب أهمية المركب فيكون له وكيل مخصص بالبحارة والآخر بالطبجية •

والبريطاجي هو المكاف بالشراع العليا للسفينة ، والقارداكابو بالشراع السفلى والدمامجى هو ماسك مقود المركب والصندال رئيس هو رئيسه واليرقنجي هو المشرف على الأشرعة والباش دمامجي هو رئيس البحارة المكلفين بقيادة المركب والوديان هو ضابط من ضباط السفينة والياقنجى هو الضابط المكلف بالأمور

---

(٤٨) نلاحظ ان كثيرا من الالفاظ البحرية المستعملة فى الجزائر هى تركية او اسبانية او عربية

العامة للسفينة ، ورئيس العسة هو الذى يرتب الحراسة على السفينة ليلا ونهارا . وكل حارس يقوم بحراسته فى فترة من الزمان تدوم ست ساعات متوالية ثم يخلفه بحار آخر على دور اليوم ، ليلا ونهارا ، يتناوب فيها أربعة أفواج من الحراس متوالين بدون انقطاع .

والباش رئيس هو نائب الرئيس .

أما الرئيس فهو القائد الأعلى للسفينة والمسؤول الوحيد أمام الأمير .

وكان لكل سفينة رئيس الترائك أو المسؤول عن الغنائم واحصائها وحسابها وأمانتها والمحافظة عليها . وكان يترأس السفينة المسبية التى تصبح منذ حجزها تحت عهدته .

والخوجة هو كاتب الرئيس وامام المركب وواعظه ، فيصلى بالبحارة ويسك دفتر الغنائم واليومية ويسجل كل ما حدث فى السفينة أثناء الأسفار .

وفى أول الأمر كان البحارة هم الجنود المكلفون بالحرب دفاعا وهجوما مستعلين البنادق والخناجر والسيوف والأسلحة الأخرى ، الا أنه أخذت فى الأخير فرق من الانكشاريين تركب مع الرئيس لتشارك فى الحروب البحرية وتغنم فتشغل هى أيضا بالقيام بالحروب عند نشوبها وهم مسلحون بالبنادق زيادة على عمل الطبجية الذين كانوا من رجال السفينة .

والرئيس وهو قائد السفينة كان يسميه القبطان المقيم بالجزائر بعد امتحان واختبار أمام رجال البحر المسنين ذوى الخبرة والحنكة فى أمور البحر . فانهم كانوا على علم بأعماله لأنه كان من ذويهم وكان غالبا ما سبق له أن عمل معهم فى البحر .

رئيس البحر جزائري

والسفينة التى كان يتخذها عروج وخير الدين كانت من أحسن السفن وأجملها وأوثقها يسحانها السرعة الكثيرة لكى تواجه العدو .

وعندنا وصف سفينة خير الدين التى كانت تدعى «الجزائرية» يعرفها العدو من بعيد فيفر عندما يراها وكانت عظيمة ضخمة من نوع القليرة ترفرف على أعلا صاريها الراية الحمراء ذات النجمات الثلاث . وفى مؤخرها بيت خير الدين الفخم المزخرف بالنقوش على الخشب النفيس يدخله الضوء والشمس من ثلاث نوافذ عريضة حيطان البيت مغشاة بثوب من الحرير الأحمر الرائع ومعلقة عليها لوحات زيتية من أشهر رسامي ايطاليا وأسبانيا اذ ذاك وعصر النهضة الأوروبية « Renaissance » وفى وسط الحائط الأمامى للبيت لوحة عليها كتابة شعار القرصنة « ننتصر بحول الله» وفى مدخل البيت فناران جميلان عليهما النقش الفنى الرائع أحدهما من الفضة والآخر من البرونز . واذا سافر خير الدين لمهمة طويلة فانه كان يحمل معه حشمه وحرمه يأويهم فى هذا البيت المتسع الأطراف .

أنواع السفن الجزائرية واوصافها

كانت للقراصنة أنواع عديدة من السفن منها المركب والسفينة والغليوطة والكرافيلة والقليرة يطلق على كل واحدة منها لفظ جفن ج أجفان ومجموعها هى العمارة يسميها الأسبان لاماردة والفرنسيون فلوط « flotte » وكانت تلك المراكب خليطا من كل نوع . منها ما يصنعه الجزائريون فى أوراشهم وما يؤخذ فى البحر من المراكب الحربية أو التجارية ، ويدخلون عليها الاصلاحات والتعديلات ويجعلونها صالحة للقرصنة فيعطونها الأسماء التى

تصبح تعرف بها مثل : النصر والسعادة والسعيدة والنجمة والنجاح والخضراء ومفتاح الجهاد والنجوم والغزالة والجناح الأخضر الخ ... وربما كانوا يحتفظون بأسماء المراكب التى يأخذونها فى البحر مثل لاروز وماريا .. أو أصلها كالبرتقيزية والمريكانية أو كانت تحمل اسم صاحبها مثل مصطفى رئيس ورئيس حيدو (٤٩) .

وكانت عندهم أنواع المراكب الشراعية منها والمجذافية ولكل سفينة مصطبات يجلس عليها البحارة عندما يكونون يقذفون وفى كل سفينة عدد من المدافع يتراوح عددها من اثنين الى العشرات من كل عيار وهى :

القليرة : سفينة حربية وتجارية ذات أشرعة ومجاذيف كثيرة الطول .

والجاليات أو الغليوطة مجذافية فطحة القعر خفيفة جدا .

والغليون الذى هو مركب ضخم أسبانى مخصص للحرب كان يحمل فيه الأسبان الذهب والفضة والبضائع النفيسة من مستعمراتهم .

والقرابيلا أو الكرافيلا سفينة حربية سريعة صغيرة الحجم كانت فى الأصل معدة لحمل الخيل كما يدل على ذلك اسمها الأسبانى «كبايو» والبريك وفيه شراعان مربعان وصاريان وهو خفيف الحمولة .

---

(٤٩) دفولس مقال عن بحرية امارة الجزائر ص ٢٨٤ المجلة الافريقية سنة ١٨٦٥

والفلوكة وهى الفلك أو الزورق الصغير يستعمل فى المسافات القريبة وفى السواحل .

والشطية أو الشيطية وهى مركب صغير لحمل الأثقال لمسافة قصيرة أيضا كانت كذلك ساحلية .

والشباك ج ات سفينة صغيرة عربية الأصل معدة للاسفار القصيرة والبسيطة ذات ثلاثة صوارى .

والعاشرية : فلوكة صغيرة .

والغراب Corvette وهى سفينة حربية ذات ثلاثة صوارى ضيقة تحمل سلعا خفيفة بين الفرقاطة والبريك . (٥٠)

والقراق : وهى سفينة برتغالية أو برتقيزية كما كانوا يسمونها، كبيرة وعالية وضيقة فى أعلاها ومستديرة القعر تصل حمولتها حتى ٢٠٠٠ طن .

والفرقاطة : سفينة كبيرة وضخمة فيها ثلاثة صوارى وتسير أيضا بالمجاذيف وهى معدة للاسفار الطويلة وللحروب الشديدة كانت حربية بمعنى الكلمة تحمل عددا هاما من المدافع والأدوات الحربية .

والفوسطو أو الفوسطة : سفينة صغيرة شراعية ومجذافية سريعة جدا وخفيفة تدخل فى أى مكان صعب وضيق من الصخرات، كثيرا ما كان يستعملها الجزائريون .

والفلوتة : سفينة حربية معدة لحمل المتاع والأثقال الحربية .

---

(٥٠) هناك مثل عندهم يقولون فيه « كانت أغربة تطير فى البحر كالاغربة » عندما يعبرون عن كثرة السفن المهاجمة .

والكارقو مركب أفطح معد لنقل البضائع من محل لآخر قريب منه وخصوصا من السفن الكبيرة التى يعسر عليها الارساء فى الميناء .

وتوجد أنواع أخرى من المراكب والفلائك والسفن الحربية والتجارية وسفن الصيد المحولة الى مراكب حربية كالشلوتي والطرطان والشالوب والقليوط الخ ... وغالب الأحيان تتغير وضعيتها اذا أخذت فى البحر وحولت الى سفن حربية .

تصرف الملوك الزيانيين عند ظهور عروج وخير الدين

منذ أن ظهر عروج وخير الدين أخذ ملوك بني زيان يتراوغون عليهما . تارة يتحالفون معهما ويخونونهما . وتارة يتعاقدون مع الأسبان ويعبرون لهم بصراحة عن طاعاتهم ويؤدون لهم الجزية ويأذنون لهم بالتجارة فى البلاد بكل حرية ويردون لهم المسيحيين المستعبدين وحتى المسيحيين الذين كانوا يفرون من الجيش الأسبانى ويعتنقون الاسلام . وكثيرا ما كانوا يعادون بعضهم لبعض متقسمين فرقا تتحارب فيما بينها وتتطاحن وتلجأ الى العدو الأسبانى الذى كان يستفيد من تنافرهم ويتوسط كحاكم بينهم وبين الأب والابن والعم وابن الأخ ويعين فرقة على أخرى ويجعلها تتغلب عليها . فكان يأخذ الرهان منهم يقيسون بوهران عند القائد الأعلى ضمانا لسكون الملك القائم على عرش تلسان حتى اذا قطع العلاقة معه أو تحالف مع الأتراك يهدد الملك بقتل الرهائن أو بقطع المدد أو معاونة الملك المخلوع أو المتمرد . وأصبحت البلاد بهذه التصرفات غيرآمنة تسودها القلاقل والفوضى والتفرقة ، بحيث لم يبق أحد يضع ثقته فى الملوك . وقد ضجر الشعب من خياتهم وتحالفهم مع الأسبان وكذا الأتراك الذين كلوا لتلك العهود الواهية ومطالبة العفو متصرفين تصرف الصبيان الى حد أنه لا يحسب عدد المرات التى خانوا عهودهم وطلبوا العفو من الأتراك .

وقد زاد احتلال الأسبان للشواطىء الجزائرية وصعود نفوذ عروج وخير الدين المملكة الزيانية تضعضعا بالاضافة الى ما قد أدركها من الهرم والشيخوخة بسبب الفتن التى كان يضرم نيرانها الأسبان ليخلقوا الفوضى ويعكروا الجو حتى يستتب لهم الأمر . فأصبح الملوك الزيانيون خداما وولاة لهم متحالفين معهم مؤدين اليهم كل سنة الضرائب الهامة وآذنين لهم بالتجارة فى المراسى والمدن المجاورة لتلمسان ميسرين لهم حمل الحبوب والأنعام ومختلف السلع لتموين جنودهم ووسقها عند الاقتضاء الى أسبانيا أو استهلاكها فى عين المكان بالمرسى الكبير ووهران .

وكان عروج يحارب الأسبان والملوك الزيانيين معا . وفى سنة ١٥١٧ انتقل الى تنس ليخضع صاحبها وأخذ يخمد نار الثورات فى كل النواحى الغربية وتوسع حكمه ضاربا المشوشين الضربات القاسية تارة بتونس وقلعة بني راشد وتارة بتنس وتلمسان الا أنه كلما نادته ناحية أسرع اليها ومهد مشوشيها واستقر حكمه عليها وما زال الملكان الزيانى والحفصى يثيران عليه القلاقل ويخلقان له المشاكل حتى قضى عليهما كما مر .

وقال صاحب تاريخ الدول البرباريسك ما نصه عن سبب قتل عروج أعيان الجزائر « لقد وجد الجزائريون الوسيلة للقيام بمراسلة سرية مع حاكم البرج الأسبانى واتفقوا معه بأن يقتل جميع الأتراك وأن يضعوا الجزائر تحت حماية أسبانيا » (٥١) .

كما اتفقوا على أن تحرق جماعة منهم أسطول عروج وبينما يخرج الجنود لاخماد الحريق ، يغلق الثوار أبواب المدينة ويثورون على عروج . وفى الحين يتوجه الأسبان الى المدينة

---

(٥١) ص ٤٦ ج ١

ليحتلوها ويعزلوا عروج لكنه تفطن لمكيدتهم فكتم سره ودبر انتقامه منتظرا اتاحة الفرصة فترقب يوم جمعة عندما دخل الأعيان الى المسجد الجامع لأداء الصلاة فأغلق الأبواب وقتل منهم ما قتل كما سنشرحه .

وكان يحيى بن سالم التومى بوهران لا يزال يغرى الأسبان ويحرضهم ويثيرهم على عروج حتى كتب الماركى دى قوماريس الى الوزير الأول خيمينيس دى سيسنيروس يقترح عليه الهجوم على الجزائر . وسافر يحيى الى أسبانيا لتأييد طلب الوالى والتماس الاعانة وأظهر يسر القضاء على سيطرة عروج واخراجه من الجزائر اذ أن أهلها ، كما زعم ، ساخطون عليه وأن القبائل العربية والبربرية كلها ضده ومستعدة لاضرام نار الثورة عليه وصادف الأمر أن الأسبان كان قصدهم دائما منذ سنين ابعاد الأتراك ووضع أحد عملائهم على عرش الجزائر .

الصعوبات التى لاقاها عروج وخير الدين فى نشر الأمن بالجزائر

وبعد ما فتك عروج بأهل الجزائر فى قضية المسجد حيث كشف مؤامرتهم الخطيرة التى كانوا يحيكونها ليقتلوه فاستغاث أهل الجزائر بعد هذا الحادث بصاحب تنس مولاى عبد الله الزيانى المدعو حميد العبد ، فانتقل بجيش نحو الشرق الى جوار شلف برا لكن لاقاه عروج وشتت شمله وفر صاحب تنس الى الجبال . وبعد هجوم جيوش ديقو دى فيرا وانهزامه طلب أهل تلمسان الاستعانة من عروج فتوجه بجيوشه ومهد البلاد وانفرد عروج بالحكم من بجاية الى جوار تلمسان فولى خير الدين على المشرق وعين أخاه اسحاق واليا على مملكة تنس مع الاقامة بقلعة بنى راشد وفى نفس الوقت خلع أبو حمو الثالث الزيانى ابن أخيه أبي زيان

ملك تلمسان وانتهز عروج الفرصة التى كان يترقبها بفارغ الصبر لأن غرضه كان تعميم حكمه على القطر الجزائرى كله • فحقق أحلامه بهذه الرغبة باستيلائه على القطر الجزائرى من جيجل الى تلمسان لكنها كانت آخر عهده بالحياة ، نعم توجه عروج الى تلمسان واحتلها بسهولة تحت هتافات السكان ونصب أبا زيان بعدما فر منها عمه أبو حمو لكن سرعان ما أخذ أبو زيان يتجسس على عروج ويعكر عليه الجو فتفطن له ولمكائده ، فأسرع بالبطش به وبأفراد العائلة الملكية • فأغرق منهم ما يزيد على أربعين أميرا فى صهريج متسع الأطراف لا زال موجودا الى الآن يكنى صهريج بادة (٥٢) وفر عدد من الأمراء وأخفوا أسماءهم خوفا من أن يسلمهم الجواسيس لعروج (٥٣) لأن آل زيان كانوا اذ ذاك موضوع سخط أهل تلمسان لانحرافهم عن طريق الجادة فى آخر أيامهم وتحالفهم مع العدو •

وبعد قتل هؤلاء الأمراء من بنى زيان أباح أموالهم لجنوده الذين نهبوا الأثاث والنفائس وأخذ هو القسط الأوفر وفتك الجيش بأهل المدينة حتى أنفوا من تلك الوحشية وراموا الغدر به والتحالف مع الأسبان وكانوا يرغبون فى ذلك أشد الرغبة لما أحسوه من الخطر المحيط بهم ، على أن عروجا كان وعدهم من

---

(٥٢) بادة اسم امرأة بربري . كان السلطان أبو حمو موسى الاول نسب الصهريج لابنته بادة التى كانت تتنزه فيه فى زورق يسير بها على الماء وكانت تقام بمناسبة الاعياد والمهرجانات مسابقة الزوارق فى الصهريج وكان الماء ينحدر من أعالي الجبال المشرفة على تلمسان ويستعمل الصهريج الآن ملعبا للرياضة .

(٥٣) كان من جملة هؤلاء جدنا ابو زيان احد افراد الاسرة وفر واخفى اسمه واستوطن الجبل المجاور لتلمسان وسمى نفسه اشنهو اي من هو ؟

قبل بأن لا يمس أموالهم وأبدانهم وكان أبو حمو عند الأسبان بوهران التجأ اليهم بعدما دخل الأتراك الى تلمسان وسرحوا ابن أخيه أبا زيان وردوه لملكه .

الجاسوسية والمؤامرات ضد عروج وخير الدين

تغلب عروج وخير الدين على كل أنواع التشويش التى كانت تدبر من قبل الأهالى فى الداخل بايعاز من العدو الخارجى ، وحطما تلك الدسائس كلها والمناورات كما قضيا على أنواع الشغب التى كانت تحاك ضدهما من قبل الملوك الحفصيين والزيانيين والأمراء والأشياخ الذين كانوا فى كثير الأحيان متحالفين مع الأسبان المرتكزين فى المراسى الافريقية الحساسة . وذهب عروج وأخوه اسحاق ، فى الحقيقة ضحيتين لتصرفات الملوك الزيانيين .

وبسط خير الدين بعده حكمه على الجزائر وما والاها رغم الجاسوسية التى كانت ضاربة أطنابها بالجزائر وتونس وتلمسان والمحاولات التى طالما دبرها العملاء العرب والموظفون الأسبان لافساد الأحوال وتعكير الجو وخلق الفوضى قصد مساعدة العدو على الاستيلاء على الجزائر . وكان الأسبان يستعينون كثيرا بالأهالى لالتقاط الاستعلامات ونشر الأخبار الفاسدة والأقاويل الزائفة والأنباء المسمومة لخلق البلبلة والتشويش والتفرقة فى صفوف الجيوش والشعوب واغرائهم على الحروب الأهلية . وكان هؤلاء ينخرطون أيضا فى الجيوش الأسبانية ويدلون أسيادهم على أسرار الأهالى .

والكثير أيضا كانوا يتعاملون مع العدو بالبيع والشراء وتزويد المراكز بما تحتاج اليه من المؤن والأنعام ويشترون السلع الواردة

من أسبانيا وذلك رغم حظر التعامل معه تحت طائلة العقوبات الصارمة . والأمر الذى كثيرا ما تضرر منه الأخوان هو ذلك التعامل السرى الذى كان يصل العدو بالأهالى ضعيفى الايمان والفاقدين الضمير ونسوق على سبيل المثال نص رسالة وجهها فى شهر أبريل سنة ١٥٣٦ الكونت القوديتى عامل وهران الى القائد حميدة أحد عملاء الأسبان بالجزائر :

« ... وجهوا الي بعض النواب ليعقدوا معنا الاتفاق باسمكم بعد التفاوض فى المسائل الآتية : زودونى بالمعلومات الخاصة بالقوات التى تحتاجون اليها لحماية الجزائر والضمانات التى تعطوننا اياها تأييدا لكلمتكم . وأريد أن أعرف أيضا ما تطلبونه من جلالته (٥٤) فى حالة استيلائها على هذا الحصن (٥٥) وأخبرونى بكل ما تجمعونه من الأخبار من جواسيسكم . هل السكان راضون عن خير الدين أو ساخطون عليه ؟ وهل المدينة مزودة بعدد الأتراك والمدافع الكافية وحاصله بكل ما ترونه مفيدا لنا لتعينونا على طرد ذلك الطاغية من البلاد وكونوا متيقنين أن جلالة الملك سيعمل لكم بعون الله الحظ الذى تستحقه شخصيتكم المحترمة .

وفيما يخص مملكة تلمسان فاني أريد أن تكونوا صديقا وحليفا لمولاى عبد الله وجده عبد الرحمن بن رضوان الذين هما من الخدام المخلصين لجلالة الملك (شارلكان) ومن أعداء خيرالدين

---

(٥٤) أي الامبراطور شارل الخامس ولقب الجلالة كان ينسبه الاسبان للامبراطور فقط أما الملوك الجزائريون والعرب فكانوا يقبلونهم بالسمو

(٥٥) يعني الجزائر

أرغبكم فى أن تقتربوا من منطقة بنى راشد وان وجب الأمـر أن تدخلوا الى تراب المـمـلكة (الزيانية) وأن تلتحقـوا بمولاى عبد الله (٥٦) .

ولتخبرونى بايجاز وبقدر الامكان بما تطلبونه لهـذه المـزية التى ستقضونها لنا واني أوعدكم انه اذا استولى مولاى عبد الله على ملك تلمسان فستكون له مثل الولد البار وأنا كصديق مخلص سأعينكم فى جميع أموركم فى المشرق والمغرب » (٥٧) .

وأردنا أن نأتى بمثل بسيط من جملة المكاتب العديدة وأخبار الجاسوسية التى كان يقوم بها العدد العديد من الأهالى حبا فى المال أو السلطة كانوا يفضلون تسليم بلدهم لعدو جبار لـدود على أن يعينوا الأتراك على بسـط الحـكم بالجزائر واستتباب الأمن والاستقرار بها وقد استقر على كل حال رغم مناوراتهم .

حقا كان الأخوان شجاعين ومقدامين ومتجـلدين لا يعرفـان تعبا ولا كللا ووجدا تحت أمرهما جنودا صناديد مثل أهل الأندلس والأتراك والمسيحيين المعتنقين للاسلام« renégats »والعرب والبربر الأفارقة . ولأجل ذلك كانا يتغلبان على أعدائهما الملدين الأسبان المتحالفين مع الملوك الزيانيين والحفصيين كما حاربا أعداء آخرين فى الداخل كانوا يعكرون الجو لأغراض شخصيـة مثل أحمد بن القاضى سلطان كوكو وقارة حسن وعبد العزيز سلطان بنى عباس . لكنهما وجدا الأسبان قد تعبوا وملوا من كثرة الحروب التى سبق لهم أن أشهروها فى كل أرجاء العالم بعدما أظهروا شجاعة فائقـة

---

(٥٦) لعب مولاي عبد اللـه ملك تلمسان المخلوع وجـده لامه عبد الرحمن بن رضوان دورا غير مشرف ضد ملك تلمسان وخير الدين وتحالفا مع الاسبان لتسليم البلاد لهم اصبحا مجرد عبدين لهم يزودانهم باخبار واستعلامات

(٥٧) المجلة الافريقية سنة ١٨٧٧ ص ٨٨ و ٨٩

فى أيام الملكين الكاثوليكيين وبعدما أخرجوا المسلمين من ديارهم واحتلوا شواطىء البحر المتوسط وتمركزوا فى بعض الموانىء المحصنة التى أصبحوا يغيرون منها على البلاد الداخلية حتى وصلوا فى غاراتهم الى جبال العمور ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يسيطروا على تلك الأقطار لضعف المعونة التى كانوا يتلقونها من أسبانيا والتى أخذت تضمحل شيئا فشيئا منذ أن بويع لشارل الخامس بالملك • فاضطر الأسبان الى ترك بعض الموانىء الثانوية البعيدة عن قواعدهم مثل عنابة وبجاية وهنين وغيرها قصد التخفيف من المصاريف وتوفير الجنود اللازمين لحماية المراكز الهامة مثل المرسى الكبير ووهران وتونس وطرابلس •

ورغم العداوة التى كان يكنها شارل الخامس للافارقة وعزمه على البقاء بأفريقيا ، لم يعرها الأهمية التى كان حكام وهران والمرسى الكبير وما والاهما ينتظرونها منه لأنه كان مشغول البال بأوروبا • ومن لطف الله الخفي كان يحارب فى عدة جبهات منها فرنسا وايطاليا والفاتيكان وفينيزيا وأوروبا الوسطى وضد الأتراك العثمانيين الناهضين الأقوياء الذين احتلوا بلاد المجر وحاصروا فيينا وكادوا أن يحتلوا أوروبا كلها كما كان شارل الخامس يواجه الثورات بأوروبا التى ظهرت فيها اذ ذاك الديانة الجديدة المنحدرة من المسيحية وهى البروتستانتية •

ذلك كله جعل شارل الخامس لم يجب كما يريده قواده الى طلباتهم الملحة والأكيدة لتزويدهم بالجنود والمؤن والعتاد الحربى • فأرغم عروج وخير الدين الأسبان المرابطين فى التراب الجزائرى على الانكماش فى مراكزهم لا يخرجون منها الا عندما يتلقون المدد من أسبانيا أو ينهبون من الأهالى المؤن والأنعام • زد على ذلك

عمليات التمرد التى كان يثيرها الجنود الأسبان المرابطون فى الحصون وكثيرا ما كانوا يهددون رؤساءهم بالفرار الى القبائل واعتناق الاسلام . ودامت الحالة هكذا حتى طرد الأسبان نهائيا من قواعدهم .

شارل الخامس يهجم على الجزائر باسطوله

كان لموت عروج صيت عظيم فى عالم الكنيسة اذ كان يظن المسيحيون أنهم قد قطعوا دابر الأتراك فى غربي البحر المتوسط . فبادر شارل الخامس بتوجيه قوة عظيمة الى الجزائر ليحارب خير الدين حتى يريح المسيحية من هذا الخطر الخطير الذى يحيط بها من كل جهة . فعين على رأس الجيش المركب من ٥٠٠٠ جندى هوقو دى مونكاد نائب ملك صقلية ، وفى ١٧ غشت سنة ١٥١٨ أرست سفن الأسبان بين الحراش والجزائر .

ولنتساءل هل كان شارل الخامس متيقنا بانهزام عروج فى الجهة الغربية حتى يفتح جبهة ثانية فى الشرق ليقضى على جيوش خير الدين أو أتاه خبر موته وعلى كل حال عندما حل الجيش الأسبانى بناحية لاغا قرب الجزائر فى ١٨ غشت سنة ١٥١٨ كان عروج محاصرا فى تلمسان . ولا يمكن بحال للملك أن يكون قد ارتجل جيشا هائلا وهيأه للحصار البحرى والحرب البرية فى ظرف أسبوع أو أسبوعين . فاننا نظن أن الامبراطور أراد أن يضرب القوات التركية من كل جهة وقد تأهب لها منذ زمان . ولذلك نرى الواقعتين قد جرتا فى تاريخين متقاربين . لكن الأمر الذى لا يفهم هو مضمون الرسالة التى وجهها قائد الجيش الأسبانى لخير الدين فى غشت ١٥١٨ حيث يأمره فيها بأن يستسلم والا سيفعل به

ما فعل بأخويه اسحاق وعروج • فأجابه خير الدين : « ان السيف هو الذى سيحكم بيننا من هو أحق بالجزائر » •

فاذن ، اما أن تكون الرسالة مكذوبة من حيث مضمونها واما أن يكون الهجوم على الجزائر قد وقع بعد ١٩ شتمبر سنة ١٥١٨ تاريخ استشهاد عـروج وأما ان كان موت عروج قبل غشت سنة ١٥١٨ •

ومهما يكن من أمر لما حلت جيوش العـدو بشاطىء البحر قرب الجزائر ، أخذ رئيس المدفعية الأسبـانية قونزالفو مارينو دى ريفييرة يدمر المدينة بمدافعه • فاستولى العدو على كدية الصابون يوم ١٨ غشت سنة ١٥١٨ حيث يوجد برج مـولاى حسن الـذى سماه الأسبان من ذلك العهد برج الامبراطور « Fort l'Empereur » • وقد وقع اذ ذاك ، الخـلاف فى الجيش الأسبانى سببه أنه كان على رأس الجيش قائدان متساويان فى السلطة والنفوذ وهمـا هوقـو مارينو دى مونكاد وقونزالفو مارينو دى رفييرة المـذكور ، وكان هذا الأخير رئيس الطبجية كلف بمهمة الهجوم على المدينة • فاحتل فى ١٨ غشت الكدية المذكورة بألف وخمسمائة محارب وعزم على النزول الى المدينة • فتعرض له قونزالفو حتى يقـدم جيش أبى حمو الزيانى وخيالته وكـان خير الدين على علـم بهذا الخـلاف (٥٨) فأسرع بالهجوم على العدو بجيشـه حتى لا تعزز قـوات الأسبان بالجيش الزيانى وكانت الصدمة عنيفة • فانكسر العـدو وفر هاربا الى سفنه الراسية بالميناء قرب لاغا • فشتت المسلمـون

---

(٥٨) يلاحظ أن نفس الخلاف وقع فى سنة ١٨٣٠ بين الجنرال دى بريمـون قائد جيش الاحتلال الفرنسى وأمير البحر دى بيري ، وكـاد الخـلاف يتفاحش امره لو لم تضع السلطات الفرنسية امير البحر تحت سلطـة القائد الاعلى للجيش بحيث ما كان لامير البحر الا أن يمتثل لأوامره .

شمله بعدما حاول الركوب فى السفن والابحار لكن طلعت عاصفة شديدة فى ذلك الحين فبعثرت وشتتت السفن ومات عدد عديد من الأسبان مقتولين بالسيوف وغرقى فجمع القائد الأسبانى شتات الجند وفر هاربا فى السفن الباقية فى ليلة ٢٢ غشت سنة ١٥١٨ وقد مات للعدو نحو ٤٠٠٠ محارب من بين الخمسة آلاف الذين نزلوا بساحل الجزائر وغرقت ما يزيد على خمسين سفينة . وكان الظفر لخير الدين الذى جمع أموالا طائلة من الفيء والعتاد الحربى والمدافع والمؤن والخيل . فعزم اثر ذلك على تقديم طاعته للخليفة العثمانى ليكون حكمه مشروعا مبنيا على أسس اسلامية . فوجه وفدا الى السلطان كما سنراه فيما بعد .

الامبراطور شارل الخامس

أوصاف عروج

توفى عروج فى الأربع والأربعين من عمره ولم يترك عقبا .

كان مربوعا ، عريض البنية ، قويها ، لا يأخذه تعب ، شجاعا ، مقداما ، جريئا . كان أشقر اللون ، أحمر اللحية ، اسمر لونه بشعاع الشمس لكثرة أسفاره فى البحار وكان أقنى الأنف براق العينين لماعتين . وكان شديد الانتقام ، فى قلبه قساوة لا يشفق على أعدائه ، فينفذ فيهم الحكم الشديد . وكثيرا ما كان يهابه النصارى ويخافون ملاقاته ، لا يجابهونه الا اذا اضطروا لذلك فيتجنبون الاصطدام معه ، ولو كانوا متفوقين عليه قوة وعددا لما يعلمون فيه من الاقدام . وكان كريما سخيا يتبرع بكل أمواله التى تصح له من الفيء على جنوده وأصحابه وذويه ، ولا يبقى لديه الا القليل منها وقال عنه هايدو : « كان سخيا بأمواله بدون حساب ، الأمر الذى جعل يلتف حوله قوم غفير من الناس وخصوصا عندما كانت المجاعة تجعل الناس مفتقرين للصدقة . فتراه يخرج الى البحر لعله يجد سفينة أعداء حاملة الحبوب فيسبيها ويوزع وسقها على الفقراء بدون عوض ولا يأخذ منها شيئا » (٥٩)

---

(٥٩) تاريخ ملوك الجزائر ـ المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ١١٧ .

نعم كان اذا لاقى سفينة الأعداء فيتصدى لها ويقترب منها ويرمى الحبال عليها حتى يربطها بسفينته ويثب عليها ويدخل فى وسط الأعداء كيفما كان عددهم وشدة سلاحهم ، الأمر الذى كان يجعلهم يظنونه عفريتا لا يغلب وكانوا يخوفون به أبناءهم فيقولون لهم « ها برباروسة جاء ياكلكم » .

وقد نوه عبد القادر نور الدين بعروج قائلا عنه :

« ان من تأمل فى خدماته ومساعيه وعرف مآثره الخالدة ، فانه يتفطن لحسن مقاصده وأغراضه . فان هذا الرجل العبقرى سعى فى توحيد البلاد وجمع شمل أهلها وتحطيم المعتدين عليها الطامعين فى أرزاقها . فله الفضل العظيم فى تأسيس أول دولة بمدينة الجزائر ... وخير ما يقال وأصوب ما يكتب ويسطر أن بابا عروج هو أول من وضع اللبنة الأولى لبناء صرح الدولة الجزائرية وأول من تنبه جليا لتمتين أساسها وتصحيحه وفهم أنه يجب لتنفيذ نظرياته أن لا يتجاوز القطر الجزائرى وأن يكرس مجهوداته فى توحيده وجمع شمل أنحائه . فان الجزائر لها شخصية تمتاز بها وشعار خاص بها ومنابع خيرات مختلفة متنوعة » (٦٠)

اننا اذا راجعنا آراء المؤرخين الذين كتبوا عن عروج وجدناهم حاملين عليه بدون شفقة ولا رحمة متهمينه بحب الرئاسة والسيطرة وتأسيس ملك على حساب الامارات والممالك الموجودة اذ ذاك بأفريقيا . حقا كان قاسيا واستعمل طرقا غير مشروعة فى مفهوم الشريعة الاسلامية والقوانين السلطانية المرعية بأوروبا لكننا اذا نظرنا الى أعماله تلك واعتبرنا قيمتها فى الظروف التى أنجزت مع اعتبار البيئة والعصر وتصرفات الملوك والشعوب فى

---

(٦٠) صفحات تاريخ مدينة الجزائر ص ٥٢

أوروبا وآسيا وأفريقيا وجدناها مماثلة تماما لها لا أقل ولا أكثر ضراوة وعنفا على أن هايدو نوه به وبأخيه وأثنى على شجاعته وكرامة نفسه رغم كونه مسيحيا ورهبانيا وأسبانيا عدوا للمسلمين عامة وللاتراك خاصة قائلا عنه :

« اذ أن وصف عروج الرئيسي هو السرعة والاستعجال الذين كان يقضى بهما أموره وهما ثمرة طبيعية لنفسه العالية » . (٦١)

فيسوغ لنا أن نقول بكل انصاف أن عروجا كان وليد عصره . وتصرفاته لم يعطها معاصروه نفس القيمة التى يعطيها اياها المؤرخون بعده . وها ما قاله عنه دى قرامون فى كتابه عن تاريخ الجزائر « هكذا مات مؤسس مملكة الجزائر وعمره أربع وأربعون سنة ولم يترك عقبا . ولقد أجمع تقريبا كل المؤرخين على أنه كان مجرد رئيس عصابة لصوص ناقلين هذا الخبر الواحد عن الآخر . وليس هناك فى الحقيقة رأى أضل من هذا . اذ كان بربروس الأول من أبطال الاسلام شن فى البحر حروبا شعواء بدون شفقة ولا رحمة على أعداء سلطانه ودينه . وقد قام بهذا دون أن يحيد عن الأساليب المألوفة فى ذلك العهد ولم يظهر قساوة أكثر مما كان يستعملها أعداؤه الذين كان يحاربهم .

ولما سمحت له أعماله البطولية بجمع قوات كافية وضعها تحت قيادته اثر انتصاراته الأولى حتى ينجز مشروعا عظيما . فانه عرف بفضل مهارته كيف ينتهز الفرصة ليؤسس ملكا فى وسط الفوضى السائدة فى شمال أفريقيا . رأى أن الوسيلة الوحيدة لدوام سلطانه هى طرد المسيحيين من الديار فهاجم حلفاءهم

---

(٦١) ص ١٧

وأولياءهم ليضطرهم الى جلب المؤن وتلقى النجدة من أسبانيا دون غيرها .

كانت مساعيه فى بداية أمره ناجحة وكادت غزواته للاقاليم الغربية تمكنه من التغلب فى البحر على غزوات العدو الأجنبى لولا خيانة حلفائه التى أدت الى سقوطه »

وقال هايدو فى هذا الشأن : « لقد تأسف عليه أشد الأسف كل من خدم تحت امرته » (٦٢)

امارة خير الدين

لما ورد على خير الدين خبر نكبة أخيه عروج وموت عدد من المجاهدين الأبطال فتأثر كثيرا بالحوادث المؤلمة التى حلت به وبالجزائر وخصوصا تبعت موت أخيه الياس فى الحرب ضد فرسان رودس . انتكس كثيرا لهذه الكوارث بحيث عزم على مغادرة الجزائر . وبينما هو يتأهب للسفر اذ وصلت الى الجزائر فرقة من الانكشاريين وجهها السلطان سليمان القانونى الى خير الدين على سبيل النجدة . فقويت عزيمته وصمم على الأخذ بالثأر . فخلف أخاه وواصل عمله فى محاربة العدو وتنظيم الحكم بالجزائر وترتيب الادارة فى القطر كله . لكن العدو ظن أنه قدقطع دابر الأتراك بقتل عروج . فورم وانتفخ وعظمت أنانيته ورأى أن يغتنم فرصة ضعف معنوية خير الدين ليضربه الضربة القاسية . ولذلك تحرك على ما يظهر بأسطوله الهائل وتوجه الى الجزائر لكنه انهزم شر انهزام كما سنشرحه .

---

(٦٢) ص ٢٨

وكان خير الدين يسمى الأخضر أو الخذر وسماه الأفرنج باريودانت • Ariodant و « بارباروسة » • Barberousse •

أى اللحية الشقراء وربما منحه اسم خير الدين السلطان سليمان • فتقوى وانتشر صيته مثلما انتشر صيت أخيه بل أكثر • ودخل تحت طاعته الشعب الجزائري كله • فوجه الى السلطان العثمانى ليعبر له عن طاعته ويقدم له بيعته ويطلب منه النجدة • فقبل المبايعة السلطان سليمان القانوني الذى أخذ خير الدين من ذلك العهد يدعو فى الصلوات للخليفة العثمانى وأصبحت الجزائر خاضعة للحكم التركى من سنة ١٥١٨ فيولي الخليفة عليها باى البايات وباشا •

ولعل خير الدين كان فى نيته أن يتولى الامارة على الجزائر لكن كثرة اللجاج والقيل والقال ومحاولة ابعاده وحتى الاتصال بالعدو تحت الخفاء أدى كل ذلك بخير الدين الى التفكير فى الخروج من الجزائر نهائيا والاغارة على العدو • وذلك تجنبا للشقاق فى الأمة والبلبلة فى أفكار المسلمين ، أجمع على الرحيل والعودة الى جيجل ليغزو الثغور الأوروبية ، واستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر وما يليها وفوض له أمورها ثم سار بأهله وأتباعه ومن اختارهم من الجنود الى جيجل •

وبعد قليل نهض ابن القاضي أمير كوكو (٦٣) على الحكم واستولى على الجزائر • ففر منها حسن آغا على قول صاحب تحفة الزائر الذى قال عن هذا الحادث ما نصه : « ولما قتل خير الدين ابن القاضى سلطان كوكو وآغا حسن أمير شرشال استتب له الأمر وأزعج ذلك الأسبان الذين خافوا على أنفسهم فأقبلت عليه الوفود

---

(٦٣) خصصنا لهذا الامير فصلا فيما بعد

من آفاق المغرب الأوسط ونواحيه يطلبون العفو • فعفا عنهم وأذعن له صاحب تلمسان فعفا عنه وأقره على ما كان عليه من المشارطة » • (٦٤)

ونعلم أن ابن القاضى تعرض لحكم حسن آغا فثار عليه شعبه وقتله سنة ١٥٢٧ بثنية بنى عائشة ببلاد القبائل كما سنراه بعد ،

وحكى صاحب تحفة الزائر أن حسن آغا أراد الانفراد بالحكم بشرشال • وقد التبس الأمر على ما أظن على المؤلف ولم يميز بين حسن آغا وحسن قارة الذى أراد فى عهد عروج أن يؤسس له ملكا بشرشال حيث توجه عروج فى أول أمره عندما ناداه أهل الجزائر وقتله • بيد أن المؤرخين لم يشيروا الى تمرد قام به حسن آغا الذى كان دائما مطيعا لخير الدين انما هناك حسن قارة آخر تحالف مع ابن القاضى وشق عصا الطاعة فى وجه خيرالدين الذى قبض عليه وقتله • فاننا نتساءل هل وجد اثنان من حسن قارة أحدهما قتله عروج بشرشال بعدما حاول أن ينفرد بالحكم كما بيناه والآخر قتله خير الدين بعدما تحالف مع أحمد بن القاضى سنة ١٥٢٧ كما سنشرحه •

أما الحصن الأسبانى الموجود أمام المدينة فقد اقتحمه خير الدين وضربه بالقنابل واستولى عليه وعلى ثمانية مراكب حربية ودمر الحصن وهدمه وطرد الأسبان منه وأراح الجزائريين من غاراتهم واذايتهم • وكان الاستيلاء عليه فى شهر رمضان عام ٩٣٦ ، ١٦ مايو ١٥٣٠ وعلى أنقاضه بنى رصيفا يربط بين الجزائر الأربع والمدينة ، طوله ٢٠٠ متر وعرضه ٢٥ مترا وعلوه ٤ أمتار ،

---

(٦٤) ص ٦٤ ج ١ . ان صاحب تحفة الزائر أثبت وجود حسن قارة ثان قتله خير الدين .

كما بنى بحجارته جسر باب الجزيرة أحد أبواب المدينة وبالحجارة التى نقلها من آثار تامندفوست المدعو روس قونة « Cap Matifou »

وقد أزعج هذا الحادث الخطير شارل الخامس فأتى بأسطول عرمرم تحت قيادة اندريا دوريا ، لكن انتصر خير الدين على الجيوش الأسبانية وساد الأمن فى الجزائر وفى القطر كله وشاع صيت خير الدين . فاستحضره بعد ذلك السلطان سليمان لما سمع بهذا الظفر الباهر . فمثل بدار الخلافة بالأستانة . وقبل مغادرته الجزائر استخلف عليه حسن آغا المرة الثانية وأبحر على رأس أربعين سفينة . فغزا بها فى طريقه سواحل ايطاليا . ولما وصل الى الاستانة أكرم السلطان وفادته وأعلى شأنه وقلده وزارة البحر كما سنراه ثم ذهب خير الدين اثر ذلك يجوب البحار التى فتك فيها بالنصارى فتكا ذريعا وأصبح يفرض ارادته فيها ويقرر وجوب اشهار الحرب أين مايريد ومتى يعزم ثم أرسى سفنه ببنزرت ثم توجه الى تونس حيث فر صاحبها الحفصى أبو محمد الحسن الذى توجه الى الصحراء ، فلحقه خير الدين ليحاربه فبعث صاحب تونس المخلوع الى شارل الخامس يستنجده فجمع قوة رهيبة معززة بقوة أوروبا كلها بما فيها قوات البابا وايطاليا وألمانيا وبلجيكا وأسبانيا وغيرها . فانتصر العدو على جيوش خير الدين وأسر له ستين ألفا من المسلمين ودخل مدينة تونس واستباحها ثلاثة أيام كما سنشرحه باسهاب بعدما غادرها خير الدين الذى حل ببونة بأثقاله ثم توجه الى الجزائر حيث استعد لغزو السواحل الأسبانية وما زال يحارب حتى استدعاه السلطان سليمان القانونى . فاستخلف ثالثا مستشاره حسن آغا وسار بأهله الى الاستانة فأثبته السلطان فى الوزارة البحرية وذهب الى الغزو متخذا

اسطنبول قاعدة لأسطوله الى أن وافته المنية رحمه الله سنة ٩٥٥ (١٥٤٦) أو (١٥٤٨) بالاستانة حيث يوجد قبره الذى هو موضوع زيارات الى الآن ٠

اوصاف خير الدين

كان خير الدين بعيد النظر هادئا متبصرا غير متسرع فى اتخاذ القرارات ٠ وكثيرا ما كان يتشاور فى أمره مع العلماء فينفذ أحكامهم اذا كانوا يطبقون حدود الله ٠ واستقل خير الدين بالسلطة وأصبح لا يشاطره فيها أحد الا مجالس العلماء والفقهاء بالجزائر وبجيجل ٠ وكثيرا ما كان يتأثر برؤياته فى منامه فيؤولها وكان روحيا أكثر منه ماديا خلاف عروج ، رغم تجلده فى الحرب وشجاعته ٠ وكثيرا ما كان يصفح عن أعدائه بينما كان عروج شديد التصلب فى الأحكام وقليل الحلم والرأفة ٠ وكانت آراء العلماء الذين يعتمد على أحكامهم خير الدين مبنية على كتاب الله وسنة رسوله فينفذها بحذافيرها رغم تعرضه فى بعض الأحيان حينما يرى فيها بعض القساوة ٠ ويحكى أن عددا هاما من الأسرى من أعيان الأسبان وعلى رأسهم جنرال راموا التمرد والفرار بعد قتل الحراس وذلك بمؤازرة اخوانهم فى الخارج فكشف خير الدين مؤامرتهم وأقام عليهم الحجة ٠ فحكم عليهم مجلس العلماء بالجزائر بالقتل فعرض على خير الدين وفد من العدو ٢٤٠ر٠٠٠ دينار أى ما يساوى مائة مليون الآن ٠ فكاد يغريه المال وأخذته الشفقة ٠ فطلب من المجلس العفو ، فتعرض وأبى الا أن ينفذ الحكم على هؤلاء ونفذه فعلا ولم يعارض العلماء ٠

كان خير الدين مربوعا غليظ البنية جسيما شيئا ما وضخم فى كبر سنه وكان جاحظ العينين ضعيف البصر ، ألثغ لكن لا يظهر

لثاغته وكان أشقر اللون كثيف اللحية وأشقرها . وكان يحسن عدة لغات منها اليونانية التى هى لغة آبائه والتركية والعربية وشيئا من البربرية والايطالية والأسبانية والفرنسية .

الادارة الجزائرية فى عهد عروج وخير الدين

كان عروج بعدما قضى على سالم التومى صاحب الجزائر قد بويع له بالملك فرتب الادارة وضرب النقود وأسس جيشا جزائريا واتخذ راية رسمية ذات ثلاثة ألوان الأخضر والأحمر والأصفر وقسم الايالة الى ولايات وفرض الزكوات وأسس بيت المال ونصب مجلسا للشورى عين له أعضاء من فقهاء وعلماء المدينة أخذ يستشيرهم فى الحكم وأحدث ديوانا بيده الحل والعقد فى أمور المسلمين وكان قد اكتسب خبرة لا بأس بها فى تدبير الحكم بفضل أسفاره واحتكاكه بالأمور واعتقاله بجزيرة رودس حيث تعلم كثيرا وبمصر وتونس وجزيرة جربة التى مارس الولاية بها وأحسن تدبير شؤون بلاد الجزائر الى أن استشهد . وكان قد ترك أخاه خير الدين بالجزائر ليدبر أمور الملك عند غيابه فاستمر خير الدين فى تسيير شؤون البلاد أحسن ما يرام وأبقى التنظيم على ما هو وكان الديوان يجتمع أربع مرات فى الأسبوع فى أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء . فتقام الأحكام وتصدر المقررات المهمة ويتقاضى الناس لديه أو لدى من نصب من طرفه من العلماء والوزراء والقضاة والقواد والكتاب .

وقسم خير الدين هو أيضا القطر الى أقسام سماها ولايات وسمى فى أول أمره أحمد بن القاضى واليا على الشرق ومحمد ابن علي على الجهة الغربية وهدأت البلاد مدة ثلاث سنوات

خير الدين بربروس الثاني

وكثرت الخيرات والسلع والمنتوجات الفلاحية واكتسبت الجزائر سمعة عظمى خشي السلطانان الحفصى والزيانى أن ينافسهما خير الدين بسبب علو شأنه عند رعيتهما . فأخذا يتجسسان عليه ويخلقان التشويش ويحرضان الواليين المذكورين على التمرد على الحكم . فنجحا فى سعيهما بحيث شقا عصا الطاعة وأحدثا الفوضى ، فعمت الفتنة الى حد أن خير الدين غادر الجزائر شبه مطرود بعدما احتلها أحمد ابن القاضى ونصب الادارة بها مدة ست سنوات . أما خير الدين فانه رجع الى جهاده فى البحر متخذا مدينة جيجل مركزا له اذ لا زال أهلها يبجلونه ويعظمونه ومكث هناك ست سنوات تقريبا استعملها كلها فى الاغارة على سواحل العدو الاسبانى والايطالى ومطاردة القراصنة الأفرنج سابيا المراكب ومؤسرا ركابها ثم رجع لمحاربة ابن القاضى الثائر عليه الذى خرج من الجزائر ليرده فقتله أهله بثنية بنى عائشة كما سنراه فيما بعد بتفصيل . فتصدى خير الدين لنظام الحكم واتخذ نهائيا الجزائر عاصمة للملك وسطر وفرض للايالة حدودا طبيعية تاريخية وهى حدود المغرب الأوسط أو موريطانيا القيصرية قديما وهى بلاد زناتة عند البربر . لا زالت تلك الحدود قائمة الى يومنا هذا الا بعض التعديلات شرقا وغربا ولم يتعدها هو وغيره ممن خلفه فى الحكم التركي واتخذ راية رسمية جزائرية بنفس الألوان التى اخترعها عروج فيما قبل أى الأخضر والأحمر والأصفر وقد فرضت الاستانة فيما بعد رايتها الحمراء .

وكانت الدولة الجزائرية عسكرية محضة مرتكزة على الجنود الكياشرة والرؤساء البحريين وكان الجند متمسكا بالمبادىء الاسلامية متميزا بشدة متابعة الشعائر الدينية .

وأسس خير الدين ونظم هذا الجيش وجعله نظاميا على شكل الجيش التركى • وكانت للجزائر وسيلتان لتجنيد الكياشرة كما سنشرحه فيما بعد •

وبعدما كان خير الدين مترددا فيما يخص الاستقرار بالجزائر لما لاقاه من المعارضة عزم أخيرا على التمسك بالحكم فى الجزائر بعدما طرد ابن القاضى من الجزائر وسعى فى قتله • فاستتب له الأمر وأعاد الأمن الى نصابه ورتب السياسة وسكنت الأمة بعد فترة الفوضى التى خلفها ابن القاضى وحسن قارة ورجع الناس الى تجارتهم ومعاملاتهم آمنين سالمين وعلا صيت خير الدين من جديد ورتق الفتق وعادت المياه الى مجراها • فتقوى الجيش والأسطول الذى فقده خير الدين منذ سنة ١٥٢١ بسبب الحرب الداخلية وعزم على ازالة تلك الدمالة التى كانت ناتئة فى ظهر الجزائر فاستعد لتكسير الصخرة الأسبانية وهيأ لها الأسطول والعدة والنفير ورتب المكائد واستعمل الحيل لمحاربتها بعدما وجه للمحتل الغاصب الأعذار والانذار ليستسلم بدون اراقة الدماء لكنه لم ينصت لكلام المشير المتبصر بل أصر فى عناده ورفض اخلاءالصخرة بصلح عازما على البقاء ظلما فى أرض ليست لهفتصدى له خير الدين وأخذ يدمر الحصون والأبراج حتى احتل الصخرة يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٥٢٩ ــ ١٣ رمضان ٩٣٥ ، بعد حرب شعواء وأسر العدد العديد من الأعداء من الجنود والضباط من جملتهم قائد الحصن الذى مات اثر جروحه بدون أن يعذب خلاف ما زعمه المؤرخون الأسبان ولم يكره على الاسلام كما قالوه كذبا (٦٥) •

---

(٦٥) وعن غزوات عروج حكم عليه بالاعدام مع من كان معه من طرف مجلس الشوري لانهم راموا التمرد وقتل الحراس بمعاونة ذويهم فى الخارج ، واراد الاسبان ان يفدوهم بالمال ورفض المجلس حتى نفذ الحكم .

الجيش الانكشارى التـركى
الجيش الجـزائرى

ومن أنقاض الصخرة بنى خير الدين مسجدا سمى باسمه ومرفأ وربط به الصخرة الى المرسى .

كانت هيئة القراصنة تحت امارة رؤسائها المكونين طائفة تدعى طائفة الرؤساء الذين كان يعبر عنهـا الأفرنج برئيس دى طايفـاس « Reys de Tayfas »

أما الجنود الذين كان أمير الجزائر يجندهم بتركيا فكانـوا يسمون الانكشاريين .

وقبل أن نتكلم عن الجيش الجزائرى فى عهد عروج وخيرالدين، رأينا من المفيد أن نعطى لمحة عن الجيش الانكشارى التركى الذى كان الجيش الجزائرى نسخة منه . والانكشاريون هم عسـاكـر مرتزقة من الأناضول ومن بلاد البلقان يتكلمون بالتركية ، ولـم تكن لهم علاقة بالأهالى سواء أكانوا عربا أو بربرا لكن الكثـير منهم كانوا عزابا يسمون بالتركية زبنطوط . وكانوا يكـونون حرس الداى أو الباى . ومنهم يرتقى الضباط من كل رتبة ، ومنهم يختار الوزراء والبايات والقواد والأغاوات وكـذلك الدايات . وكانت لهم رتب مثل رتب الجيش التـركى للخليفة من النفر الى القائد الأعلى أو الأغا ، اذ أن نظام الانكشاريين الجزائريين مقتبس

جنود انكشاريون في استراحة

من نظام الجيش العثمانى اذ ذاك لهم نفس المزايا والمنافع فهو يكون شبه ميليشيا واللفظ تركى مركب من «ينى» و « تشـارى » أى الجيش الجديد وقد كتبوا انكشارى وكان من حقهم أن يكتبـوا اللفظ هكذا « ينيتشارى » كما ترجمه الفرنسيون « Janissaire » وقال بعضهم الينشرية .

ونعلم أن هيئة الانكشارية التركية قد أسست على ما قيل سنة ١٣٦٢ م على يد السلطان مراد العثـمانى أو عن قول آخر على يد أبى يزيد سنة ١٣٨٩ وكانت مركبة من يلداش يستنفرون من بين الموالى المسيحيين البلقان والصقالبة المعتنقين للاسلام وغيرهم من أبناء الشهداء واليتامى المقطوعين عن عائلاتهم . وكان هذا الجيش يدرب أحسن تدريب على الحرب والنظام العسكرى والحراسة على السلطان العثمانى . وكانت مأموريتهم الرئيسية هى الحراسة. ثم وسع السلاطين مجال هذا الجيش الذى أخذ يتقوى حتى أصبح يفتح البلدان والنواحى والأقطار بفضل شجـاعته وتجلده عـلى الحرب تحت راية الاسلام الذى كان ينشره فى فتوحاته حتى أدرك فيينا عاصمة النمسا فى عهد سليمان القانونى وكان هـذا الجيش التركى متفوقا من حيث النظام ونوع السلاح واستعماله له ضد العساكر المتوحشة الأوروبية التى لم يكن لها ترتيب فى العصـور الوسطى وكانت للجيش راية حمراء مصور فيها سيف ذو شفرتين وهـلال .

وكان سلاح الانكشارى السيف المقـوس والخنجر المدعـو اليطغان والرمح والقوس الى أن سلح بالبندقية النارية والمدفـع فى عهد سليم وسليمان . وكان شعار الجيش القـدر الذى كـان

يجتمع حوله للتغذية وفى سهراته واجتماعاته ونقاشه فى أمور الجيش . وللجيش رتب عسكرية وهى :

اليولداشى الذى هو الجندى الصغير أو البسيط يتصف بها عندما ينخرط فى « الورطة » .

ثم يرتقى الى رتبة اسكى يلداش أو اليولدا باشي الذى يرأس من ستة عشر الى عشرين جنديا وهو رئيس الخباء .

ثم الأضباشى أى الملازم ، ثم البولوكباشى وهو المقدم .

ثم الأغاباشى وهو العقيد ونائبه الكاهية ، ثم الأغا وهو القائد الأعلى للجيش وخليفة أمير اللواء أو أمير الاى .

وهناك رتب أخرى كالشاوش أى الملازم الأول والبيكرلار وهو الطباخ الذى كانوا يقدرونه ووكيل حرجي الذى كان ضابط الادارة . ولكل فرقة كاتب يدعى خوجة .

والشاوش أو الزاوش هو المسخر الذى كان يحمل الرسائل ويكلف بالمهمات ، يدعى فاقميستر بالألمانية Vaguemestre وقد بقى الاسم عندنا يطلق على الحارس .

وكان بين الجنود على اختلاف رتبهم التساوى المطلق . وكان الانكشاريون يقيمون فى الثكنات تدعى القشلات حيث كانت لهم حجرات بها يأخذون فيها طعامهم اليومى والأجرة نصف الشهرية . وكانوا يعملون ثلاث سنوات . فالسنة الأولى يقيمونها فى الثكنات وفى التدريب فى وسط المدينة حيث يجرون الحراسة والمحافظة على الأمن والخدمة العسكرية القارة والسباحة والممارسة على السلاح والرماية وغير ذلك من المناورات السلمية .

وفى السنة الثانية كانوا يخرجون الى الحرب أو استيفاء الضرائب واخماد نار الفتن وميدان الكفاح فى داخل البلاد أو خارجها وربما يخرجون مع الأسطول لمحاربة العدو .

أما السنة الثالثة فهى سنة الاستراحة يخولون أثناءها الحرية التامة فيذهبون أين يشاءون ولا يلزمون بأى خدمة عسكرية كانت حتى تنتهى سنة العطلة .

واذا حرر الجندى من الخدمة العسكرية وكان له استعداد للعمل فى المهمات المدنية فينخرط فى الادارة .

وعلى هذا النظام كان الجيش الانكشارى الجزائرى قائما أيضا . كان يقلده تماما فى الشادة والقادة وكانت للجنود امتيازات هى اعفاؤهم من الضرائب والخدمات العمومية . ولا يعاقبون أمام العموم وكانت رواتبهم باهظة مع المنافع المادية المختلفة التى كانوا يتمتعون بها مثل المؤونة من الخبز واللحم والسمن والزيت وغير ذلك .

وكانت بين هيئة الجيش الجزائرى الانكشارى وطائفة الرؤساء خلافات عنيفة سببها مسألة الأموال التى كان يأخذها القراصنة من الفيء .

وكان الجنود الجزائريون يحرصون كل الحرص على أن تكون معاملاتهم مثل معاملات الجيش التركى لأنهم كانوا يقدمون الى الجزائر على شرط التمتع بنفس المنافع المخولة للجيش التركى .

نعم لم تكن للقراصنة رواتب انما كانوا يأخذون ما ينوبهم من الفيء الذى كانوا يغنمونه فى البحر . وما داموا لم يخرجوا الى الغزو لم يكونوا يتقاضون أجرة من الداى ولا الباى ولا من بيت

المال ، بل كانوا يسولون بيت المال بخمس الفيء والأعشار التى كان يترتب بها الجيش الانكشارى وهو يأخذ راتبه من يد الباى أو الداى من الوجاق أى بيت المال • وكان اليولداش وهو اسم العساكر مسيطرين على الحكام وعلا شأنهم فى بعض الأحيان حتى أخذوا يخلعون الداى ويبايعون لخلفه وطلبوا بالحاح أن يخرجوا هم أيضا الى البحر مثل القراصنة لأن الحرفة كانت تدر لصاحبها أرباحا طائلة لا نسبة بينها وبين أجرة اليولداش • وزيادة على ذلك كان القراصنة ينتقلون بدون عوض داخل البلاد لاستيفاء الزكوات من الأعراب • أما الجند فكان يتحمل هذه المشاق بعوض بحيث بقى الخلاف قائما منذ أخذ خير الدين زمام الحكم من يد الخليفة العثمانى الذى وجه اليه أول فرقة من الانكشارية بعد موت عروج • فرتبها أحسن ترتيب على النظام التركي ومهد بها البلاد • واقتفى أثره خلفه حسن الذى وسع الجند ونظمه أيضا على غرار الجند العثمانى •

وبينما كان الرؤساء والقراصنة يجندون من الأجانب أى الأتراك والمسيحيين المعتنقين للاسلام ومن العرب والبربر الجزائريين وأهل الأندلس واليهود الاسلاميين ، كان الجيش الانكشارى يوجه أنفاره السلطان العثمانى كلما طلب ذلك الداى • فيكتبهم الخليفة من بين المتطوعين • وكثيرا ما كان النصارى المسبيون فى البحر يعتنقون الاسلام ويجندون اما فى القرصنة واما فى الجيش الانكشارى • وكان يطلق عليهم لفظ العلج ، والكثير منهم كانوا يرتقون الى أعلى رتبة فى الجيش وفى البحرية وفى الادارة وحتى الى الامارة • فكانوا يعدون كأتراك • وكثيرا ما تجد من بينهم من أدرك رتبة الباى أو الداى أو الباشا • أما العرب والبربر فلم يكن لهم ذلك الشرف • والمعتنقون الاسلام

من اليهود كانوا يعتبرون كعرب من طبقة أقل من الأتراك وكانوا لا يشغلون المناصب العليا كالداى والباى والباشا • وكثيرا ماكانوا يلقبون باسم اسلامى ويتخذون لهم اسم عبد الله وينتسبون لمن أسلموا على يده • والسبب فى هذا الميز هو أن كثيرا من الانكشاريين والقراصنة من الغلمان أصلهم مسيحيون فأسلموا • فكانوا بطبيعة الحال يعطفون على من أسلم من المسيحيين وتجند فى الجيش البرى والبحرى وهم أبناء جلدتهم وجلهم كانوا من كرسيقا وفينيسيا وسردينيا وغيرها •

كان كلما احتاج الداى الى الجنود الأتراك يوجه الى الاستانة سفنا بقيادة رئيس البحر • فيأمر الخليفة ولاته بتجنيد من يتطوع للخدمة العسكرية فى الجزائر • فكانوا يجرون الدعاية الواسعة فى السواحل • فيجتمع المتطوعون من الطبقة البسيطة • ويجرى التجنيد لزوما بموافقة الخليفة ولا يكتب أحد بدون اذنه ، وكان سفر السفن الجزائرية الى السواحل التركية كل خمس سنوات الا فى الأحوال الاستثنائية المستعجلة عندما تكون الجزائر فى حالة حرب مع العدو الأجنبى وتحتاج الى الجنود الأتراك بصفة أكيدة •

ومما يلفت النظر هو أن هؤلاء الجنود كانوا ممن يتعاطون الحرف اليدوية جلهم أميون الا القليل منهم • ولما كانوا يرتقون الى الرتب العسكرية العليا ، كانوا يفتخرون بنسبهم وبتركيتهم ويعتبرون أنفسهم من جنس أشرف من العرب والبربر الذين كانوا ينظرون اليهم بعين الاستخفاف • واذا تزوج أحدهم بعربية أو بربرية سمي ولده قلغليا أو قرغليا أى ابن الأجنبية ويعتبر كتركى ناقص كالحر الثانى عند العرب • هؤلاء هم الذين يكونون فى

الجزائر الآن العائلات التى تنتسب الى أصل تركي ف الجزائر العاصمة والبليدة والمدية وشرشال وقسنطينة وتلمسان ووهران ومعسكر ومستغانم ٠

وتوجد ف الجزائر عائلات يسرى ف عروقها دم تركى تحمل أسماء تركية مثل الكشايرى والسطنبولى وقلايجي ودواجى ودمرجى وطبجى وقارة وآغا وباشا وباش تارزى وزميرلي وكراكجي الخ ٠٠

كانت الطائفة الانكشارية قوية جدا يبالغ أعضاؤها ف التضامن المفرط الى حد أنه اذا عوقب أحدهم ظلما أو شبه لهم ذلك فيتمردون على السلطة المركزية ٠ وكانوا لا يرضون أدنى سوء لأحدهم وهم يفتخرون بجنديتهم رغم أن حرفهم الأصلية كانت ف غالب الأحيان الحدادة وصناعة الأحذية والنجارة وغيرها ٠ واذا ارتكب أحدهم خطأ فلا يحاكم أمام القاضى بل أمام الآغا أو كاهيته أى خليفته أو قاضى الجيش الذى كان مختصا بهم يطبق عليهم الشريعة الاسلامية الا الحدود ولا يقبلون قط الاقتصاص منهم كقطع اليد مثلا وغير ذلك (٦٦) وربما يتمردون على السلطة المركزية ان وقع تأخير ف دفع رواتبهم أو أحسوا بسوء معاملة الوجاق نحوهم ، فأحدثوا القلاقل وتآمروا وكبوا قدورهم تعبيرا على سخطهم وغضبهم ٠ وكثيرا ما كانوا يهجمون على قصر الداى ويعزلونه أو يقتلونه ويعينون من يخلفه منهم أو ممن جاد عليهم

---

(٦٦) الاب دان ص ٩٨

بالأموال والهدايا . وكان الداى عرضة دائما لفظاظتهم وعنفهم .
وقد كان قصر الداى فى الجنينة فى أسفل مدينة الجزائر منذ بداية الأمر كان يسهل على الانكشاريين احتلاله كلما ثقوا على الحكم . لكن حول مركز الديوان الى أعلى القصبة فأصبح الداى مشرفا على الثكنات الانكشارية التى أصبحت تحت رحمة مدافعه .

ربط الاتصال الرسمى بين أمراء الجزائر والخليفة العثمانى

لم يكن يوجد اتصال بالبتة بين عروج وخير الدين من جهة ، وبين السلطان العثمانى من جهة أخرى فى أول أمرهما . والمرة الأولى التى اتصلا بالباب العالى كانت فى سنة ١٥١٥ لما رجعا من غزو فى البحر مظفرين غانمين فبعثا الى السلطان سليم بهدية قال عنها صاحب غزوات عروج وخير الدين ما نصه :

« ثم أن خير الدين وأخاه عروجا صنعا هدية عظيمة من نفائس الأموال التى غنماها من الكفار ووجهاها الى السلطان الأعظم سليم ابن محمد ووجها لكل واحد من وزرائه وخاصته هدية على قدره صحبة محيى الدين رئيس وهو من الأعيان التونسيين . فوصل بالهدية الى حضرة اسلام بول . فاستحسن السلطان وخاصته هذه الهدية وبالغوا فى الثناء على خير الدين وأخيه عروج ودعوا لهما بالتأييد والنصر على أعداء الله الكفرة وأجابهما السلطان بكتاب ضمنه الدعاء لهما والشكر على هديتهما ووجه اليهما صحبة محيى الدين رئيس بجفنين بسجاذيفهما وشحنهما برجال البحر العارفين بأحوال سفره مكافأة على هديتهما » (٦٧)

ونرى أن هذه أول فرقة من الجنود الأتراك وجهت رسميا من طرف السلطان العثمانى مع أن ذلك كان تشجيعا للاخوين على

---

(٦٧) غزوات عروج ص ٢٤

الاغارة فى البحر لا كسئلين رسميين للسلطان . ولما ضعفت شوكة الأسبان فى البحر المتوسط وفى الشواطىء أراد خير الدين أن يرجع الى المشرق ليحارب أعداء الأتراك . فجمع جمعا من الأعيان الجزائريين وخطب فيهم قائلا لهم :

« وقد عزمت على السفر الى حضرة السلطان وآمنت الآن على بلادكم لما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين وقد وصل اليكم من أهل الأندلس عدد كثير (٦٨) وعندكم من السلاح والعدة ما تقومون به بأمر الجهاد وانى لما قدمت اليكم لم يكن لديكم مدفع واحد . والآن قد تحصل بأيديكم ما خلفه العدو وهو أكثر من ٤٠٠ مدفع . فاختاروا من تقدمونه أميرا » (٦٩) فولى على الناحية الشرقية أحمد بن القاضى عينه أميرا على القبائل الكبرى بجبال الجرجرة سمى سلطان كوكو . وفى الناحية الغربية عين محمدا بن على وزاد قائلا لهم : « ان عرض لكم شيىء فشاوروا علماءكم وصلحاءكم وهذين الرجلين » (٧٠) وعزم على مغادرة الجزائر نهائيا لما لاقاه من التعرض والدسائس من طرف السلطانين الزيانى والحفصى غير أن الجماعة صاحت صيحة رجل واحد وطلبت منه أن يمكث عندهم . فتوسط العلماء وأكثروا عليه بالتضرع والالحاح لأنهم خافوا على أنفسهم من نهوض الأسبان الذين كانوا يترقبون الفرصة وكانوا لهم بالمرصاد فى حصن أرخيل أمامهم يتجسسون عليهم ويحصون حركاتهم وسكناتهم مع أنهم لم يستطيعوا أن يتحركوا خوفا من خير الدين .

---

(٦٨) » » ص ١٨ و ٢٥

(٦٩) » » ص ٤١

(٧٠) يقال انه حمل فى سفنه ما يزيد على ٧٠٠٠٠ اندلسي من غرناطة فقط فى سبعة أسفار كان يتجرا على القرى الداخلية ولا يبالي .

فقبل خير الدين أن يبقى بشرط أن يكتبوا بأنفسهم الى السلطان العثماني ليعبروا له عن طاعتهم وأن يخطبوا ويضربوا السكة باسمه ويدعو له فى صلواتهم ، فقبلوا شروطه . وقد أراد فى الحقيقة دعم سلطته على الباب العالى (٧١) ليكون حكمه شرعيا ازاء الشعب والسلاطين الذين كانوا يحتجون عليه بعدم مشروعية حكمه . لقد اتهم المؤرخون الأفرنج خير الدين بتدبير هذه الوسيلة ليثبته أهل الجزائر فى امارة الجزائر . حقا كانت حالته ووضعيته أمام المشاكل التى لا زال السلاطين والأشياخ والعدو يحدثونها له فى ضيق وحرج ، فرأى من المستحسن أن ينسحب من الجزائر ويلجأ الى جيجل ويستمر فى جهاده ، لكنه تعرض له أهل الجزائر حتى عدل عن عزمه . وقال صاحب غزوات عروج وخير الدين ما نصه : « وكتبوا (أى أهل الجزائر) كتابا كما أمرهم وكتب هو كتابا آخر وعين أربعة أجفان برسم السفر الى حضرة السلطان وقدم عليهم رجلا من خواص أصحابه اسمه الحاج حسين ووجه صحبته هدية عظيمة . فسافرت السفن وقابل السلطان الوفد»(٧٢) وعند رجوعهم أعطاهم السلطان سفنا وكتابا لأهل الجزائر بقبول ما كتبوا اليه وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته . فأصبح خير الدين أميرا رسميا على الجزائر وما والاها وواليا من قبل السلطان سليم . لكن لم يستقم له الأمر رغما عن ذلك لأغراض شخصية خصوصا من جراء فساد نية السلطان الزياني والحفصى .

---

(٧١) كانت تسمى الحكومة العثمانية بالباب العالي سماه الافرنج sublime ports يسميه الاتراك توب كابي كما كانت الحكومة المغربية تسمى الاعتاب الشريفة أو المخزن السعد وبالجزائر الوجاق والجزائر المحروسة .

(٧٢) ص ٤٢

فاغرى كلاهما أشخاصا لينهضوا على حكم خير الدين ويعكروا عليه الجو . ففي الشرق تمرد أحمد بن القاضى وشق عصا الطاعة ونعلم كما سبق أنه نصب من طرف خير الدين وأحدث قلاقل وحروبا دارت رحاها فى وسط الأهالى الذين فتكت فيهم فتكا ذريعا .

أما الزيانيون فاخضعهم خير الدين وأكره ملكهم مولاى عبد الله على مبايعة السلطان العثمانى وقول الخطبة باسمه والدعاء له لكنه ما برح حتى نكث العهد . وكثيرا ما كان يتصالح مع خير الدين ويخون العهد بحيث أصبح هذا لا يثق بوعوده وطاعته للحكم لأنه ما تكاد تنفرج عنه وطأة الأسبان أو تضيق رعيته ، أو يفشل مدع للملك الا ونكث العهد حتى قال عنه خير الدين أنه لا يحسب عدد المرات التى خان فيها عهوده وما زال متعرضا لتلك التصرفات حتى تغلب ابن القاضى على الجزائر ودخلها وأرغم خير الدين على مغادرتها .

احمد بن القاضى

كان أحمد بن القاضى الغبرينى المدعو بوقطاش من الرجال الجزائريين السياسيين والعلماء ورجال الحرب عند ظهور الأتراك .

كان فى أول الأمر قاضيا على بجاية عن الحفصيين قبل أن يحتلها الأسبان . ولما استولوا عليها خرج منها فعينه السلطان الحفصي واليا على عنابة وأمره اذ ذاك أن يمد يد المساعدة لعروج عند حصاره الميناء . ثم انتقل الى بلاد القبائل الكبرى حيث أسس أمارة سنة ١٥١١ وجعل مقره بقرية قرب أربعاء نايت ايراثن بقبيلة آيت يحيى تدعى آورير أى الذروة وهى تشرف على وادى سباو ببلاد زواوة . ومن ثم انتقل الى قرية كوكو التى اتخذها عاصمة له وهى واقعة على ثمانية كيلومترات من عين الحمام بقبيلة آيت يحيى .

وكان أحمد بن القاضى من الفقهاء الفطاحل عرفه ابن عسكر معاصره وأثنى عليه فى ترجمة خصصها له قال فيها عنه : «أبو العباس أحمد ابن القاضى الشيخ الصالح المتصوف العالم بوظائف التشريع والمصالح ، أحد أنصار هذا الدين واية المهتدين أبو العباس أحمد بن القاضى الزواوى ، وكان من الفضلاء الأخيار والصلحاء الأبرار مجتهدا باذلا نفسه وماله فى اقامة شرائع الدين

ولمزا فى أعداء الله الكافرين . وقد تقدم قول سيدى أبي محمد المبطى فيه فى ترجمة الشيخ سعيد بن عبد المنعم ولم يزل رحمه الله متأيدا على السيرة النبوية الى أن كان من أمره مع خير الدين التركمانى بمدينة الجزائر واستيلائه عليها وعلى المغرب الأوسط الآن . فحسن ظنه بهم وصحبته فى الجهاد فى سبيل الله . وبعد ذلك شكر له شأن رئاسته وقتلوه شهيدا رحمه الله فى العشرة الثالثة والله أعلم . » (٧٣)

كان فى أول أمره مصاحبا دائما لعروج فى حصار بجاية وفى حروبه المظفرة ضد حسن قارة المرابط بشرشال وحارب معه صاحب تنس حميد العبد وحضر حصار تلمسان سنة ١٥١٨ . وخرج مع عروج الى المغرب الأقصى فرارا من كثرة العدو الأسبانى وجيوش أبى حمو الزيانى . لكنه بعد استشهاد عروج نجا بنفسه ورجع الى الجزائر ولم تعرف ظروف هذه النجاة ووضع نفسه رهن اشارة خير الدين الذى أثبته فى ولاية الشرق الجزائرى بعد ما قسم الحكم الى قسمين الشرقى والغربى عند مغادرته الأولى للجزائر .

انما الأمر الذى يلاحظ هنا هو أنه لما أثبته خير الدين فى الحكم ساء ذلك على عبد العزيز سلطان بنى عباس الذى كان عدوا له والذى أصبح تحت حكمه ونفوذه وسيطرته . فشق العصا ولم يرض بالخضوع لعدوه . فبايع لسلطان تونس الحفصي الذى ما زال يتجسس ويحيك الدسائس ويحرض ابن القاضي حتى نقض هذا بيعة خير الدين وبايع للسلطان الحفصى الذى جعله أميرا

---

(٧٣) عن المخطوط المودع بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم ٢١٣٦

على الجزائر . وكان الحفصي يخشى استقرار الحكم التركي بالمغرب الأوسط ويمتد على المغرب الأدنى وحاول خير الدين اخماد ثورة ابن القاضي الذي فشى أمره وجمع جيوشا هامة توجه بها الى الجزائر . فحاصرها وضيق على خير الدين الذي كان له ولي اسمه قارة حسن يخدمه خدمة المطيع لكنه وقع بينهما خلاف أدى بخير الدين الى زجه في السجن . ولما رأى نفسه في ضيق من حصار ابن القاضي أطلق سراح قارة حسن ليحارب جيوش ابن القاضي لما كان يعلم فيه من الحزم والعزم وقوة الشكيمة الا أن قارة حسن بقي حاقدا على سيده ولم ينس سوء معاملته . فوجد الفرصة للانتقام . فوجه له رسالة شديدة اللهجة والتحق بابن القاضي . فاتفق المتمردان على متابعة الحرب واحتلال الجزائر . وفعلا دخلا المدينة التي أخلاها خير الدين وفر هاربا نحو جيجل اذ غدر به جل جنوده . فعمر خمس سفن شحنهما بالمال والذهب والفضة وذلك في سنة ١٥٢١ وأبحر نحو جيجل .

فأخذ ابن القاضي زمام الحكم بالجزائر ونصب الادارة وساس البلاد ودام حكمه على ما يظهر ست سنين الى سنة ١٥٢٧ تاريخ قتله كما سنشرحه وخلفه أخوه الحسين الذي كان طائعا للاتراك ولا سيما بعد زواج حسن بن خير الدين باحدى بناته .

أما خير الدين فانه حط أثقاله بجيجل وبجزيرة جربة وأخذ يتردد على المرسيين ويخرج الى البحر غازيا العدو المسيحي ويسبي ويغنم الغنائم في الشواطىء الأسبانية بمساعدة الأتراك وأهل الأندلس والمسيحيين المعتنقين الاسلام . وحاصر عنابة لكنه لم يحتلها . ولا زال يغزو المدن الساحلية الأسبانية والايطالية حتى جمع عددا من السفن ليتوجه بها الى الجزائر اذ كان عزمه

الوحيد استرجاع المدينة وتكوين جيش وأسطول جديدين نظاميين • واستعان برئيس يدعى طرغد« Dragut »وهو من القراصنة الصناديد الذى سيأتى ذكره ، وكوطيرس « Guttierez » (٧٤) وسينان باشا المدعو اليهودى (٧٥) • فحاصر الجزائر وضيق على ابن القاضى • فأخرجه منها • فتوجه ابن القاضى الى ثنية بني عائشة ببلاد القبائل • وبينما كان مرابطا بها قتله اخوته ليستريحوا من الفتنة والتفرقة • وربما كان ذلك باغراء من خير الدين وتدبيره •

وكان موقف الحسين ابن القاضى أخ أحمد من هجوم أسطول شارل الخامس على الجزائر غير مشرف ، اذ أنه جاء بعدده وعدته الى تامندفوست لاعانة الأسبان ضاربا حسن آغا من الخلف ، لكنه لما رأى انهزام (ارمادة) شارل الخامس فر هاربا الى بلده •

وعلى كل حال فان موقف أحمد بن القاضى كان دائما غامضا غير واضح ، الأمر الذى يجعل المؤرخ حائرا ، تارة يحكم عليه حكما قاسيا وتارة يعطف عليه • فانه خطا خطوات غيرمشرفةفىعدة مناسبات منها تمرده على الحكم وشقه العصا واستيلاؤه على الجزائر مدة ست سنوات بعد استنجاده بالجيوش الأسبانية •

وقد اتهمه بعض المؤرخين بخيانة عروج كما تقدم •

نعم أثنى عليه ابن عسكر فى كتابه دوحة الناشر ونوه بعلمه وفقهه وورعه لكننا نعلم أن ابن عسكر كان حليف البرتغال وكان ممن هلكوا فى صفوفه فى معركة الملوك الثلاثة بوادى المخازن سنة

---

(٧٤) اصبح هذا الاسم اسم عالم اسباني

(٧٥) يسميه الاسبان (خوديو) . لم يكن يهوديا انما سموه كذلك نكاية له لانه كان يقهرهم ويذيقهم مرارة وطأته .

١٥٧٨ فى حزب محمد المسلوخ السعدى المؤيد من جانب دون سياستيان البرتغالي والله أعلم .

وهنا تظهر جليا مسؤولية المؤرخ الثقيلة أمام تضارب الأخبار وتناقضها .

وقد قارنه ابن عسكر بالعالم الفقيه أبي عثمان سعيد بن عبد النعيم الحيحي قائلا : « قال أبو محمد الهبطى يوما وكان يتكلم على الارادة ومقامها والسيرة النبوية وما رأيت فيمن أدركت من المشايخ من كان على مقام الجادة وجاء بالتربية النبوية على أصلها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الا رجلين : الشيخ سعيد بن عبد النعيم فى حاحة والشيخ أحمد بن القاضي بجبل زواوة وكانا فى عصر واحد .. وكفى بهذه الشهادة .. » (٧٨)

---

(٧٦) دوحة الناشر عن المخطوط والترجمة بالفرنسية ص ١٧٧

طـرغـد

هو من أشهر القراصنة فى عهد خير الدين وحسن آغا أعانهما احسن المعاونة فى حروبهما ، أصله من جزيرة رودس ، كان أبـوه فلاحا وكبر وهو يرعى الغنم حتى مر يـوما بالقرية رجل مدفعي فى الجيش التركي . فتفرس فيه النجابة والذكاء . فطلب أباه أن يسلمه له ليربيه على أمور الحرب . فأتى به الى القـاهرة ثم الى الاسكندرية حيث جند كبحار فى سفينة قرصنـة الى أن تعـرف بخير الدين الذى استخدمه فى سفنـه فاكتسـب بها خبرة مـع شجاعته ودهائه . فاتخذه بفضلهما رئيسا لاحدى سفنه الحربية . وكان شجاعا مقداما لا يخاف الحروب ولا هيجان البحر ولا قوة العدو وتفوقه فى البر والبحر بل كان يتجرأ عندما يرى الخطـر . ويعتبر من أبرع تلاميذ خير الدين . فان عـزة النفس والطـموح جعلاه يبغى الرقى والسلطة والرئاسة . واذ رأى خير الدين فيـه تلك الخصال أسند اليه رئاسة أسطول وتركه يعثى فى سواحـل البلاد المسيحية العدوة فدوخ البـلاد المجاورة للبحـر المتوسط وخصوصا منها أسبانيا وصقلية وايطاليا متخذا جزيرة جربة قاعدة له . فحط فيها أثقاله وأخذ يلجأ اليها عند رجـوعه من الحروب البحرية التى جعلت أندريا دوريا يقلق من عتوه وشر بأسه فتفرغ له وعزم على وضع حد لهجومه على الجزر الغربية للبحر المتوسط التى كان دوريا يعتبر نفسه سيدا عليها وأميرا وأحس أن طـرغد

من الأعداء الذين يحسب لهم حساب ويستعد لهم • فأخذ حذره وتابعه حتى أخذ سفينته أثناء حرب بحرية عنيفة سنة ١٥٤٣ جرت قرب مرسى كالفي بجزيرة قرسيكة فوضعت عليه الأكبال وعومل معاملة الأسرى والعبيد بدون شفقة ولا رحمة • فمر به ذات يوم باريزو دى لافيت عظيم فرسان مالطة أتى لينظره ويتشفى فيه اذ سبق له أن كان أسيرا بالجزائر فقال له : « سيدى طرغد هكذا تدور رحى الحرب » « Senor Dragut Usanza Di Guerra » فأجابه طرغد فى الحين بكل أنانية وعزة النفس (٧٧) « هكذا يدور الحظ » أى يوم لك ويوم عليك •
« y mudenza de fortuna »

والحال أنه وعد نفسه بالانتقام لما كان يعامل به من عنف فى أسره حيث كان يقذف فى سفن العدو • وحاول خير الدين اعتاقه وبذل قصارى جهوده فى ذلك حتى وجد جنويا اسمه لوميلى « Lomelli » طلب منه التوسط لدى ابن أخ دوريا (٧٨) ففداه بثلاثة آلاف دوقا أى ليرة ذهبية ايطالية مقابل تسليم خير الدين للجنوى جزيرة تابرقة مجازاة له فعتق بعد أربع سنوات من الأسر (٧٩) وبمجرد ما ملك حريته أخذ يجوب البحار ويحارب بعنف وبشدة أساطيل العدو ويسبى ويؤسر ويقتل الأعداء تحت امارة خير الدين وحسن آغا ويعين السلطان العثمانى على محاربة أعدائه شارل الخامس وابنه فيليب الثانى • فجهز أربعا وعشرين

---

(٧٧) هذا نموذج الرطانة التى كان القرصان يتكلمون بها وهى خليط من الاسبانية والايطالية والفرنسية .

(٧٨) يوحنا دوريا الذى تولى محاربته والقبض عليه واخذ له ثلاث عشر سفينة

(٧٩) هايدو ص ٢٢٥

سفينة أخذ يحرق بها ويدمر شواطىء الكلابر ونابل والسواحى الأخرى الايطالية غيظا وانتقاما . فترك جزيرة جربة واتخذ المهدية مركزا له كان يسميها الأفرنج « أفريكا » فاستعمله اذ ذاك السلطان سليمان فى الحروب وخوله منصبا هاما فى الأسطول العثماني . وكانت وطأته جريئة بحيث فر مرة أمامه اندريا دوريا رغم قوته . وقد انتزع طرابلس من يد فرسان مالطة وانفرد بالحكم بها تحت طاعة الباب العالى . وشارك فى محاربة نائب الملك بصقلية الدوق مدينة سيلي سنة ١٥٦٠ وشاهد انهزامه الشنيع . ولما رجع أسطول السلطان استأسد عليه دوريا وتبعه لينتقم منه فلحقه الى مرسى المهدية الذى كان عاملا عليه . فحاصره فيها دوريا بأسطول هائل كاد طرغد أن يهزم وكانت سفنه كلها تحت رحمة عدوه الذى كان يترقب استسلامه من حين لآخر ظانا أنه أتى أوان القضاء عليه القضاء المبرم وقتله والاستراحة من شره واراحة المسيحية من أعماله ، اذ أن النصارى أخذوا عليه تسريحه سيما كان تحت ملكه يفعل به ما يشاء كما قال هايدو عنه : « فقد سرح طرغد بفدية كلفت المسيحية ثمنا غاليا » (٨٠)

وبينما كان الحصار مضروبا على ميناء المهدية اذ فكر طرغد فى مكيدة لا تخطر ببال المهندسين الماهرين وهى أنه أخرج سفنه كلها على طريق البر بعد ما بسط لها المرور الذى غشاه بالخشب المطلي بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة . ثم جرها بالحبال وأخرجها بسلامة الى البحر حتى أبحرت . وبينما كان دوريا ينتظر استسلام طرغد اذ رأى نفسه محاصرا مطوقا من كل جهة بأسطول عدوه . فهزمت سفنه ورفع الحصار وفر هاربا خجلا مذموما فى

(٨٠) هايدو المجلة الافريقية عام ١٨٨٠ ص ٢٢٥

أعين جنوده ولم يشاهد فى عمره خديعة فى الحرب مثل تلك وجرت هذه الواقعة فى شهر مارس سنة ١٥٥٠ .

ولازال طرغد ينتصر على أعداء المسلمين ومن أشهر الحروب التى انهزم فيها العدو قرب جزيرة جربة ضد فيليب الثانى ولد شارل الخامس سنة ١٥٦٠ أن الملك فيليب بن شارل الخامس هو أيضا قسم بأخذ الثأر من طرغد وأمر أسطوله بمتابعته أينما كان . وفى تلك السنة بينما خرج فيليب بنفسه الى البحر ليبحث عنه ويقضي عليه اذ أعامه هنرى الثانى بن فرانسوا الأول أن يأخذ حذره من عدوه لأن هنرى الثانى كان متحالفا كأبيه مع الأتراك والجزائريين ضد الأسبان . ثم حاصر مالطة حيث جرح واستشهد يوم ١٦ يونيو سنة ١٥٦٥ بعد ما رفع عاليا راية الجزائر والاستانة ويعد من الرجال الصناديد الذين خلدوا ذكرى الجزائر وجعلوا أعداءها يرتعدون لصيتها .

أندريا دى أوريا

كان بحريا جنويا شهيرا بعيد الصيت فى البحار والأقطار الأوروبية والعربية . كان فى الحقيقة أكبر منافس لعروج وخير الدين فى البحر الأبيض المتوسط (٨١) ولد بجنوة اسمه أندريا دى أوريا» Andrea de Auria «وسمى فيما بعد دوريا بالتلخيص ولد بأونيقاليا فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٤٦٨ كان أكبر من عروج بخمس سنوات وعاش ٩٢ سنة .

كان أبوه رئيس جيش البابا اينوسانت الثامن . ومات وترك ولده بدون ولي . ولما كبر الغلام دخل الجيش وحارب فى جيوش

---

(٨١) جوليان دولاقرافيير دوريا وبربروس ص ١٣٢

فرديناند الأول والفونس الثانى ملكى أسبانيا . فـذاق حـلاوة البحر وأسفاره وحروبه ومغامراته ، أظهر فيها فى الحقيقة الشجاعة والاقدام المفرطين من نوع عروج . وفى سنة ١٥٠٥ سلح ثمـانى سفن حربية على نفقته وأخذ يحارب الفرنسيـين ليخـرجهم من جزيرته لكن قربه اليه فرانسوا الأول وأسند اليه قيادة أسطـوله وأخذ يتردد على قصره الما سئم من تصرفات حاشية الملك . فوجه اليه ملاحظاته عليهم الا أنه لم ينه الملك حشمه ، فحدث الخـلاف بينه وبين دوريا . فعزم الملك على القبض عليه وسجنـه ، فأخبر بالمؤامرة ، ففر ولجأ الى شارل الخامس الذى أبرم معاهدة معه . فعينه على رأس الارمادة الأسبانية ، فنزع من سفنه شعار الملكية الفرنسية « زهرة الزنبق » (fleur de lys) وخلفها بشعار الامبراطـور وهو « أعلى فأعلى » (plus ultra) وأخذ شارل يستعمله ضد عدويه اللدودين فرانسوا الأول وسليمان الخليفة العثمانى .

فسمع اذ ذاك بصيت عروج يصعد صعودا وينتشر فى أرجـاء العالم البحرى وبأوروبا وخصوصا فى ايطاليا وأسبانيا .

ولأول مرة حارب الأسطول التركي بيبانوسا وشتته ثم انتقم عروج منه وقضى على أسطول جنوة . لكن أراد أندريا أن يأخـذ بالثأر ، فخرج من جنوة فى ١٩ سفينة بمعاونة أسقف بارى جابريال مرينو Merino . فدخل بها الى مرسى حلق الـوادى بتونس وأحرق أسطول عروج بل تجرأ على النزول الى اليابسة وأحرق قشلة عروج وأصبح من ذلك الزمان شخصان بارزان فى البحر : عروج وأندريا دون غيرهما . ولما مات عروج خلفه أخوه خير الدين فى محاربة عدوهما اللدود لكن فاق خير الدين أخاه فى متابعة العدو الى أن كسره وجعله يخشى الملاقاة معه . وكان أندريا كلما سمع

بخير الدين قد غادر القطر الجزائرى تعدى على احدى مدن الجزائر • وهكذا لما كان خير الدين غائبا سنة ١٥٣٠ احتل دوريا مدينة شرشال ونهبها ودمر أسوارها وأخذ الأسرى المسيحيين الذين وجدهم هناك ، لكن انتصار دوريا لم يكن مرضيا لمعارضة أهل المدينة الذين كانوا قد أخفوا الأسرى ولكي لا يحضر أمام الامبراطور بخفى حنين حمل معه ١٢٠٠ أسير مسحي •

كان أندريا عالما بأمور البحر فدققها تدقيقا فى عدة تآليف منها كتاب المناخ الدائم للحاخام ابراهيم بن سموئيل زقوط وكتب طورياس وجاك فيرير والفونس دى سوسة وبيدرو مدينة وبيدرو قارسيا فيرنانديس وعلماء آخرين • وهؤلاء كما رأيت جلهم يهود معروفون فى ذلك الزمان وأخذ عنهم العلوم البحرية المقتبسة من العرب وكان ماهرا فى ترسيم الخرائط الجغرافية وفى بناء السفن وقيادة العمارات فى الرياح والعواصف أمام العدو واشهار الحروب ، كان صنديدا لا يخاف الا أنه كان شديد التبصر وباطىء اتخاذ القرارات لا يعزم على أمره ، حتى يأخذ جميع الاحتياطات بحيث كانوا يأخذون عليه كثرة تردده ، خلاف عروج الذى كان سريع العزم لا يتردد ، الأمر الذى يجعله متفوقا على عدوه فى الحروب البحرية التى كانت تتطلب السرعة والعزم والاقدام والجرأة وهى أوصاف عروج •

واذ خاف السلطان سليمان من جرأة أندريا وشدة بأسه ، أمر خير الدين الى ديوانه ليرأسه على أسطوله ولكى يواجه أسطول أندريا • ذلك أنه لما رأى سليمان أن البحر كاد يفلت من سيطرته بسبب تجبر دوريا ، أشار عليه وزيره ابراهيم باستدعاء خير الدين لأنه اعتبره الرجل الوحيد الذى يجابه به ذلك الصنديد لما كان له

من السعة والشهرة فى العالم الاسلامى والمسيحى • فوجه اليه « خطا شريفا » (خطي شريف) ليقدم الى اسطنبول كما سنراه بتدقيق •

فعلا كان اندريا شديد الوطأة قبل ترأس خير الدين للاسطول العثمانى وعندما عين قبطان البحر قلت هجومات دوريا اذ جرت بينهم المعارك الشديدة • كان الظفر تقريبا دائما حليف خير الدين •

وكان شارل الخامس كثيرا ما يعتمد عليه ويضع الثقة فيه يدعوه الأمير «Prince» وبفضل انتصاراته رفع راية الامبراطور حتى عينه أمير ميلفى وفارس جزة الذهب
«Prince de Melfi et chevalier de la toison d'or»

وكان شارل الخامس يحترمه جدا ويعظمه ويقول له أبى وبفضل ارشاده لم تكن هزيمة ١٥٤١ فى بحر الجزائر تامة ولم يكن يفلت الامبراطور من يد الجزائريين لو لم يشر دوريا اليه بالفرار وبانقاذ ما بقى من السفن والمحاربين •

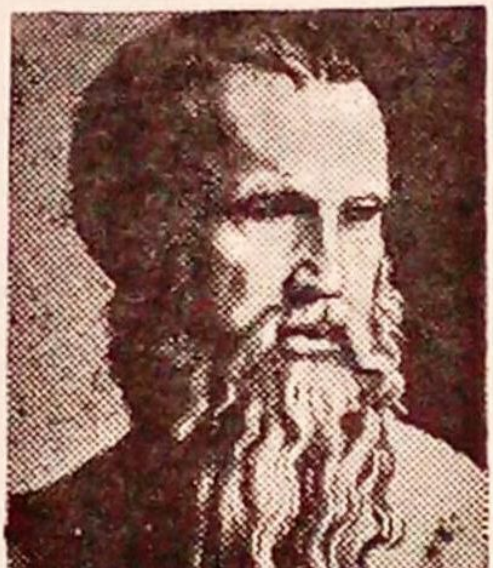

اندريا دوريا

استدعاء خير الدين الى الاستانة

ولما علا صيت خير الدين وبلغ خبر انتصاراته الباهظة وأعماله الحربيــة المظفرة ضد العدو ، أراد الخليفة العثمانى أن يقــابل به عدوه الكبير أندريا دوريا الذى أصبح سيدا فى البحر يسيطر على جل مدنه الساحلية فى أوروبا وافريقيا .

فاستدعى الخليفة خير الدين الى الاستانة . روى المؤرخون هذا الحادث الهام بدون أن يعطوا الأســباب التى أدت بالسلطان الى تقليد خير الدين رئاسة أسطوله ووضع مسؤوليته على عاتقه مع عظمتها .

ونعلم أن تركيا كانت اذ ذاك القوة الأولى أو الثانية فى العالم لعلها تشبه أمريكا الآن وربما كانت سلطة السلطان أعظم من سلطة الامبراطور شارل الخامس الذى كانت قواه مبعثرة مجزأة ومقسمة فى أوروبا كلها (٨٢) . حقا كان جند جميع امكانياته التى لا تحصى

(٨٢) اذا قارنا الامبراطوريتين الاسلامية والمسيحية وجدنا الاولى مستقرة منسجمة موحدة تجمع بين اطرافها اسباب الخلافة المتينة والشدة وصرامة الحكم التركي الذى لا يقبل فتورا ومن جهة اخرى امبراطورية شارل المجزاة والمقسمة المتميزة بالفتن والحروب ولولا كابوس الدين لتغلب عليها الخليفة العثماني .

لمحاربة العثمانيين فى البحر . فاننا اذا تصورنا عظمة المسؤولية التى وضعها السلطان بيد خير الدين عندما أسند اليه قيادة أسطوله العرمرم المركب من أكثر من خمسمائة سفينة حربية بين صغيرة وكبيرة كلها مسلحة . فاننا نظن أنه ما ولاه هذا المنصب الا لخبرته وشجاعته وبعد نظره فى أمور البحر ، كما أسند اليه مسؤولية صناعة المراكب ، كما سنراه .

نعم فقد استدعى الخليفة العثمانى خير الدين لأول مرة ووجه اليه خطا شريفا يأمره بالمثول بين يديه وكان ذلك بايعاز من وزيره الأول ابراهيم (٨٣) وهو من القواد الحربيين للسلطان . فتوجه خير الدين على رأس ما يزيد عن أربعين سفينة مجهزة بالعتاد الحربي وبالمحاربين . ولما وصل الى القرون أطلقت المدافع كورها تحية للسلطان . وكتب خير الدين رسالة للخليفة يستأذنه فيها بالدخول الى أسطنبول . فأتى الجواب بالاذن ، فدخل المرسى وأرسى سفنه والطلقات المدفعية الخليفية تدوى تشريفا لخير الدين كأنه رئيس دولة . فاستقبله الجنود والأعيان ومثل أمام السلطان الذى أسكنه قصرا فاخرا خصصه له وعامله معاملة وزير . ثم بعد الاستراحة طلب الصدر الأعظم الذى كان مقيما اذ ذاك بحلب أن يقدم عنده فشاور السلطان خير الدين هل يطيب له أن يجيب لدعوة الصدر فقال له « النظر لسيدنا فأنا من جملة عبيده يفعل بي ما يشاء » فأذن له السلطان فشد الرحيل الى حلب حيث استقبله الصدر الأعظم أروع استقبال . وقد قال عن هذه الزيارة صاحب الغزوات ما نصه : « وأمر مقتضاه أن خير الدين وزير من وزراء السلطان ويلبس الخلعة لأجل ذلك فنصب الديوان الأعظم

---

(٨٣) هو ابراهيم من الوزراء الدهاة القواد الحازمين للبادى شاه أصله من الباتيا سنرى ترجمته فيما بعد .

وألبسوه خلعة الوزراء وأركب على فرس » وسار الديوان أمامه الى القصر المعد له لنزوله وخرج من حلب خروج الملوك (٨٤) بعدما أقام ثلاثة أيام .

يظهر أن السلطان تردد قبل أن يسند اليه أمر سفنه الحربية . قال بعض المؤرخين أنه لم يعره على ما يظهر الأهمية الكبرى عند المثول بين يديه باغراء من الأتراك الأقحاح الذين أظهروا اشمئزازهم لاختيار خير الدين على رأس الأسطول لسوابقه ولكون أمه مسيحية وليس فى عروقه الدم التركى الصافى . وخوفوا السلطان من احتمال هروبه بأسطوله الهائل وانضمامه للعدو . فندم السلطان على استدعائه وكاد يرجع على عزمه لو لم يطلب منه الصدر الأعظم الذى كان فى حلب أن يوجهه اليه ليختبره ويرى ما قيمة الرجل ويقرر فى أمره بكل تبصر .

ولما رآه ابراهيم كتب للسلطان ما يلى :

« اننا وضعنا اليد على رجل البحر الحقيقى فلتعينه جلالتكم بدون تردد باشا وعضو الديوان ورئيس قبطان لأسطوله » وكان ابراهيم على أهبة فتح بلاد فارس ، وما لبث بعد ذلك حتى استولى على ديار بكر ثم على طورس .

واذا حللنا هذا الحادث الغريب يظهر لنا أن السلطان وجه خير الدين الى الصدر الأعظم وهو لقب الوزير الأول العثمانى اذ ذاك أو رئيس الوزراء ليختبره ويرى أفكاره فى الحروب ويقنع أهل المعارضة الذين لم ينظروا الى خير الدين الدخيل بين أعضاء الديوان بعين العطف .

---

(٨٤) ص ٩٠

وكان رأى ابراهيم سديدا فى اعطاء مساعدته فيما يخص تعيين خير الدين الذى كاد يرجع الى الجزائر صفر اليدين لكنه تحقق من خبرة الرجل وطول باعه فى البحرية . وأخذ يستشيره ويسأله عن تصرفاته ومعلوماته وقدرته على الحرب بغية امتحانه . وحين رأى فيه على ما يظهر كفاءة وحزما واستعدادا قلده منصب الوزارة وسرحه للرجوع الى الاستانة . فزار فى طريقه مدينة قونية وبورصة ومدانية ثم حل باسطنبول . فأحضره السلطان أمامه فى ديوانه . فوقف خير الدين مع الوزراء ، فأشار اليه ليقترب منه بصحبة نائب الصدر الأعظم ، فمسح على رأسه ووضع على عمامته « سرهوجا » من الذهب تنويها به وهى ريشة . وتلك كما لا يخفى سنة نبوية كان يقلد الرسول صلى الله عليه وسلم الأبطال المظفرين وسام الريشة .

ثم خرج خير الدين الى قصره المعد له ، واشتغل بالنظر فى أمور دار الصناعة وصنع ٨٤ مركبا حربيا (٨٥) ، ولما فرغ من تجهيز الأسطول السلطانى أمره الخليفة بالابحار قصد محاربة عدو الأتراك . فخرب خير الدين وأحرق ودمر وعثى فى أراضى النصارى بدون شفقة من جزر وسواحل من بحر ايجا الى بوغاز جبل طارق بما فيها ايطاليا وصقلية (كلابر) وجنوة وسردينية وسواحل أسبانيا . فدخل الرعب والفزع فى قلوب الأعداء الذين صاروا يفرون الى داخل أراضيهم عند حلوله بسواحلهم عوض أن يدافعوا عن أوطانهم تاركين المسلمين ينهبون ويسبون ويؤسرون

(٨٥) يخبرنا هايدو ان خير الدين استعان بنجادين جزائريين مختصين فى صناعة المراكب أتى بهم من الجزائر .
انظر المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ٢١٦

ويستولون على الأموال والسفن بكل حرية ولم يعارض خير الدين أحد .

ثم توجه اثر ذلك الى تونس التى كانت فى قلبه حزازة على ملكها الحفصى . فاستولى على بنزرت وعلى حلق الوادى ثم على تونس حيث فر منها صاحبها وقابله أهل تونس بترحاب وسرور وعبروا له عن فرحهم لخلع السلطان الحفصى الذى كانت تصرفاته غير مرضية . ودخلت تونس تحت طاعة الخليفة العثمانى الا أن السلطان الحفصى توجه الى الصحراء حيث جمع جيشا غفيرا من الاعراب ليحارب به خير الدين ، فاستعد له هذا وتوجه اليه حاملا عددا عديدا من المدافع على عربات شراعية رآها العرب لأول مرة . فاستغربوها وبهتوا لها وتعجبوا لهذا الاختراع الذى قال عنه صاحب غزوات عروج ما نصه :

« ومن جملة الغرائب التى تحكى عنه فى هذه الحركة أنه جعل للعجلة التى تحمل المدافع صاريا لكل واحدة منها حبالا وشراعا منصوبة فكانت العجلات تسير بالريح كما تسير المراكب فى البحر . وهذا من أغرب ما يحكى عن هندسة الملوك » (٨٦)

وقد هزمت جيوش الحفصى فى الصحارى لما لاقته من الشدة فى الحرب وتعجب الأشياخ أنصاره لأبهة خير الدين وقوته وتسخيره للامور والسلاح النارى والقنابل التى رأوها لأول مرة . فما كان عليهم الا أن يذعنوا ويخضعوا ،فرجع خير الدين مظفرا الى تونس ، لكنه استغاث الحفصى بشارل الخامس ، فكتب له رسالة هذا نصها :

---

(٨٦) ص ٩٤

« وكان الحامل له على ذلك (٨٧) ما علمه مما بينى وبينك من الصداقة والموالاة . فالواجب عليك أيها الملك أنك تعيننى بهذا العسكر الذى معك على رد مملكتى واخراج هذا الرجل منها . معى من الجيش ما قدره ستون ألفا لأحاصرها أنا برا وتحاصرها أنت بحرا . فاذا استولينا عليها (٨٨) تكون البلاد لك وأنا أكون كالنائب عنك » (٨٩)

فتأمل فى هذا النموذج من الخيانة والحطة التى وصل اليها الملوك المسلمون فى ذلك العصر . فأخذ الامبراطور يتأهب للهجوم على تونس .

نعم كان لاحتلال خير الدين تونس ، فى الحقيقة تأثير عظيم فى نفس شارل الخامس والبابا أكثر من احتلاله الجزائر لموقع تونس أمام ايطاليا والبوغاز وحراستها على مضيق ميسين الذى خاف عليه الامبراطور من مراقبته من طرف أسطول خير الدين . كما خاف فرسان مالطة ونائب ملك سردينيا من مجاورة الأتراك .

ثم توجه خير الدين الى عنابة فاحتلها ثم انتقل الى الجزائر حيث لاقاه أهلها بحفاوة .

اننا نعلم أنها كانت تحت امارة حسن آغا الذى أحسن تدبير أمورها ، ثم أبحر خير الدين نحو الغرب الى ميورقة واستولى على مرسى ماهون ، احدى الجزر الخضراء ، وأخذ الأسرى والزاد ، ودمر أسطول أمير البحر الأسبانى بورتوندو فى سنة ١٥٣٥ ، ورجع الى الجزائر ، وكان العدو اذ ذاك يستعد للاستجابة

---

(٨٧) أي خير الدين

(٨٨) تونس

(٨٩) ص ٩٥

لطلب الحفصى . بينما كان نجم خير الدين يصعد أحست الكنيسة بالخطر المحدق بالمسيحية . فأصدرت تعاليمها للمسيحيين ليتجنبوا اللقاء مع خير الدين لما كان يلحقهم منه من الهزيمة وضياع البشر والمال والاسترقاق فى كل مرة ، بحيث كانوا اذا رأوه بعيدا فانصرفوا عنه ؛ واذا لاقوه استسلموا اليه الى حد أنه عند رجوعه الى تركيا رآه أسطول أندريا دوريا القائد الجنوى قرب جيجل ، ففر هاربا منه تجنبا من عار الهزيمة .

وأخذ خير الدين يتردد بين الجزائر واسطنبول ويحارب ويظفر تاركا بالجزائر حسن آغا نائبا عنه بأمر من الخليفة العثمانى .

الخليفة سليمان القانونى

كان هو الملك الوحيد الذى واجه شارل الخامس بفضل شجاعته وقوة جيشه ورجولته وثروة بلاده وصفاته الحسنة العديدة والخصال الحميدة جعلته يحارب بكل تفان ذلك الطاغية الذى وعد نفسه بمحو الاسلام واندثار الشعب التركى ودك الجزائر دكا حتى لن يبقى لها أثر مثل قرطاج ، لكنه وجد ذلك البطل الشجاع فى طريقه • وحيث أنه جند جنود أوروبا كلها وحشدت اليه قوات الكنيسة وضم أموال البلاد الخاضعة له ليحارب بها المسلمين فوجد أمامه السلطان التركى الذى تحالف ضده مع فرانسوا الأول • وقد قال عن سليمان المؤرخ رانك ما نصه : « كان طويل القامة ، على وجهه سمة الرجولة ، عريض الجبين ، أسود العينين ، تظهر عليه سمات الحربى المجاهد » •

وكان سياسيا ماهرا فاخرا مقداما فى الحروب التى كثيرا ما كان يحضرها بنفسه لا يخشى الموت قط كيفما كانت قوات العدو المتكالب على المسلمين بصفة عامة وعلى الأتراك بصفة خاصة•وكان لم يخش من محاربة جيوش شارل الخامس الذى كان اذا حارب جيوش سليمان يكون دائما فى قيادة محاربيه خوفا من الانهزام • وكان عدوه الألد هى المسيحية التى كانت تغير على دار

SOLIMAN II, le magnifique, le plus célèbre des sultans ottomans, né en 1494, m. à Szegedin ; il succéda à son père Sélim, et fut l'allié de François 1er contre Charles Quint ; il envahit la Hongrie, gagna la bataille de Mohacz, échoua devant Vienne, conquit une partie de la Perse, et régna de 1520 à 1560. La fin de son règne fut attristée par les intrigues de Roxelane ;

السلطان سليمان الثاني « القانوني »

فرنسو الاول

الاسلام ظلما وعدوانا وخصوصا منها بيت المقدس وأفريقيا والتراب الوطنى التركى حتى تحول العالم الاسلامى كله مسيحيا .

فاحتل سليمان الأراضى الواسعة والأقطار الشاسعة منها مولدافيا وبلغراد واليونان وهنغاريا ورودس . وحاصر فيينا عاصمة النمسا سنة ١٥٣٢ بجيش عظيم واستولى على سوريا ومهد الحكم بمصر التى طرد منها أبوه سليم المماليك الشركسيين (٩٠) وحارب الفرس ، وعلا صيته ولم يكن اذ ذاك فى العالم المتمدن المسيحي والاسلامى الا ملكان عظيمان هما شارل الخامس وسليمان بل كان سليمان أقوى منه كما حققه المؤرخ الفرنسى الكبير أرنيست لافيس . وعاصر سليمان الامبراطور وابنه فيليب الثانى وفرانسوا الأول وولده هنرى الثانى الذى تحالف معه مثلما كان أبوه وعاصر ثلاثة بابات ولوتير مؤسس الشيعةالبروتيستانتية. وسماه البعض سليمان الأول والبعض الآخر سليمان الثانى تابعا لسليمان بن داود . وكان يدعى أيضا سليمان الغازى . وبلغت فى عصره الدولة العثمانية قمة السطوة والجاه « وصارت أقوى دولة فى أوروبا حاكم الدول الأخرى » على حد تعبير ايرنيست لافيس المذكور (٩١) .

ويسمى القانونى لأجل تشريعه وتدوينه القوانين الهامة فى الشريعة الاسلامية التى كانت تطبق على جميع الشعوب الخاضعة

---

(٩٠) كان سلاطين مصر فى ذلك العهد يسمون مماليك «Mameluk» لان الرؤساء كانوا يشترون فى سيركاسيا الرق الصقالبة من الغلمان ويجندونهم فى الميليشيا وكان يصعد الكثير منهم الى الوزارات وحتى الى السلطنة واخذوا لأنفسهم لقب سلطان سماهم الافرنج «Soudan»

(٩١) التاريخ العام ص ٧٤٨ ج ٤

لحكمه أى رعيته سواء أكانت اسلامية أو غيرها • وقد تولى سليمان الخلافة مدة ٤٦ سنة من ١٥٢٠ الى ١٥٦٦ • ولم يتقدم لخليفة عثمانى عصر أزهر وأطول وأسعد وأفخر وقد تحالف معه ملك فرنسا فرانسوا الأول الذى كان هو أيضا ذا شوكة يحسب لها حساب ، لكنه لم يدرك سطوتى الملكين المذكورين • وكان تحالف فرانسوا الأول مع سليمان يجعله فى حالة صلح مع الجزائريين الذين شاركوا فى الدفاع عنه عند حروبه مع شارل الخامس الذى كاد يستولى على فرنسا كلها لو لم يجد فى طريقه الجزائريين والأتراك •

كان لسليمان مستشار حكيم وهو ابراهيم باشا المتقدم ذكره الذى يعتبر من المفكرين الأتراك الدهاة ، ينيره بآرائه الرشيدة وأفكاره المتبصرة ، وكان من ذوى الحزم والعزم يتشاور معه فى الشادة والفادة اذ كان يساس أمور الدولة بحكمة وتبصر مدنيا وعسكريا ، وكان صهر السلطان سليمان الذى زوج له أخته •

وكان ابراهيم يحسن عدة لغات منها الألبانية التى كانت لغته الأصلية واليونانية والتركية والعربية والايطالية ، وكان نبيها بأمور الملك بعيد النظر ، وعند غيبته بمصر تمرد الانكشاريون على الخليفة فناداه سليمان ، فحضر فورا وأخمد نار الفتنة ولما رتق الفتق أشار الى السلطان باستعمال الجنود فى الحروب لئلا يبقوا بدون عمل • حتى يدافع بهم ردا للعدو المتكالب على الملك والخلافة ، وفى نفس الوقت ، ليفتح البلدان وينشر الاسلام ويحارب المسيحية التى كانت واقفة فى وجه تركيا وقفة عداء ، ولذلك ظهر للخليفة وجوب مزاولة الحروب والاسترسال فيها بجميع أنحاء الايالة وما وراءها • فجمع جيشا يقدر بمائة ألف

جندى فتح به البلاد العديدة بأوروبا الشرقية وآسيا . وبفضل هذا الوزير علا شأن الخليفة العثمانى فى العالم . لكنه وقع فى آخر أمره خلاف بينه وبين الخليفة ، ترجع أسبابه لتخوف سليمان من صعود شوكة الوزير . فأمر بقتله بسبب الوشاية والمكائد التى دبرتها له زوجة السلطان الشهيرة «غزلان» «Roxelane» وقد قتله فى سريره يوم ٥ مارس سنة ١٥٣٦ .

وعن هايدو أن خير الدين عندما أسر مركبا فينيسيا ، وجد لدى العدو رسالة موجهة من ابراهيم الى دوتشى البندقية يتآمر فيها معه على الخليفة سليمان فى صالح المسيحية ولا نظن أن فى الخبر جانبا من الصحة والله أعلم . وذلك شأن الملوك حدث عنهم ولا حرج . وها ما رواه هايدو بالحرف عن الحادث الذى يغلب عن الظن أنه مكذوب :

« استولى (خير الدين) أثناء سفره على سفينة فينيسية بحجة أن الجزائريين لم يعنهم العهد المبرم بين الباديشاه والبندقية ، فوجد فى المركب رسالة وجهها الصدر ابراهيم باشا سريا الى دوتشى البندقية . ففتحها رغبة فى معرفة مضمونها غير شاعر أنها من ابراهيم . فوجد أنها تتضمن تعليمات مضرة بالسلطان وفى صالح المسيحية (ومن المعلوم أن ابراهيم كان يرسل عادة مثل ذلك الكتاب خاصة للامبراطور شارل الخامس على طريق البندقية) .

فسكن بربروسا هذه الرسالة للسلطان الذى أصدر أمره فى الحين بقتل ابراهيم وبالالقاء به سريا فى البحر واعترف لخير الدين بالجميل بتعيينه كبير أمراء البحر بعد أيام قليلة (٩٢)

---

(٩٢) المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠ ص ٢١٨ - ٢١٩

وكان هو الذى أشار اليه لتوجيه الدعوة لخير الدين ليقابل بشدة بأسه أندريا كما أسلفنا ، فكيف يكون قد رقاه سليمان لمجرد وشاية فليس ذلك معقولا ، انما ابراهيم هو الذى حث سليمان على استدعاء خير الدين ، وكان رأى ابراهيم سديدا اذ أن الخليفة رأى أهمية الموقع الاستراتيجى للبلاد المغربية وخصوصا منها الجزائر التى كانت قبل ذلك وجه منها عروج وخير الدين ولاءهما للسلطان سليم .

وقال أوقوست كور عن موقعها الحساس ما نصه : « ان افريقيا الشمالية وهى قاعدة العمليات الأكثر أهمية ضد أوروبا الغربية ، كانت لفتت كل عناية الخليفة العثمانى . ألم تكن شواطىء بلاد البربرسك أمنع الحصون وأجود النقط للهجوم والدفاع ضد الامبراطور ملك أسبانيا ؟ » (٩٣) .

ولذلك كان استدعاء خير الدين فى الأزمة الحرجة من الدفاع والحرب والمعمعة الشديدة القائمة حينذاك بين الأتراك والمسيحية أى حوالى ١٥٣٤ ، عامين بعد حصار فيينا الخطير . فأسند اليه رئاسة أسطوله العظيم كما أسلفناه وأصبحت هجومات خير الدين وبالا على الأراضى المسيحية . واحتل المدن والجزر لبحر ايجيا وركز فى أعلا قممها الراية العثمانية الحمراء ذات النجمات الثلاث .

وقد أنشأ سليمان المؤسسات الاجتماعية الهامة رغم اشتغاله بالحروب خلاف شارل الخامس الذى كان شغله الشاغل اخضاع الأمم لسيطرته والتجبر على الملوك .

---

(٩٣) اوقوست كور ص ٧٨ – Auguste Cour. Etablissements des Chérifs au Maroc - Leroux - Paris 1904

ولما حل خير الدين باسطنبول يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٥٣٣ سطر له الخليفة برنامج عمله المستقبل وقيامه بالجهاد ضد أساطيل المسيحية المتحالفة واحتلال تونس وخرج خير الدين من اسطنبول يوم ١١ يونيو سنة ١٥٣٤ بعدما وكله السلطان على مائة سفينة حربية حاملة الجنود المجاهدين منهم ٨٫٠٠٠ بحرى و ١٠٫٠٠٠ ماش و ٨٠٠ انكشارى ومكنه من ٤٠٠٫٠٠٠ دوقا .

وكان سليمان حليما سموحا عاطفا على أعدائه الذين كثيرا ما كان يصفح عنهم عند التوبة . والدليل على ذلك تصرفاته مع فرسان رودس الذين حاصرهم فى الجزيرة من يونيو الى ديسمبر سنة ١٥٢٨ وسمح لهم بالخروج ناجين بأبدانهم وأموالهم (٩٤) .

وشبه سليمان باسكندر المقدونى فى شتى الأوصاف . ولما عين سليمان القانونى خير الدين أمير البحر سنة ١٥٣٤ خرج بأسطوله المعدل والمنظم الى البحر للمشاركة فى الحرب القائمة بين الباب العالى وفينيسيا وبعد القيام بعدة حروب استولى سنة ١٥٣٧ على كاستيا بأقليم أوطرانط والتحق بالسلطان سنة ١٥٣٨ ثم تبع فى نفس السنة أسطول أندريا دوريا قرب بريفيزة لكن فر هذا هاربا لئلا يجابهه خوفا من شدة وطأته . فاستولى خير الدين سنة ١٥٣٩ على كاستيل نوفو بدلماسيا ثم على كطارى ومافوازيا اللتين كانتا

---

(٩٤) كانت جزيرة رودس مركزا للقراصنة المسيحيين ونهاب البحار يقطعون الطرق البحرية لاعلى الاتراك فحسب ، بل حتى على السفن التجارية المسيحية وكانوا من لمانية اجناس يسمونهم فرسان اللغات الثمانى ينتمون لطائفة مسيحية كاثوليكية لفرسان القديس يوحنا رئيسهم فيلى دى ليل آدم خرجوا فى الزمان القديم من بيت المقدس طردهم منه صلاح الدين الايوبى ثم استولى السلطان سليمان القانونى على الجزيرة فأخرجهم منها . فاسكنهم شارل الخامس بجزيرة مالطة ولذلك سموا فرسان مالطة وفيهم كثير من الفرنسيين الى ان طردهم منها طرفد ص ٤١
«Exploration scientifique de l'Algérie»

لفينيسيا ففرض عليم الصلح • ثم بعد هذه الحروب العنيفة والشاقة استراح من اتعابه بعض السنين الى سنة ١٥٤٣ • فأمره سليمان فى تلك السنة بالابحار الى فرنسا ليشد عضد فرانسوا الأول ضد شارل الخامس (٩٥) • فدمر شواطىء كالابرا ، وأخذ قايبط فى أقليم نابل وأرسى أسطوله بفيلا فرانكا التى احتلها وضرب الحصار على نيس بفرنسا الجنوبية التى كانت بيد شارل الخامس• لكنه رفع الحصار لأن الأسطول الأسبانى كان يسون المدينة تحت رئاسة الاميرال ماركى دى قاست • ثم توجه الى طولون المرسى الحربى الفرنسى حيث مكث حتى أبرم الصلح بين فرانسوا الأول وشارل الخامس سنة ١٥٤٤ وذكر المؤرخون الفرنسيون أنه بسط سيطرته على طولون وأمر فيها ونهى ، وأقام الحكم والحدود والعقوبات وبالغ فى الجرأة الى حد أنه منع من دق الأجراس فى أعلا الكنائس بمناسبة التعبدات كأنه حول اقامته بطولون الى مدينة اسلامية (٩٦) وعند رجوعه الى الاستانة مزودا بالهدايا من طرف فرانسوا الأول مجازاة لأعماله فى صالح عرشه ، مر بجزائر آلب وسيان واشيا وبروسيدا وخربها • ولا زال يغزو فى البحار ويرجع الى الاستانة حتى توفى بها رحمه الله سنة ١٥٥٦ فى الستة والستين من عمره ودفن فى مسجد كان بناه هو على نفقته ببيوك ديرى على خمسة أميال من اسطنبول ، ومن الغريب هو أن ذلك البطل الصنديد الذى لم يعرف راحة فى حياته قد أدركته المنية

---

(٩٥) ذلك لان فرانسوا الاول قد شعر فى تلك السنة ان شارل الخامس كان يريد نقض الصلح والدخول الى ايطاليا والفلاندر . فجدد الصلح مع سليمان ، فوضع السلطان أسطوله رهن اشارته تحت رئاسة خير الدين وهو مركب من ١١٠ سفينة مرت بمضيق ميسين فى ٢٥ ابريل سنة ١٥٤٣ ثم ارست فى ١٢ يوليو بطولون ثم توجهت الى مرسيليا .

(٩٦) الفريد نيطمان ص ٥٥ « Alfred Nettement »

في سريره بعدما عاش في آخر أيامه حياة رغدة في البذخ والرفاهية . وذلك من الأسرار الربانية تخفى على ضعف عقولنا .

وكثيرا ما أطال المؤرخون الكلام عن المعاهدة المبرمة بين سليمان وفرانسوا الأول وخصوصا منهم الفرنسيون أظهر الخليفة العثماني في الحقيقة طيل حياته الاخلاص التام لحليفه والوفاء بالعهد حارصا كل الحرص على تنفيذ التزاماته نحو الملك الفرنسي وحسن استقبال سفرائه وتعظيمهم وتبجيلهم واجابة لطلبات الملك من حيث النجدة والعدة والجنود لم يبخله بشيء بينما كان فرانسوا الأول يظهر دائما التردد ومحاولة استغلال المواقف والظروف لفائدة مصالحه الشخصية ومنفعة عرشه بدون مبالاة بمصالح الخليفة وكان يعتبر نفسه بين نارين بين مصالحه المادية وعواطفه الدينية نحو المسيحيين الذين كانوا يؤاخذونه على تحالفه مع الملك المسلم ضد الملك المسيحي . وكانت تلحقه الغيرة عندما يتهيأ شارل الخامس لمحاربة المسلمين واشهار الحرب الصليبية عليهم يلوم نفسه على موقفه المعادي لدينه هو الملك جد المسيحي (le Roi très chrétien) فيعتريه الفتور لكن مهما يحس أن عرشه سوف يصبح مهددا ، فانه ينادي الخليفة ليستنجده ويوجه اليه السفراء ويستعطفه . ولا نستطيع أن نصف التناقض والتردد الذين كثيرا ما كان يقع فيهما فرانسوا في شتى الاحوال أحسن ما وصفهما المؤرخ ايرنيست لافيس في كتابه التاريخ العام ص ٧٣٢ — ٧٣٨ ج ٤ ، فانه يوضح بكل انصاف اخلاص ووفاء الملك المسلم وتذبذب الملك الفرنسي وتروغه .

شارل الخامس

اذا أردنا أن نخصص لهذه الشخصية البارزة بين ملوك العالم اذ ذاك فلاجل الدور الهام الذى لعبه فى البحر الأبيض المتوسط وشدة اتصالاته بالجيوش الجزائرية التى عرفت وطأته وقوته العتيدة وعرف هو أيضا عنفها وصلابتها حتى أصبحت عنده الشغل الشاغل طول حياته من جملة المشاكل العويصة التى لاقاها أثناء ملكه حتى مات .

يسميه الأسبان كارلوس كينطو والفرنسيون شارل كانت . ولد بجاند بيلجيكا سنة ١٥٠٠ من أبيه الملك فيليب الجميل ارشيدوك النمسا وأمه جان المجنونة ملكة قسطيلة . وعند موت فرديناند الخامس ملك أسبانيا وهو جده لأمه ، ورث الملك وتوج تحت تسمية شارل الأول سنة ١٥١٦ ، ساعده الحظ وأضحى ملك هولندا والبرابانت والأرطوى بفرنسا ، والجورا والروسيون بحيث كان محيطا بفرنسا من كل جهة حتى أصبحت تحت رحمته ، الأمر الذى جعل فرانسوا الأول يزاحمه فى ملك ألمانيا لا حبا فى التوسع انما وقاية لملكه الذى كان مهددا من كل جوانبه وأصبح مستوليا على أمريكا كلها بحيث كانوا يقولون أن الشمس لم تغرب قط فى تراب ملكه .

وعندما عين ملكا لأسبانيا ، جاء الى استوريا واتخذ برغوس قاعدة له بهذه البلاد التى أعارها كل أهمية أكثر من غيرها اذ كانت

قوية ومثرية بسبب الخيرات التى كانت تتدفق عليها من كافة مستعمراتها وخصوصا من أمريكا .

وكان شارل الخامس عالما أستاذاه غليوم دى كروى وآدريان دى أوطريشت .

فوجب له عرش أسبانيا ونافار وصقلية ومالطة وسردينيا وغيرها وكان فى عمره ١٦ سنة عندما توج . فوصى عليه الكردينال خيمينيس دى سيسنيروس العدو اللدود للمسلمين . وفى شهر يونيو سنة ١٥١٨ ، مات جده الامبراطور ماكسيمليان ملك النمسا فطمع فى أن يخلفه فرانسوا الأول الذى أخذ ينافسه قوة وسيطرة وجاها . فتركبت العداوة الشديدة بينهما لأجل الملك . فبادر شارل الخامس باستدعاء فورا النواب بفرانكفورت على الماين يوم ٥ يوليو سنة ١٥١٩ خوفا من أن يسبقه منافسه الفرنسي . وجرى الاستفتاء على ترشيح شارل امبراطورا ، فانتخبوه وسموه شارل الخامس . فعظم شأنه وعلا نفوذه وقويت أنانيته وأعطى لنفسه ألقابا فاخرة وهى : امبراطور الرومان أوغسطس ملك ألمانيا والاسبانيات والصقليتين وبيت المقدس وكان يمضى بتلك الألقاب كلها . وأخذ يحلم بالاستيلاء على أوروبا برمتها ثم يتوسع فى الدنيا بأسرها لكنه لقي تعرض فرنسا العنيف وتركيا الشديد ووجد فى طريقه رجلين مسلمين وقفا فى وجهه حجرة عثرة ألا وهما سليمان القانونى وخير الدين أمير الجزائر . وزيادة على هؤلاء كثرت عليه المشاكل لا فى أوروبا فحسب ، بل حتى فى أفريقيا . وتراه يعلن الحرب تارة بفرنسا وبأسبانيا وتارة أخرى بفينيسيا والجزائر وطرابلس وتونس وسويسرة . وصادف فى عصره نهوض الشيعة المسيحية البروتستنتية فحارب مؤسسها

لوتر الأسقف السويسرى المتمرد على الكنيسة الرومانية وحاول اضرام نار الثورة الشيعية .

ولم يترك له ملك فرنسا راحة بفضل الاعانة التى كان يتلقاها من سليمان . ولولا هذا السلطان ومساعدته ونجدته والاغاثة التى كانت ترد عليه من الجزائر بفضل جنودها وقائدها العظيم خيرالدين لاحتلها شارل الخامس لا محالة وحولها الى دويلة لا أهمية لها .

كما واجه شارل فى أسبانيا الثورات التى أحدثها المسلمون بالأندلس بحيث منعهم من التكلم بالعربية وأنهاهم عن الاتصال الروحى والمادى بينهم وأمرهم بأن يلبسوا الزى القشتلى وأن تخرج نساؤهم سافرات وأن تفتح دورهم لرؤية المارة حيث أنها كانت دائما مغلقة تبعا للاعراف الاسلامية . ومنعهم من الاستحمام وأغلق الحمامات العربية وأمر بكل ذلك لينسيهم شعائردينهم(٩٧). كما أشهر الحروب الصليبية على المسلمين فى تركيا وأفريقيا الشمالية . وامتاز باتصالاته مع بعض ملوك المغرب الخونة من بنى زيان وبنى حفص وأمراء كوكو وملوك بنى عباس والأعيان الأفارقة الذين كانوا يتجسسون على خير الدين ويعكرون الجو عليه دفاعا عن عرشهم ولينالوا رضى الامبراطور . وكانت له سياسة أفريقية خاصة يضرب بها الملك المسلم بالآخر ، ويأخذ الرهان فى قصوره ضمانا لهدوء متحالفيه من المسلمين الخونة العملاء والأعيان وأبناء الملوك العرب . فيسولهم ويسونهم ويشد عضدهم ويسلحهم ويحاول أن ينصرهم على أعدائهم ويردهم الى عروشهم كما كان يربي الكثير من الشبان المسلمين الضالين

---

(٩٧) عن دبيقودى اورطاد وبربسور الاخوان بربروس ص ٨٨

وينصرهم ويأخذهم فى حضانته ويعمدهم ويعطف عليهم ويسميهم باسمه .

وبما أنه أخفق فى أعماله التوسعية وسيطرته على العالم المتمدن وتعميم النصرانية فى البلاد الاسلامية تنازل عن الملك فى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٥٥ وانعزل عن أمور الدنيا ولجأ الى دير يوست سنة ١٥٥٦ الى أن مات سنة ١٥٥٨ .

استيلاء شارل الخامس على تونس

بعد ما أسند السلطان سليمان أمر احتلال تونس لخير الدين وضع هذا عمارته بحلق الوادى (٩٨) عند رجوعه من اسطنبول سنة ١٥٣٥ .

وكان قبل ذلك تأزمت الحالة بين البابا ليون العاشر وشارل الخامس بحيث كاد البابا أن يتحالف مع المسلمين ضد الامبراطور بعد ابرام الحلف السرى بين الخليفة العثمانى وفرانسوا الأول . فشعر الامبراطور بالخطر وأخذ يستدرك الموقف وعزم على الاستيلاء على تونس التى كانت اذ ذاك ذات أهمية عظمى وأبهة كبرى فى عهد الملك الحفصى مولاى الحسن . وعندما كان يستعد للهجوم على تونس سنة ١٥٣٥ أعلم الملك فرانسوا الأول خيرالدين ليتهيأ للدفاع . فوجه خير الدين الى السلطان العثمانى طالبا منه الاغاثة . فجاوبه باستحالة توجيه أية نجدة له لما كانت تعانيه تركيا من الصعوبات وتتخبط فيه من الشدائد فى أوروبا وحثه على الاكتفاء بما يمكن أن يجمعه هو من القوة (٩٩) .

---

(٩٨) تدعى أيضا برج العيون

(٩٩) بيليسي ص ٤٧

وقال فى جمع حشود شارل الخامس لاحتلال تونس صاحب « سيطرة الأتراك » ما نصه :

« فانه (أى شارل الخامس) جمع من أنحاء مختلفة لدوله المتسعة الأطراف أعظم جيش بحرى جندته المسيحية عندئذ ضد « الكفار » منذ الحروب الصليبية (١٠٠) »

وقال مرمول عن هذا الأسطول : « كأنك ترى غابة تعوم على وجه البحر » . (١٠٤)

فأخذ شارل الخامس يحرض أوروبا على محاربة المسلمين الذين كانوا يعتبرونهم أشد أعداء لدين المسيح على حد تعبيرهم . وكلف سفراءه بالخروج الى البلاد الأوروبية ليقوموا بالمهام لدى البابا والبلاد الأسبانية وألمانيا وايطاليا وهولندا ونابل وصقلية وسردينيا وحث أعيان ايالته على جمع المال والعتاد والعساكر . فأخذ السفراء يجوبون البحار والأقطار للقيام بالدعاية واظهار الخطر المحدق بالمسيحية . فاستعد الأمراء والملوك للحرب وهيأوا السفن والعدة والمال والجنود . ووجه الامبراطور أحد جواسيسه الى تونس ليعكر الجو على خير الدين ، ويستعطف السلطان الحفصى ويعده حتى ينفصل عن محالفة خير الدين ويقتله . لكن استيقظ له خير الدين وأمر بقتله .

وجمع الامبراطور سفنه كلها ببرشلونة سنة ١٥٣٥ وأخذ فى الاستعدادات لينظم السفن الواردة عليه من أوروبا . فأتى أندريا دوريا بعشرين غليوطة ودون لويز ولي عهد البرتغال بثلاثين سفينة حربية حاملة أشراف البرتغال وأعيانه والفارو بازان بخمسة عشر

---

(١٠٠) والسين استرازي ص ٤٢١

(١٠١) مرمول وصف افريقيا .

غليوتا وكرافيل وفيرجينيو أورسينو باثنتى عشر قليرة للبابا وفرسان مالطة بأربع قليرات ومملكة موناكو بسفينتين ونائب ملك صقلية بعشر سفن ونابل بست منها يرأسها قارسيا دى طوليدو . ومن جنوة أنطونيو دوريا أتى بخمس سفن ، ومن كلابرا باثنتين وأربعين سفينة والماركى ديل الفاسطواتى بخمس وأربعين سفينة حاملة ٨٠٠٠ من الجنود الالمان و ٢٥٠٠ من الأسبانيين ومن فلاندر بلجيكا أتت ستون غليوطة كما خرجت من دار الصناعة لمالقة ١٥٠ سفينة للامبراطور وسفينة مستشفى يقذف بها ٢٠٠ بحار . وأخذ الامبراطور يراقب تلك العمارة العظيمة الهائلة بنفسه وبكل دقة ودامت رقابته لها خمسة أشهر تهيأ أثرها للخروج الى الغزو الصليبى الجديد وخرجت « الارمادة » يوم ١٤ مايو سنة ١٥٣٥ بعدما أعطى شارل الخامس الأوامر والتعليمات للقواد والرؤساء والأعيان والأمراء والمهندسين اذ اجتمع فى هذا الحشد أشراف أوروبا ولم يبق أحد فى قصره بدون استجابة لنداء شارل بأموالهم وعتادهم وأولادهم وخدامهم وحاشيتهم وخيلهم وبقرهم وغنمهم وزادهم وذهبهم وفضتهم وحتى لحومهم المصبرة والبشماط . وبعد الاستعراض الهائل لهذا الجيش الفاخر المسلح والمزركش بالذهب والفضة والأحجار النفيسة استعدت العمارة للتحرك . وقبل الخروج بات شارل الخامس فى دير منسرات يتعبد ويستنجد المسيح ، ورجع يوم ٣٠ مايو سنة ١٥٣٥ الى برشلونة فأسند رئاسة الأسطول لاندريا دوريا والفارو دى بازان وأقلعت السفن على الساعة السابعة مساء من نفس اليوم وساعدتها الرياح ، فوصلت الى حلق الوادى فى ١٥ يونيو سنة ١٥٣٥ . وكان خير الدين على علم بهذه الاستعدادات الهائلة المرعبة التى كان ينتظرها بكل رباطة الجاش بعدد قليل من المجاهدين الأتراك

والعرب والبربر وكل رئاستها لقائده سينان رئيس المدعو عند الأسبان اليهودى (١٠٢) . ووقعت الملحمة بصفة عنيفة أظهر الفريقان الشجاعة المفرطة لكن كان العدد المنتشر من الجنود حليف المسيحى واشتدت الحرب وبلغت أشدها يوم ١٤ يوليو سنة ١٥٣٥ قال بريور عنها ما نصه : « كان اليوم شديدا وكان يوم الانتقام ويوم الموت والعز والآمال الروحانى ، يوما مشهودا فى سعادة المسيحية ، حارب أثناءه فكر ضد فكر (أى المسيحية ضد الاسلام) وكان يحس كل التصادم بين عنصرين عدوين » (١٠٣) .

وقال مؤرخ الامبراطور اذ ذاك : « ما قيمة دم الضحايا التى تركها فى ميدان الحرب ؟ ان التضحية العليا لتلك الأرواح هلا يسجلها التاريخ ويؤدى لنا ثمنها والقصائد والروايات التى تتناقلها الأيام . ما قيمة خمسة عشر أو عشرين ألف محارب يموتون ان هلكوا ليسمو الشعار الى العلا » .

فاشتدت المعمعة وهدم وخرب جنود العالم المسيحى جدران المدينة ودخلوها بعد قتل ٢٠٠٠ من المجاهدين المسلمين وفقدت ٨٦ سفينة منها ٤٢ قليرة حربية وأخذ العدو سفينة خير الدين المشهورة المدعوة « الجزائرية » ، وما أدراك من الجزائرية الصنديدة ! .. وخير الدين ينظر من أعلى برج بتونس بنظاراته تلك المناظر المحزنة وأكباده تتقطع غيظا . وأول من دخل تونس هو مولاى الحسن الحفصى الذى كان فر منها وكان له الحظ الأوفر فى هذا الظفر للمسيحية على الاسلام ذلك الحظ الذى

---

(١٠٢) لم يكن يهوديا كما اسلفناه كان تركيا من ازمير

(١٠٣) ص ١٦٠ «Prieur»

يحاسبه عليه التاريخ فى مر الزمان الى يوم الـدين • وأبى شارل الخامس ألا يدخل أحد الى المدينة قبله وفـاء بالوعد له أنه يرده الى عرش أجداده • فأخلى خير الدين تونس وخلص جيشه مـن القتل وتوجه الى قسنطينة مع سينان رئيس وعلى كرمان • ومن ثم توجه الى بونة •

هذا وأن قبل احتلال تونس كان شارل الخـامس وعد جنوده بإباحة المدينة لينهبوها ويفتكوا فيها كما يشاؤون ثلاثة أيام • لكنه اقتضت الظروف السياسية أن وعد الامبراطور أهل المدينة الذين استسلموا بدون معارضة بأن يترك لهم أموالهم وأرواحهم آمنين • انما عند دخول المدينة أبى الجنود المسيحيون المتوحشـون الا أن يتركوا يفعلون ما يشاؤون وأظهروا قلقهم وراموا التمـرد بحيث ما كان على شارل الخامس الا أن يبيح لهم المدينة وقال لوحشية هؤلاء بيليسي ما نصـه : « وانتشر الجنـود فى المدينة البئيسـة وقتلوا ونهبوا وهتكوا الأعراض الى منتهى النهاية • أما الأهالى الذين كانوا يرومون الفـرار الى الأرياف فكان يقتلهـم الخيالة بدون شفقة ولم يعتبر العسكرى فى كلبه الشديد لا سنا ولا جنسا • وترى فى كل مكان أطراف جثث النسـاء والأطفال المذبوحين • وقيل أنه هلك أكثر من سبعين ألف نسـمـة فى هـذا النهب والسـلب الشنيعين • واذ لم يبق للمسيحيـين أى مسلـم يقتلونه أخـذوا يتذابحون بعضهم بعضا لينتزعوا ما نهبـوه من الغنائم ويهدمون الدور ليبحثوا فيها عن الكنوز التى كانوا يظنـونها مخبأة فيها • وعندئذ أخرجوا من المدينة لكى ينقـذوهم من شر بعضهم لبعض ويردوهم الى حالة الجيش اذ أصبحت حالتهـم أثناء تلـك الأيام الثلاثة مجرد عصابات لصوص » (١٠٤) •

---

(١٠٤) ص ٥٥

وجرت تلك الأعمال التى يعجز المؤرخ على وصفها أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥ (٢٠و٢١و٢٢ محرم عام ٩٤٢) . وحمل الجنود المتوحشون القادمون من كل أنحاء العالم المسيحى الأموال والزاد والبشر بدون شفقة ولا رحمة . وكانت تونس المجيدة مشهورة بثرواتها التى جمعها الحفصيون الأمجاد طيلة قرون من المدنية العالية والحضارة الراقية .

وبعد تلك الوقائع المثارة باسم الدين وانتصاب مولاى الحسن على العرش (١٠٥) تلقى منه الامبراطور العهد بأن :

لا يحارب المسيحيين أبدا .

ويحافظ على ولائه له .

ولا يسمح للاتراك فى الدخول لتونس .

وتدخل بحرية البضائع الأسبانية الواردة على المملكة .

ويحمل ما يشاء من البضائع التونسية .

ويسلم للاسبان حلق الوادى .

ويرد السلطان كل من أسلم من المسيحيين وفر الى تونس . ويترك للمسيحيين يشيدون الكنائس والديار كيفما شاؤوا وقدر ما شاؤوا .

ولا يقبل أى قرصان تركي فى مملكته .

ويؤدى جزية سنوية قدرها ١٢٫٠٠٠ دينار ذهبى واثنى عشر من الخيل الجياد وطيور الباز .

---

(١٠٥) نعلم ان ابنه حميدة فقا له عينيه لتحالفه مع العدو والعياذ بالله

وقد كتبت المعاهدة فى خباء الامبراطور بقصر الماء قرب حلق الوادى فى أربع نسخ اثنتان بالعربية واثنتان بالكستيان يوم ٦ صفر عام ٩٤٢ الموافق ٦ غشت سنة ١٥٣٥ .

ولما فرغ الامبراطور من الغزو واستتب له الأمر واستقر السلطان العسيل على عرشه وأبعد خير الدين ولم يخش أذاه ، عزم شارل الخامس على الرحيل بعد ما ترك فرقا معسكرة على حلق الوادى وتونس . فجمع شمله ونظم أسطوله ورتب جنده وحوله من حالة الوحشية الى جيش نظامى فأركبه وغادر تونس يوم ١٧ غشت سنة ١٥٣٥ .

ونعلم أن الأسبان بقوا مسيطرين على حلق الوادى وتونس مدة ثلاث وأربعين سنة ولم ينقذهما من يدهم الا السلطان سليم الثانى عام ٩٨١ ـ ١٥٧٤ كلف وزيره البطل سينان باشا بفتحها واسترجاعها الى المسلمين ونصب بها الحكم التركى وسمى باى على رأسها وقضى على بنى حفص .

أما خير الدين فانه توجه من بونة الى الجزائر ليرتق الفتق ويصلح ما بقى له من السفن وعزم على الرجوع الى اسطنبول بعدما ولى خليفته حسن آغا على الجزائر وتوجه بما جمع من الأجفان الى الجزر الخضراء ليغزوها قبل وصول الأسطول الامبراطورى . فحاصر ماهون ودمرها وخربها وأخذ الغنائم ثم توجه الى شواطىء نابل وكلابرا وكان أسطول شارل الخامس قريب الوصول الى برشلونة التى وردت عليها سفن البرتغال وهى فى مقدمة الارمادة .

ولما رجع دوريا الى جنوى مع الأسطول الفينيسي ، التقى بعمارة خير الدين . فوقعت معركة عنيفة بينهما خرج منها خيرالدين

منتصرا على منافسه فى بريفيزا ورجع الى الجزائر آخذا بالثأر من عدوه بعد هزيمة تونس .

وبعد ذلك لم يترك خير الدين لعدوه راحة . فاستولى على كاستيل نوفو وأسر عددا من سكانها ورهيبها وأخذ الفىء الكثير. واشتد غيظ أندريا دوريا الذى أحس بفتور اعتزاه لكثرة الانهزامات التى كبده اياها عدوه التركى ولم يتعود لها من قبل لأنه كان متشبعا بالتفوق على كل من أشهر عليه الحرب برا وبحرا. وأحست المسيحية رغم انتصارها فى تونس بأنها عاجزة بتاتا على القضاء على خير الدين . ففكر الامبراطور عندئذ فتح المفاوضات معه ، وذلك بايعاز من مستشاريه ومجلس الكرطيس . فأراد ابرام صلح مع أمير الجزائر مع عظامة الامبراطور الذى كان يملك نصف العالم اذ ذاك . فوجه فى أواخر سنة ١٥٣٩ شارل الخامس سفيره خوان قاييقو «Juan Gallego» من السياسيين الدهاة لايالته . فأخذ يتردد بين شارل الخامس وخير الدين طيلة شهور وكانت شروط هذا شديدة وهى استرجاع المرسى الكبير ووهران وبجاية وعنابة وحلق الوادى وطرابلس على أن يكف عن محاربة الأسبان وحلفائهم « ويكون صديقا لأصدقاء الامبراطور وعدوا لأعدائه » وأن يزيل القرصنة من البحر الذى يصبح بحر تجارة هادئة وبحر سفن السلم والأسفار التجارية للمسلمين وللمسيحيين على السواء وأن يطلق سراح السجناء المسيحيين وكذا يطلق الامبراطور الأسرى المسلمين وأن يكف عن اضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس. ووقع الأخذ والرد بين الملكين ورغم بعد المسافة بين المتفاوضين حيث أن خير الدين كان مرابطا بقورفو «Corfou» باليونان بالحوض الشرقى للبحر المتوسط كاد الصلح أن يبرم مع بعض

التغييرات فى الشروط لكنه ورد خبر المفاوضات على علم السلطان العثمانى فتعرض لها بايعاز من فرانسوا الأول لأن الصلح كان يصبح خطرا عليه ولذلك انقطعت المفاوضات فى شهر غشت سنة ١٥٤٠ .

وبما أن باب الصلح قد سد نهائيا بين المسيحية والاسلام عزم شارل الخامس على محو الجزائر فقرر مهاجمتها فجمع أسطولا هاما من نابل وكاطالونيا وبلنسيا والجزر الخضراء وأرغون وخرج به يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٥٤١ من مايورقة وحل بالجزائر بعد يومين وقع له ما وقع كما سنشرحه فيما بعد ظانا أنه سيفعل بالجزائر مافعل بتونس . فعزم أن يهجم عليها بذلك الاسطول العظيم الذى لن يغلب على حد تعبيرهم « L'Invincible Armada »

حســـن آغـــا

كان خير الدين يضع ثقته التامة فى حسن آغا لما رأى فيه من الاستقامة والنزاهة ونكران الـذات . وكـان له بمثـابة الأب يستخلفه فى الامارة كلما تغيب .

فأقر السلطان سليمان حسن آغا على أمارة الجزائر ووجه اليه فرمان توليته والخلعة وولى على قيادة البحر حسن بن خير الدين الذى تبع أثر والده فى الحزم والاقدام والشجاعة .

وكان حسن آغا من سردينية أخذه خير الدين صغيرا فى احدى حروبه وأخصاه (١٠٦) وأعتقه بعد ما أسلم وأظهر نباهة ولباقـة فى خدمة سيده الذى كان يكلفـه بالمهـات ويسند اليه أمـوره الشخصية .

كان حسن مربوعا ، أبيض اللـون ، جميل الوجه ، حسـن البنية ، معتدلها ، كبير العينين وجميلهما ، لطيف الأخلاق،تظهر عليه سمات الحلم والعدل ومن شدة عزة النفس كان سخيا بأمواله مفرط

---

(١٠٦) كان يسميه الاتراك خديم حسن آغا والخديم هو اللقب الذى كان يطلق على الخصي

الكرم . ان الأموال الطائلة التى كانت لديه والأشياء النفيسة التى كانت تنوبه فى حظه من الغنائم لم يأخذ منها شيئا لنفسه قائلا عن ذلك هايدو «ان يكتفى بالشرف والعزة» .

كان حسن واليا مستقيما عادلا تقيا ورعا حسن التدبير وشجاعا اختاره خير الدين ليخلفه فى الامارة على الجزائر لأوصافه الحسنة بعدما دعاه السلطان الى ديوانه . وقال عن حسن آغا صاحب الغزوات ما نصه :

« كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأى جيد التدبير وكان له حظ من العلم والصلاح ، كريم النفس سخيا بالمال باذلا للمعروف، يراعى العلماء والصلحاء وأهل الخير مع العدل الشامل والاهتمام بأحوال الرعية الكامل ولذلك تفرس فيه خير الدين الخير فجعله نائبا عنه . لما احتوى عليه من هذه المناقب العظيمة فصارت له بذلك محبة عظيمة فى قلوب أهل البلد . وكان أنشأ احدى وثلاثين غلياطة (١٠٧) بعد انتقال خير الدين من الجزائر فاشتدت بذلك وطأته على أسبانيا » (١٠٨)

وقال أيضا هايدو عنه :

« أناس من الذين عرفوه لا زالوا يذكرونه بخير ويثنون عليه ويعترفون له بالعدل والانصاف والعزم والشجاعة » (٣)

---

(١٠٧) سفينة صغيرة للحرب سريعة شراعية

(١٠٨) ص ١١٥

ان رجلا مثل هذا متصف بتلك الأخلاق الحميدة قليلا ما عودنا التاريخ بشاهدته فى ذلك العهد الذى امتاز بفساد السيرة والتهتك والاغتيال لا فى البلاد الأفريقية فحسب ، بل حتى فى أوروبا التى كانت تعتبر نفسها راقية وناهضة مثل فرنسا وايطاليا وألمانيا وأسبانيا والتى أعطانا التاريخ عنها نماذيج الوحشية المطلقة والهمجية المرعبة .

وأخذ حسن آغا يغزو الثغور والسواحل الأوروبية . وهال امره عند النصارى . فتهيأ شارل الخامس للهجوم على الجزائر بأسطوله الهائل كما سنراه فى الفصل بعده . ذلك الأسطول الرهيب الذى هيأه على قول المؤرخين الأسبان مدة عشر سنوات أى منذ ١٥٣١ .

وقد توفى حسن آغا فى نوفمبر سنة ١٥٤٥ بالجزائر فى السادسة والخمسين من عمره ، ودفن فى مقبرة باب عزون وبنيت له قبة كبيرة .

ارمادة شارل الخامس
الهجوم على الجزائر فى عهد حسن آغا

لما توجه خير الدين الى تركيا سمع شارل الخامس بمغادرته الجزائر بصفة نهائية ، فأراد أن يغتنم الفرصة . فوجه أسطوله العرمرم الى الجزائر سنة ١٥٤١ قصد القضاء عليها القضاء المبرم واندثارها . وكان عزمه تهديم المدينة وتخريبها من الأساس مثلما فعل الرومان بقرطاج بعد الحروب البونيقية .

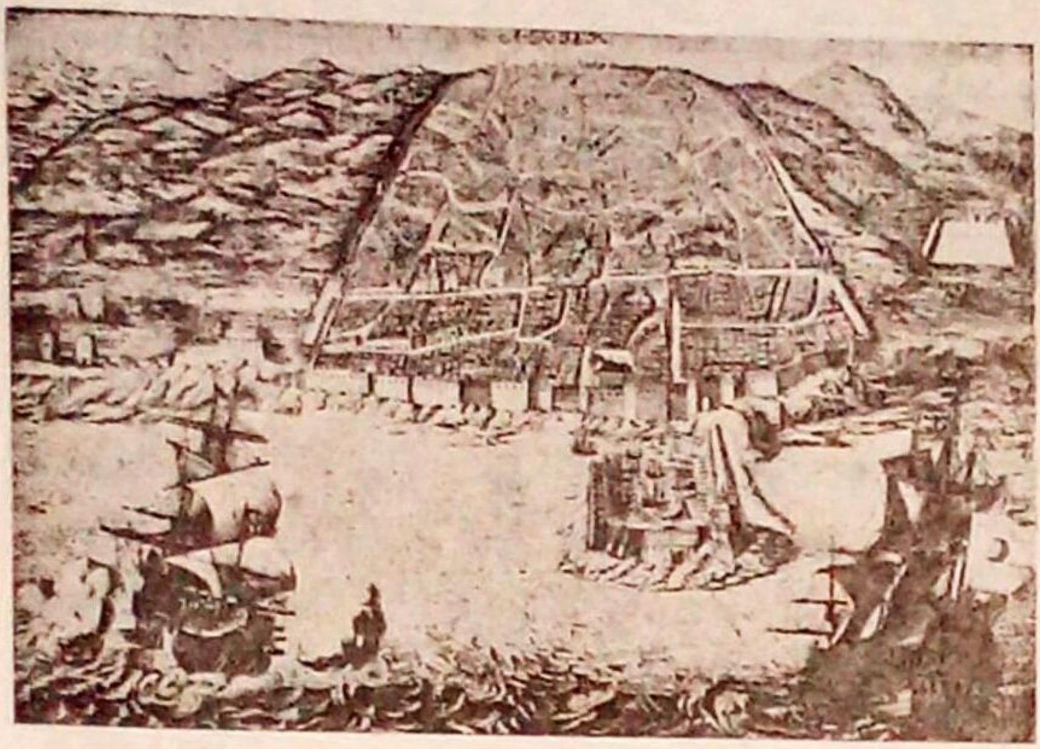

الحرب البحرية ضد الجزائر (١٥٤١)

نعم كثيرا ما كان البابا بول الثالث يحث شارل الخامس على محاربة الجزائر ويحرض الناس على القتال ببلاد المسلمين لينالوا الجنة . وقال فى ذلك صاحب تاريخ الدول البربريسك ما نصه :

« وكان شارل الخامس متيقنا أنه لا شىء يخلد اسمه الا اذا أخضع تلك الأقطار تحت راية المسيح » (١٠٩) وما شجعه على ذلك الأمر الصادر من بول الثالث (Bulle de ١٥٤١)

وقال فينشون ما نصه : « ان البابا بول الثالث أشهر الحرب على الجزائريين وأن فرانسوا الأول الذى كانت له اذ ذاك علاقات ودية مع الباب العالى لم يبال بهذا الأمر البابوى لكن خصمه شارل الخامس الذى كان يملك أسبانيا وايطاليا والدول الوراثية لمملكة النسا والعرش الامبراطورى عزم على أن يكون هو بطل المسيحية (١١٠) »

وقيل أن سبب عزم شارل الخامس فى المبادرة بالهجوم على الجزائر والعجلة بدون كامل التهيء هو أخذ رؤساء حسن آغا مركبين عظيمين مملوءين نقودا وبضائع وسبى ما فيهما من الزاد والبشر . فاشتد غيظه وقلقه وهيأ الارمادة وهى مركبة من ٤٠٠ أو ٤٥٠ قلقاطة حربية وحاملات العسكر والخيل والمؤن والسلاح . وتحركت الارمادة نحو الجزائر حيث وصلت الى تامندفوست بعد ما رؤيت من الجزائر يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الثانية عام ٩٤٨ ــ ٣٠ أكتوبر سنة ١٥٤١ وأرست يوم الخميس عند العصر . وقيل أنها كانت حاملة ٩٠،٠٠٠ من العساكر و ٤٠٠٠ من الخيل كان يقود العمارة أمير البحر الجنوى آندريا دوريا . اختار شارل

---

(١٠٩) ص ٦٦ ج ١

(١١٠) ص ٢

الخامس فرصة غياب خير الدين فى المشرق ليستولى على البلاد ويحسم مادة القرصنة ويقضى على المسلمين بأفريقيا • ومهما أرس بالساحل الجزائرى كتب بنفسه لحسن قائلا له : « أنا ملك أسبانيا الذى استولى على تونس وأخرج منها خير الدين باربروس الثانى وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك » •

فأجابه حسن قائلا : « ان أسبانيا غزت الجزائر مدة عروج باربروس الأول مرة وفى مدة خير الدين مرة ولم تتحصل على طائل بل انتهبت أموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك ان شاء الله » •

فتروع فى الحقيقة حسن لهذا التهديد وخاف من القوة الهائلة التى أرست أمام الجزائر اذ قال صاحب غزوات عروج ما يلى :

« وخيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة عليهم أنها جبل يسير فى البحر » (١١١)

وهال عليهم الأمر ورعبوا ، فجمع حسن آغا العلماء والأعيان بكل رباطة الجأش واستشارهم فى الأمر وحثهم على الجهاد والصبر واستخف كثرة العدو ولو أنه شعر بالخطر فى نفسه وشجع الناس على القتال والدفاع عن البلاد والدين وزودهم بالسلاح الوافر وصمموا على دفع العدو الذى وعد نفسه أنه لا يغادر الجزائر « حتى نخربها حجرا حجرا ونمحو الاسلام منها » على حد تعبيره (١١٢) • وكتب ثانيا الامبراطور لحسن آغا يهدده ويعده ويتوعده قائلا له : « انى استوليت على تونس مع عظامتها ، قد انتزعتها من يد خير الدين وما بالك الجزائر وان لم

---

(١١١) ص ١١٦

(١١٢) ص ١١٧

سفن شارل الخامس عند هجومها على الجزائر

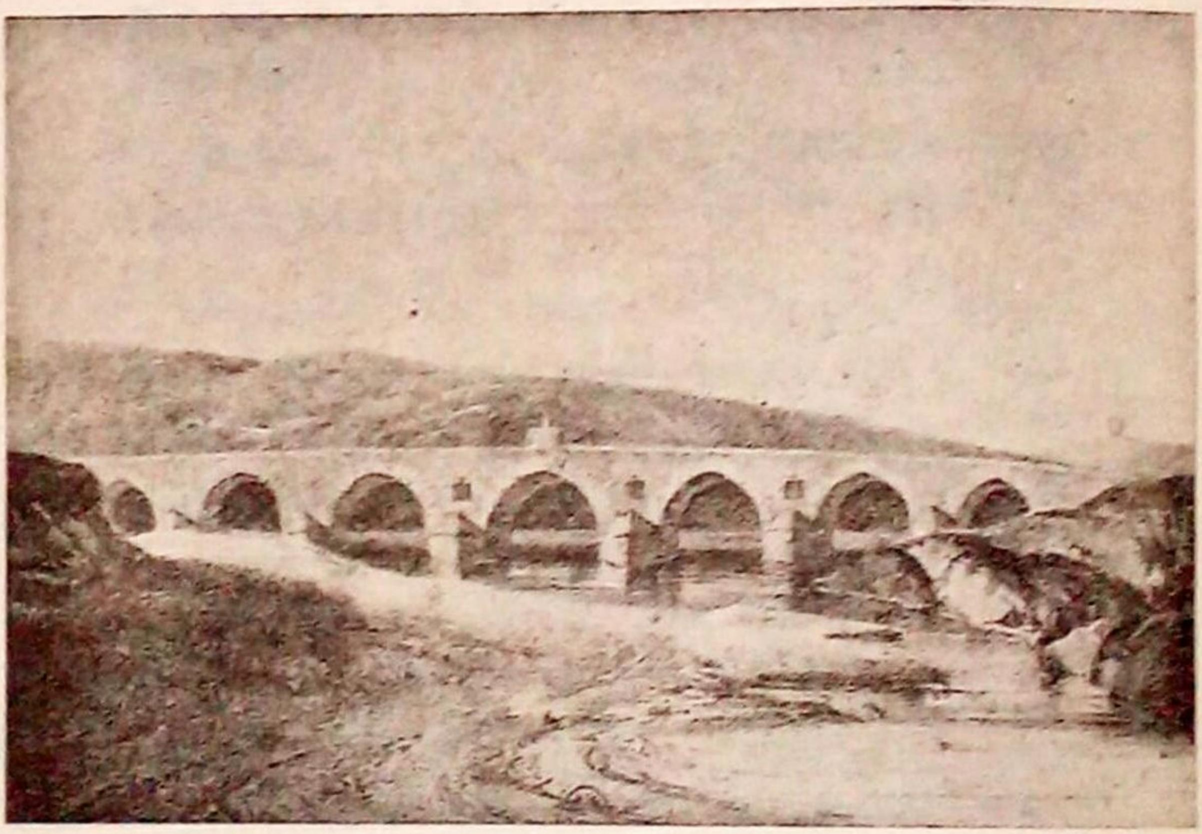

قنطرة الحراش في عهد حسن آغا

يتأت لى أخذها فى هذه الدفعة أطاول حصارها شتاء هذه السنة . فمعى من المال والزاد ما يكفى هذه العساكر الذين معي وان احتجت الى المدد فبلادى قريبة وكل ما احتاج اليه يصلنى فى أقرب مدة وقد أعطيتك الأمان هذه المرة فان قبلته فبها ونعمة ، وان لم تقبله وشرعت فى الدفاع عن المدينة وأرهقك قتالنا الى طلب الأمان منا ، فانا لا نبذله لك . فانظر لنفسك ودبر على من معك . فانت ان عاندت ورفعت رأسك ولم تسل لى ما دعوتك اليه أمرت العسكر يدفعون الى المدينة دفعة واحدة ويقلعونها حجرا حجرا ويقتلون كل من فيها كبيرا وصغيرا . وها أنا قد أعذرت اليك » (١١٣)

ولما وردت هذه الرسالة على حسن آغا وهى رسالة أعظم ملك فى العالم اذ ذاك كان من حقه أن يتزعزع فؤاده لكن شجاعة حسن جعلته يزن خطورة الموقف بدون أن تروعه ولا تجعله يفقد قوة ارادته ولا ايمانه .

وقال هايدو : « لم يظهر ملك فى أى موقف شجاعة أبلغ من شجاعة حسن آغا » (١١٤)

وأخذت الناس تدعو وتصلى وتتضرع لله وتلازم المساجد . وقال عن هذا الموقف الرهيب صاحب فيليقانيون بشيء من الجد وشيء من التهكم : « لكن الله قد أظهر أنه هو الأكبر . واذا كان الشيوخ والنساء واضعين جبهاتهم على المرمر فى المساجد داعين الله فى الصلوات فسمعهم الله وأظهروا البرهان الذى كانوا يترجونه » (١١٥)

---

(١١٣) غزوات عروج ص ١١٥ وما بعدها

(١١٤) ملوك الجزائر ص ٢٢٨ من المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠

(١١٥) ارثور هولار ص ٦٢ – ١٨٩٧ Arthur Hulhard - Paris 1897

نعم لم يكن شارل الخامس ليعرف وضعية الجزائريين وشدة نفسيتهم • وحين فرغ حسن من استشارة المجلس بعد تحققه من عزم الجزائريين المتصلب ، جاوب الطاغية بكتاب شديد اللهجة يناسب كلامه المتعجرف المملوء بالسب والغلظة • وكان جوابه بالتركية • في الحقيقة كان حسن آغا يقابل في عادته الحوادث بكل شجاعة كيف ما كانت خطورتها لما عوده خير الدين على ذلك في المواقف الحرجة التي كثيرا ما كانا يشاهدانها أثناء حروبهما • وقال هايدو:«لم يظهر أي ملك في أية حالة من الأحوال أكثر شجاعة وحنكة وتبصر مثلما أظهر في تلك الظروف مع الحصار الذي مده عليه أمير أقوى من الامبراطور شارل الخامس الذي أتى بأسطول هائل وجيوش عرمرمة وأظهر أكثر شجاعة ، آتية من جميع الأمم المسيحية بينما كان حسن يتوفر على أقل من ٣٠٠٠ جندي تركي في وسطهم أهل الأندلس وعرب ولم يتزعزع في عزمه وأخذ يشجع وحده الجمهور ويرفع معنوياتهم راكبا فرسه وهو يجوب شوارع المدينة في وسط أهلها وهم مكتئبون » (١١٧)

ولما أطلع الامبراطور على جواب حسن اغتاظ واستشاط • فتحرك في الحين واستولى على برج مولاي حسن الذي هو فور لامبرور وكان يسمى أيضا كدية الصابون كما ذكرناه • فخرج المسلمون لمحاربة العدو ووقع قتال شديد كانت الحرب سجالا بين الجيش وانتصر المسلمون في بعض الأحيان • وكانت شجاعة حسن تؤدي به الى محاربة جيش العدو في وسط شوارع المدينة قرب باب عزون • ولما وصل فرسان مالطة تصدى لهم حسن

---

(١١٦) ص ١١٩

(١١٧) المجلة الافريقية سنة ٧٨٨٠ ص ٢٢٨

وقتل لهم مائة وخمسين فارسا من الفرنسيين (١١٨) فدخل الرعب في قلب شارل الخامس الذى لم يكن يتوقع هذه المعارضة الشديدة من جانب المسلمين . فنزل من برج مولاى حسن ليحارب حسن . فلقى صفوفا متراصة حتى انسحب وأسرع نحو رأس ماتيفو حيث التجأ بايعاز من حشيته خوفا عليه من الأسر أو الموت .

لكن الأمر الحاسم لهذه القضية التاريخية التى كانت فى الحقيقة على الصعيد الدولى ، هامة جدا ، هو أنها كانت قاطعة بالنسبة لتاريخ الجزائر العاصمة والقطر الذى أخذ يكون من ذلك التاريخ وحدته بعدما بعثرت بسبب انحلال ملكي الزيانيين والحفصيين .

ومن ظروف هذا الحادث هو أن الله تعالى أنزل فى تلك الليالى أمطارا غزيرة وهبت عواصف شديدة « وهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتدت أمواجه وكثر الاضطراب ما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تتكأ يمينا وشمالا .. فغرق كثير من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة .. فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا » (١١٩) فقال بعض المؤرخين بكل جد أن شارل الخامس هيأ كل شيء لينتصر على الجزائريين الا مصلحة الأرصاد الجوية . وقد حالت الزوبعة بين الأعداء ، الهاجمين ظلما على بلاد المسلمين وبين مؤنهم الذى بقى فى المراكب ، وكانت هذه تلاطمها الأمواج بحيث كادوا أن يموتوا جوعا . فأخذوا يذبحون خيلهم الجياد منها وحاملة الأثقال وراموا التختل ليهربوا ملكهم واختلقوا الحيل حتى أفلت من يد المسلمين وفرت السفن وحل بالامبراطور غيظ شديد كاد

(١١٨) سمى هذا المحل قبر الفرسان ويقول له اهل الجزائر قنطرة الافران
(١١٩) غزوات عروج ص ١١٥ وما بعدها .

أن يكون جنونا وأخذ يزبد ويرعض . فنزع تاجه من رأسه وألقى به على الأرض وقسم يمينا ألا يرده على رأسه حتى يستولى على الجزائر ويدكها دكا ويردها رميما ، فلم يستجب الله أمنيته ..

ولما كانت العاصفة تتلاطم أمواجها حتى كادت أن تغرق السفن وجه عند فتورها أندريا دوريا مركبة تحمل رسولا الى الامبراطور بالرسالة الآتية من عنده :

« الى الاسمى الذى لا يغلب الامبراطور شارل الخامس . ملكى وسيدى وولدى العزيز ، بفضل المحبة التى أكنها له فى قلبى ،

امبراطورى وولدى ! ان المحبة التى فى قلبى لكم تلزمنى الى انذاركم أنه اذا لم تغتنموا فرصة الهدوء الذى يمنحكم اياه السماء لكى تنسحبوا فان الجيش البحرى والجيش البرى المعرضين للجوع والعطش وشدة بأس العدو يضيعان بدون زاد ولا تصرون فى العملية وفى المشاريع التى عزمتم عليها رغم التوصيات الحكيمة التى بذلها لكم ذلك الذى تشرفونه بلقب الأب والتى منحها لكم كأب لابنه من صلبه . فانسحبوا نحو رأس تامندفوست حيث أقدم لأحملكم الى البحر فاني أعطيكم هذا الرأى أنتم مولاى واذا لم تتبعوه فاستمروا فى اصدار أوامركم الي فاني سوف أفقد بكل سرور عند امتثالي لأوامركم ، ما بقي لي من الحياة التى كرستها فى خدمة أسلافكم » (١٢٠)

وقيل أنه هلك للعدو فى المعسعة وفى الزوبعة ١٢٫٠٠٠ محارب و ٤٠٠٠ من الخيل من غرقى ومذبوحة لتغذية العساكر بلحومها .

---

(١٢٠) ص ١١ و ١٢

وقد استشهد ٢٠٠٠ من المجاهدين المسلمين بين أتراك وعرب وبربر .

وأبحرت السفن الباقية بما تخلف من الجنود نحو ١٥٠ وحدة واستراحت الجزائر من قبضة العدو الجبار الذى تلقى درسا قاسيا لم يتقدم أن أخذه فى حياته . وكان فى الحقيقة ضربة ربانية له ولأعداء الاسلام الذين كانوا عازمين على محوه .

ولما خرج الأسطول من مرسى الجزائر وتوجه نحو بجاية ليلتجىء اليها خوفا من استمرار هيجان البحر ومن متابعته من طرف مراكب حسن آغا أو قدوم أسطول خير الدين . وبعد مكوث شارل الخامس مدة ببجاية لترقيع الفتق والاستراحة من عذاب الهزيمة واصدار الأوامر لاصلاح مؤسسات الأبراج الدفاعية التى وجدها فى حالة تخريب ، غادر بجاية متوجها نحو برشلونة بعدما انفصلت بعض القطع من الارمادة وتوجهت الى ايطاليا . دخل هو الى أوربا مخجولا مذموما محتقرا من جانب رعيته وعرضة لتهكمهم وسخريتهم وهجائهم الحاد وخصوصا منهم أعداء نظامه . ولم يستطع قطع ألسنتهم رغم التبرعات والهدايا التى ما برح أن يبذلها لهؤلاء . (١٢١)

وقد أذيع صيت الجزائر اذ ذاك فى أرجاء العالم حيث تيقن الأجانب بعدم غلبها وقال صاحب غزوات عروج وخير الدين ما نصه :

« وبقيت الجزائر كالعروس تختال فى حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه

---

(١٢١) ص ٦٦ بيليسي « Pélissier »

القضية فى مشارق الأرض ومغاربها وبقى رعب المسلمين فى قلوب الكفار مدة طويلة بقدرة العزيز القهار » • (١٢٢)

وبعد هذا الانتصار الباهر كتب حسن آغا رسالة للسلطان سليمان القانونى أخبره فيها بما جرى وبظفر جيوش المسلمين • فتلقى الرسالة خير الدين الذى حملها بنفسه للخليفة • ففرح بذلك ووجه الى حسن آغا حلات له ولأعوانه الأبطال منهم الأتراك والعرب والبربر وخصوصا منهم رؤساء البحر الذين امتازوا بشجاعتهم وتفانيهم كحيدره والخدير وكجد علي وغيرهم •

اذا حللنا هذا الحادث العظيم الذى لم يعره بطبيعة الحال المؤرخون الأسبان والفرنسيون كل الاهتمام الذى ما برح أن يؤثر فى أمور البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وآسيا الصغرى ، فانه والحق يقال ، ان لم يكن فى الظفر كل الشرف للجزائريين ، فانه عرض بقدرة الله وقوته الذى أراد أن ينهزم ذلك الجبار العنيد الذى كان عزمه الوحيد ابادة الدين الاسلامى ودثر الجزائر ومحو كل أثر القومية العربية الافريقية فأثار الله تعالى تلك الصواعق التى شتتت شمله ورجع مخجولا مذموما فى أعين أعدائه بأوروبا وخصوصا أمام عدوه اللدود فرانسوا الأول وارتكب فى الحقيقة شارل الخامس خطأ جسيما عند مهاجمته الجزائر اذ شرع فى الحرب بشهر نوفمبر أى فى فصل يكون فى غالب الأحيان البحر هائجا ولو أنه نزل بجيوشه ومؤنه وخيله • كان يحاربه الجزائريون على ترابهم الذى يعرفونه أحق المعرفة وخصوصا كان يعينهم فصل الشتاء على الدفاع عن البلاد • ونعلم أن الامبراطور هيأ الحرب بدون استعداد دقيق رغم نهي أندريا ومستشاريه وقواده وحتى

---

(١٢٢) ص ١٢٢

البابا على المغامرة وطلب كل هؤلاء أن يؤجل الهجوم بذلك الأسطول الهائل الذى يستلزم استعدادا طويلا وظن أنه يلاقيه الانتصار كما لاقاه بتونس سنة ١٥٣٥ تلك السنة المشؤومة على المسلمين •

واشتغل حسن آغا بعد ذلك (١٥٤٢) باخماد نار الفتن التى كان أضرمها المشوشون فى كافة أنحاء القطر بايعاز من العدو وفتك فى القبائل فتكا ذريعا حتى رد الامن الى نصابه • ونقول بهذا الصدد أن الحسين بن القاضى نفسه أراد أن يضرب جيوش حسن من القفاء لكن خاب أمله اذ أن النجدة التى أتى بها لمساعدة شارل الخامس تأخرت فوجدت جيوش الامبراطور قد انهزمت أشر انهزام ، فأسرع ابن القاضى بالرجوع الى جباله حيث وصل اليه حسن وألزمه على الطاعة وأداء الزكاة والغرامة واعطاء ولده أحمد رهينة وهو فتى عمره خمس عشرة سنة •

وبعد استتباب الأمن وسير الأمور الى مجراها ، توفى حسن فى شهر سبتمبر سنة ١٥٣٤ ، جمادى الثانية عام ٩٥٠ بالجزائر رحمه الله ودفن فى مقبرة باب عزون كما مر بنا • فخلفه حسن باشا بن خير الدين •

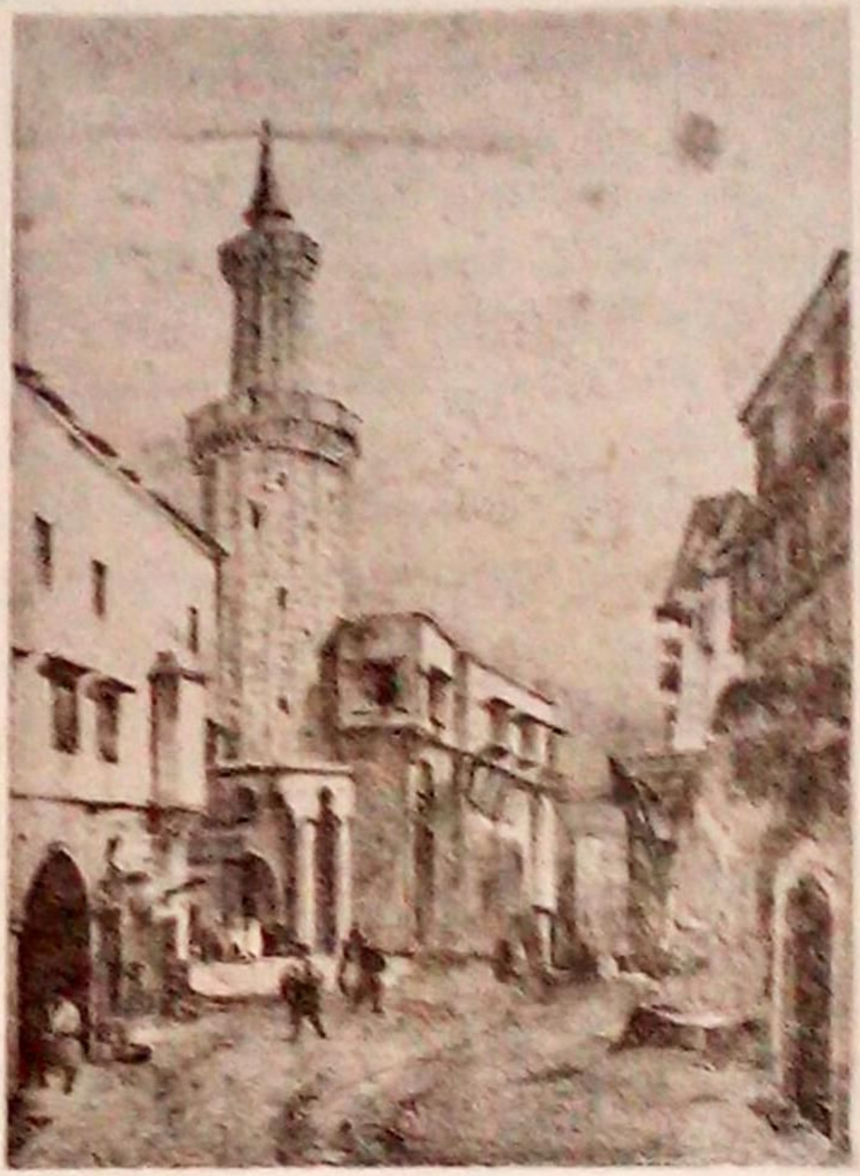

شارع باب عزون حيث دفن حسن آغا

امارة حسن بن خير الدين

لما كان خير الدين باسطنبول طلب الخلعة لابنه حسن الذى كان مقيما معه . وقد كثر طلاب المنصب لما رأروا فيه من النفع والفوائد وجمع الأموال . فأجيب الى طلب خير الدين لما أسداه هو والعائلة كلها من الخدمة للعرش العثمانى والاسلام . فسمي حسن ابن خير الدين « باى لرباى » أى باى البايات بالجزائر حيث توجه باثنى عشر مركبا مشحونا بالجنود الانكشاريين الأتراك الذين تطوعوا ليصحبوا حسن . سعيا فى اكتساب الرزق والمغامرة .

وكان حسن ماهرا فى أمور البحر اذ كثيرا ما كان يصحب أباه أو يكلفه بالمهمات الخطيرة .

وكان حسن قرغليا أمه عربية من بنات أحد أعيان الجزائر وكان متزوجا بقبائلية من بنات الحسين بن القاضى وكان يعطف على العرب والبربر .

وقد حل حسن بالجزائر فى أواخر سنة ١٥٤٤ وفى الفترة المتراوحة بين موت حسن آغا وتولية حسن بن خير الدين استولى الملوك السعديون على تلمسان لكن بمجرد ما أخذ حسن زمام الحكم توجه اليهم وأرغمهم على اخلاء المدينة فخرجوا منها ودخلها حسن وأصلح أمرها ثم رجع الى الجزائر ورتب الادارة والحكم والتجارة وساد الأمن فى البلاد وعمر بيت المال .

واذ كان أخواله عربا كان يعطف على أهل الجزائر الأهليين ويسمح للعرب بالدخول للمدينة قصد البيع والشراء مسلحين ، الأمر الذى كان يمنعه بتاتا الأتراك . فاشمأز الانكشاريون من ذلك وقيل أن الجيش قد طلب عزل حسن لتفضيله العرب عليهم . فقبضوا عليه وقيدوه ووجهوه الى اسطنبول . ثم رد الى منصبه المرة الثانية . وكان ذلك الحادث يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٥١ وبعد رجوعه الى الجزائر بقليل فى المرة الثانية أتاه نعى وفاة أبيه خير الدين سنة ١٥٥٦ ومن الغريب هو أن الذى أعلمه بالوفاة الملك فرانسوا الأول الذى وجه اليه سفيرا فى فلقاطة حربية ليخبره بموت أبيه ويقدم له تعازيه .

وبقى حسن على ولاية الجزائر حتى عزل المرة الثانية بايعاز من الوزير الباشا رسطان أحد أصهار السلطان سليمان . ولا شك أن فرنسا أيدت عن بعض أقوال المؤرخين عزل حسن الذى كان يتعرض لسياستها الاقتصادية بالجزائر (١٢٣) أما السبب الرئيسي فى عزله هو أن الوزير المذكور كان يريد الاستيلاء على حمام تركه خير الدين لورثته بالاستانة . فطلب منه رسطان أن يهبه له فرفض حسن فترقب الوزير الفرصة حتى ورد على الخليفة تشكى الفرنسيين من تصرف حسن معهم فعزله السلطان المرة الثانية . ثم بعد مدة أقامها باسطنبول أشار اليه أصحابه بأن يهدى الحمام للوزير ففعل ورد الى منصبه سنة ١٥٥٧ .

وفى سنة ١٥٦٥ عاون السلطان العثمانى على محاربة فرسان مالطة ، فرسان القديس يوحنا الذين كانوا فى رودس كما تقدم

---

(١٢٣) عن المؤرخ الفرنسي ارنيست لافيس طلب سفير فرنسا باسطنبول (دار أمون) من الخليفة عزل حسن . ص ٨١٢ ج ٤

القول عنهم . لكن انهزم الأسطول التركى رغما عن البطولة التى أظهرها الجزائريون .

وبعد مدة عزل حسن للمرة الثالثة رجع الى اسطنبول حيث توفى سنة ١٥٧٠ رحمه الله ودفن قرب أبيه وكان عمره ٥٥ سنة .

كان حسن قصير القامة أبيض اللون كثيف الحاجبين أسود اللحية وكان ألثغ جميل الكلام يحسن عدة لغات يتكلم بها كأنه من أبنائها وخصوصا منها الأسبانية التى كان ماهرا فيها أحسن من الأسبانيين أنفسهم . وكان حسن الأخلاق يحبه جنوده وحاشيته الا ما وقع له من الحوادث فى أول أمره مع الجند .

صالح رئيس

وبعد عزل حسن بن خير الدين ولي خلفه صالح رئيس ، اختاره السلطان العثماني لسوابقه الحسنة اذ كان نوتيا في خدمته ، وهي مهمة خطيرة لم تسند الا لمن كان يضع الخليفة الثقة التامة فيه حيث أنه كان يتولى رئاسة المركب الحامل للسلطان وحرمه عند خروجه الى البحر .

وتوجه صالح الى الجزائر في ٣٠ أبريل سنة ١٥٥٢ على رأس عشرة مراكب . وقيل أنه كفله خير الدين . وذكر بعض المؤرخين أنه كان عربيا مصريا من الاسكندرية أخذه خير الدين صغيرا ورباه وكونه وحسن تربيته ، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يقولون أنه ولده وأصبح بفضل رأيه السديد من مستشاريه وأصحاب أسراره .

وحينما أخذ زمام الحكم تصدى لبجاية لينتزعها من يد الأسبان فأخذها بعد أربعة عشر يوما من الحصار الشديد والتدمير والقصف المستمر غير المنقطع حتى هدم البروج وقتل من في المدينة من الجنود الأسبان وقبض على قائد الحصن الخرال دون ألفونسو

دي بيرالدة (١٢٤) كما استولى على قسنطينة ثم توجه الى تلمسان فطرد منها الزيانيين بصفة نهائية بدون رجعة فاندثر أثرهم تماما وذلك سنة ١٥٥٥ بعد ما علا شأنهم فى عهد يغموراسن ومن خلفه الى آخر ملوكهم الذين تحالفوا مع العدو وكان مولاى الحسن آخرهم التجأ عند الأسبان بوهران حيث مات بالوباء • أما ولده فتنصر على يد شارل الخامس الذى أسماه باسمه « كارلوس » وانتقل الى أسبانيا حيث مات فى عهد الملك الأسبانى فيليب الثانى فى خمول وخجل مرتدا حقيرا •

وعت بعد ذلك الطاعة لصالح وخصصت الجزائر كلها من حدودها الشرعية والتاريخية للاتراك من وجدة الى الكاف (١٢٥) •

وتوفى صالح رئيس وخلفه حسن بن خير الدين مرة أخرى ولاه الباب العالى على القطر كباى لرباى •

وأخذ القطر الجزائرى فى عهدهما اسم الجزائر والعاصمة أطلق عليها نهائيا اسم الجزائر • ولم يستعمل لفظ مزغنة من ذلك العهد • وسمى الأفرنج البلاد « أرخيليا » " Argelia " عند الأسبان

---

(١٢٤) دام حكم الاسبان على بجاية ٤٥ سنة واخلوها سنة ١٥٥٥ بعد ما اعطى صالح رئيس الامان لواليها الذى اطلق سراحه وعدد من المحاربين الاسبان . ولما رجع الى اسبانيا حاكمه شارل الخامس على استسلامه ، فحكم عليه المجلس الحربى بالاعدام فقطعت رأسه . وكان فى الحقيقة هذا الحكم الشديد غيظا على فقدان المرسى الهام الذى كان يجعلهم يراقبون به وسط البحر المتوسط ولم يجدوا سبيلا الى الانتقام الا باصدار هذا الحكم القسي على ضابط قام بواجبه ولم يرتكب خيانة ازاء وطنه انما انانية اسبانيا هى التى اثارت هذا الموقف المتصلب العنيد لرؤساء الاسبان اذ ذاك .

(١٢٥) مما لفت اليه النظر هو ان صالح رئيس كثيرا ما اعتنى بحل لغز وجود قبر الملوك الموريطانيين قرب تيبازة وحاول اجراء الحفر ليدخله ولم يفلح وضرب جدرانه بالمدفع لا زالت آثار الضرب بالقنابل موجودة الى الآن .

و « الجيرى » " Algérie " عند الفرنسيين والجيريا والجي عند الآخرين " Algiers - Algéria " وأضافوا الى الاسم لفظ ريجانس Régence أى الوصاية يعنون بذلك وصاية الباب العالى على الجزائر يقصدون بها الحماية

تقسيم الجزائر الادارى فى عهد الاتراك

قسمت الجزائر فى عهد الأتراك الى أربع ولايات :

أولا ــ ولاية الجزائر العاصمة التى كانت تسمى دار السلطان وهى قاعدة الملك ومقر الامارة والديوان أو الوجاق كما كانوا يسمونه . وكان الأمير يسمى باى لرباى ابتداء من خير الدين لقب بلقب الباشا وأعطى نفس الاسم لخلفه أى حسن آغا وحسن بن خير الدين وصالح رئيس ثم بعد ذلك أصبح الأمير ينتخب من طرف مجلس الشورى ويعزل منه الا أن المبايعة كانت للسلطان العثمانى الذى كان يصادق على انتخاب الأمير الذى حمل لقب الداى بتفخيم الدال لعل اللفظ عربى وهو الداعي أى والي الثغور المكلف بدعاية الاسلام .

ثانيا ــ ولاية تيطرى

ثالثا ــ ولاية قسنطينة

رابعا ــ ولاية معسكر ثم حولت الى مزونة حتى طرد الأسبان من وهران سنة ١٧٩٥ فنصب اذ ذاك والي الجهة الغربية بوهران .

وعلى رأس كل ولاية وال يطلق عليه اسم الباى الا دار السلطان التى كان يتولى الداى الحكم بها على وجه الخصوص .

وهؤلاء البايات كانوا متساوين فى الرتبة والعمل والمسؤولية ، يرجعون فى أمورهم الى الداى وهم حكام فى ولاياتهم يجبون الزكاة ويقضون بين الناس ويدبرون الادارة ويراقبون ويرتبون الجيوش ويحافظون على الامن ويخبرون الداى ويستشيرونه فى الأمور السياسية ويعلمونه بالشادة والفادة بأعمالهم ويتلقون أوامره فى المهمات . وكان هذا بعد انتخابه من طرف مجلس الشورى يوجه اليه الخليفة العثمانى باشا ليمثل الحكم المركزى للخلافة .

ولما تولى بابا على باشا بالانتخاب منصب داى الجزائر وجه الى الخليفة العثمانى أحمد ، عريضة أخبره فيها بالمضار التى تحصل بسبب ازدواج النفوذ بالجزائر وما ينجر عنه من فساد النظام واحداث النزاع والتشويش . فقرر الباب العالى أنه لم يبق الا الداى المنتخب من طرف مجلس الشورى ، يمارس السلطة بالجزائر . فأصبح له الحق أيضا فى عزل الموظفين وتعيينهم الا أنه احتفظ الباب العالى بحق المصادقة على الانتخاب واثبات الداى المعين وتوجيه الحلة اليه وعلى الداى قول الخطبة والدعاء والبيعة للسلطان .

ونعلم أن الدولة الجزائرية قد نالت قوة وسطوة وعلا شأنها وارتفع نفوذها وكانت الدول الأوروبية على كثرتها وقوتها وطول باعها تدفع لها أموالا مضروبة عليها كل سنة لحماية ثغورها الا أسبانيا التى كانت بعجرفتها وأنانيتها تتملص من الجزية فى بعض الاحيان حتى يخضعها الداى ، فتؤدى ما قد ترتب عليها من الاتاوة منذ أن أوقفت أداءها .

قصر الداي في أعلا القصبة المشرف عليها

تأثير الأتراك على الحوادث بافريقيا

ان ظهور الأتراك كان فى الحقيقة ردود فعل المسلمين المغاربة على طرد النصارى أهل الأندلس وعزمهم على احتلال البلاد الأفريقية ، والأتراك قد أوقفوا والحق يقال ، الأسبان وحتى البرتغاليين من الانتشار فى أفريقيا وأرغموهم على المكوث فى الشواطىء الى حد أنهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد • وحتى أنهم كانوا مسيطرين على وهران والمرسى الكبير وغيرهما من الموانىء الجزائرية ، كانت اقامتهم تقلقها غارات المسلمين ، وكانت حصونهم محمية جدا يلزمهم الدفاع عنها مصاريف طائلة وتجنيد عدد عديد من الجيوش من الأسبان والأهالى أى عرب السلم كما بيناه فيما قبل ، وكان الجيش الأسبانى دائما على حذر وبالمرصاد حتى ضاق بهم المقام واضطروا الى مغادرة البلاد الافريقية بفضل الضربات التى كانوا يتلقونها من جيوش الأتراك • ولولا الأتراك للحق بالاسلام فى المغرب الانحلال وربما يحاول النصارى اذا هم تقووا أن يمحوه ويكرهوا المسلمين على التنصر لأن احتلالهم للتراب المغربى كان احتلالا دينيا • وكانت تصرفاتهم مشوبة بالعصبية والتعنت الدينى • شغلهم الشاغل محاربة الاسلام ومحاولة محوه بتاتا ، لكن الأتراك لم يتركوا لهم مجالا لتنفيذ مرامهم ومن حسن الحظ لقي شارل الخامس طول أيام ملكه المعارضات من طرف الملوك الأوروبيين والبابا حيث كان يريد أن

يتسلط ويفرض سياسته عليهم بحيث تركت الحروب التى كان يشهرها بأوروبا ، البلاد المغربية فى مأمن نسبيا ، من لطف الله الخفى ، وأن فرضنا أنه لم يكن مشتغل البال بأوروبا وحشد جيوش أوروبا التى كانت خاضعة له برمتها وأطلقها على أفريقيا لكانت تعوم عليها وتفتك فيها وتحاول منع القيام بالشعائر الاسلامية وتفرض دين المسيح • ولم يشر ولو مؤرخ واحد الى هذه الوجهة من تأثير الأتراك واشتغال شارل كان بأوروبا على مر الحوادث ومآل البلاد المغربية • وصبغة حروبه الدينية ضد الاسلام تابعة للحروب الصليبية السابقة •

ونذكر الكلام عن الهجومات الخطيرة التى وجهها الامبراطور على الجزائر وهى ثلاث • أولاها فى سنة ١٥١٦ على يد ديقو دى فيرة ، والثانية على يد هيقو دى مونكاد سنة ١٥١٨ ، والثالثة أجراها الامبراطور بنفسه سنة ١٥٤١ • وكان هذا الهجوم يقع سنة ١٥٣١ بايعاز من خيمينيس لكن فضل الامبراطور أن يهيء له التهيء الدقيق حتى يتحقق بالظفر لكن ذهبت جهوده سدى •

اذا أمعنا النظر فى حالة الجزائر فى ذلك العصر فنقول أن تدخل الأتراك كان له تأثير عميق فى توحيد بلادنا التى كانت تسودها الفوضى والشقاق • ولما أتى الأتراك فوحدوها وجمعوا شملها وأزالوا تلك الممالك والطوائف والامارات والزوايا ومشيخات العرب الرحل التى كانت تفرض على الرعية الغرائم الثقيلة • وقد أعطوا الجزائر الاستقرار اللازم النسبى لذلك العصر سمح فى تضميد جروحها ووضعوا حدا للتقلبات التى كانت تثيرها الحروب المدنية والفتن ، كما أحبط الأتراك أطماع الأسبان الذين كانوا على وشك التسيطر التام على الجزائر والبلاد المغربية •

كان عمل عروج وخير الدين أشد تخريبا للشواطىء الأسبانية وربما كانا يحتلان أسبانيا ويكون تخريبهما أشد خطورة ويجرى بواسطة سفن أكثر عددا لو كانا مسيطرين على المرسى الكبير ووهران اللذين هما موقعان أعظم أهمية بالنسبة للحماية على الجزيرة العبرية ووقايتها .

وقد أعان الأتراك الملوك السعديين المغاربة على طرد البرتغاليين من الساحل المغربي وكان لهم الفضل فى الهزيمة التاريخية الشنعاء التى كبدتها الجيوش المغربية القوات البرتغالية بوادى المخازن سنة ١٥٧٨، المدعوة بمعركة الملوك الثلاثة حيث هلك ثلاثة ملوك (١٢٦).

وبفضل عمل الأتراك ضعفت شوكة الزوايا التى كانت مستفحلة على البلاد وأحيوا نور الاسلام بالجزائر وحسنوا الأخلاق التى كانت منحلة ووضعوا ادارة نظامية صارمة لم تقبل فتورا ولا عصيانا بسبب شدة حكمهم وقساوته ، مستعملين فى بعض الأحيان العنف . انما الأمر الذى يؤاخذون عليه ، هو عدم تشجيع التعليم وشدة الاعجاب بأنفسهم . فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم من جنس أشرف من العرب والبربر وبالغوا فى التمييز والعنصرية حتى كانوا يعتبرون أبناء التركى والعربية أو البربرية

---

(١٢٦) معركة الملوك الثلاثة وقعت يوم الاثنين ٢٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦ (٤ غشت ١٥٧٨) حيث هلك السلطان السعدى عبد المالك بن محمد الشيخ وابن اخيه محمد بن عبد الله المدعو المسلوخ ودون سيباستيان ملك البرتغال وقد أظهر فى الحقيقة عبد المالك مهارة بالغة فى جلب « الطاغية » والفرض عليه الحرب فى موضع اختاره هو . فوقع المسيحى فى الشرك وانهزمت جيوشه ، أشر انهزام ، فى وادى المخازن قرب القصر الكبير غير بعيد عن البحر المحيط فى المغرب الأقصى .

كتركي ناقص كالحر الثاني يسمونه قرغليا . اننا لا نجد أحسن ما قاله ميرسى فى تاريخ أفريقيا الشمالية عن تأثيرهم على الجزائر (١٢٧) .

« وصف حالة المغرب بايجاز »

« ان الحالة التى كانت عليها البلاد البربرية حوالى سنة ١٥١٥ والتى وصفناها أعلاه تبين لنا الى أية درجة من الفوضى وصلت اليها شعوبها والى أى تشتيت بلغت اليه السلطة اذ ذاك .

انها لفترة انتقالية لكنها حاسمة بالنسبة لتاريخ شعب لا يجتازها الا بالقيام بالتجديد أو بالخضوع لسيطرة ما .

أما التجديد فلا يمكن تحقيقه الا بفضل دافعين قويين : الوعى الوطنى العميق أو الاصلاح الدينى ، مع أن التجديد لا يتم الا بفضل عاملين : الزمان والبيئة .

اذاً كان بالنسبة للمغرب الاستعباد هو السبيل الحتمي .

نعم فى الوقت الذى كادت المسيحية تحققه لفائدتها سنحت الفرصة للاتراك أن يفرضوا سيادتهم على الجزء الأوفر من البلاد بينما استولى الأشراف على المغرب الأقصى .

حقا يمكننا أن نؤاخذ الأتراك على سوء سلوكهم فيما يخص مبادىء الحكم وطرقه لكننا لا ننكر لهم عبقريتهم فى تلك الظروف الحساسة التى تجعلنا نعجب من شدة التبصر الذى تفهموا به

---

(١٢٧) فعندما نصب رمضان باشا امير الجزائر مولاى عبد المالك السعدى على عرش مراكش الذى خلعه منه عمه مولاى عبد الله رجع الى الجزائر تاركا للملك القامس الجنود زواوة من القبائل وللالمانة من الجنود الاتراك وشارك الجيش فى معركة وادي المخازن قرب القصر الكبير كما اخبر بذلك هايدو بتفصيل (انظر المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠ ص ٤٢٧)

الوضع واستغلوا الموقف مع ضعف الوسائل المتوفرة لديهم حتى كانت نتائج ذلك حماية البلاد البربرية من سيطرة الدول المسيحية خلال ثلاثة قرون .

هذا هو المعروف الذى أسداه الأتراك للاسلام ، وأى معروف! وليس من شأننا أن نعترف لهم بالجميل على ذلك ، انما يفرض علينا الانصاف الاعتراف بأن الأتراك قد طردوا الأسبان من مستعمراتهم فى ظرف مدة غير طويلة وأخضعوا لسلطتهم الأمراء ورؤساء القبائل والمشوشين الذين كانوا يتطاحنون على النفوذ وأعادوا للبلاد ادارة نظامية ما يسودها الأمن » (١٢٨) .

وقد عرقل والحق يقال ملك فرنسا فرانسوا الأول محاولات الأسبان فى الاستيلاء على أفريقيا لأن محالفته مع سليمان القانونى كانت سبب ضعف الأسبان . وقد قال عن ذلك الكونت الكاوديتى حاكم وهران للامبراطور شارل الخامس فى رسالة وجهها له فى غشت سنة ١٥٣٦ : « ان لم تستطع جلالتكم القيام كما ينبغى بالحرب الصليبية المقدسة التى كانت شهرتها على الكفار (يعنى المسلمين) فكان السبب فى ذلك ملك فرنسا . فاننا نتألم لذلك لأننا نعلم أننا كنا نعمل هذه السنة أمورا هائلة بأفريقيا » . (١٢٩)

فعلا كان من حسن حظ أفريقيا وحتى تركيا ، الخلاف الخطير القائم بين فرانسوا الأول وشارل الخامس مدة ملكهما رغما عن محاولة الكنيسة فى وضع التوازن بين العدوين اللدين لئلا تغضب أحدهما . ومن لطف الله الخفى نشبت تلك العداوة التى جعلت الأتراك والأفارقة متريحين نسبيا رغم الضربات التى كان

---

(١٢٨) تاريخ افريقيا الشمالية لميرسى ج ٢ ص ١١ و ١٢

(١٢٩) المجلة الافريقية ١٨٧٧ ص ٢٠٦

يعطيها الأسبان لأفريقيا ويريد تشتيت شملها والتفريق بين أمرائها وضرب الواحد بالآخر وزرع الفتنة والتشويش • وقد وجد السلطانان سليم وسليمان الأخوين باربروس يشغلان الجنود الأسبان المنحصرين فى مراكزهم الأفريقية الشمالية ولو لم يجدوا مؤازرة « عرب السلم » وتأييدهم لأخرجهم عروج وخير الدين من أفريقيا بسهولة • وكانت وسائلهم ضعيفة حتى وصلوا الى منتهى الفقر وقلة ذات اليد الى حد أنهم كانوا يلجأون الى الاغارة بمعاونة العرب على البلاد الداخلية المغربية ليعيشوا ويؤجروا جنودهم •

لقد امتاز الحكم العثمانى فى الجزائر بالشدة والقساوة ماديا وأدبيا ، لكنه رغم ذلك ترك لنا تراثا لا يستهان به فى هذين الميدانين • فانه فوق كل شيء أبعد ، بالحروب البحرية ، الاستعمار الأسبانى والبرتغالى من المغرب العربى ، وأحبط مطامحه الشريرة ووضع حدا لنفوذ الطوائف الصوفية وآزر السلطان سليمان القانونى فى الظفر الباهر الذى فاز به بعد اعطاء الضربات القاسية لأساطيل أوروبا المتحالفة ، لكنه هيأ الجو بأعمال القرصنة للاستعمار الثانى العصرى الذى أذاقت بلادنا أكثر من غيرها مرارة سمه ، وذلك لأنك رأيت بلادنا قد غلت دون غيرها فى الأعمال الحربية البحرية ، وجدها فى الحقيقة الأتراك مستعدة لذلك النوع من الحروب لأنه شاهد عند أسلافنا بعض الأخلاق المتشابهة بأخلاق الأتراك •

تلك الفترة التى استولى فيها الأتراك على الحكم بالجزائر جعلت الجزائريين يفقدون مبدأ تقديس الأشخاص وروح الردوخ

التى أزيلت مع زوال الملوك الحفصيين والزيانيين وملوك بنى عباس للقبائل الصغرى والأشياخ وأقيال الصحراء .

وقد تبعت تلك الفترة الاستعمار الفرنسى الذى تمركز بيلادنا بصفة خطيرة كاد أن يقضى على شخصيتنا ، وقد قضى الشعب الجزائرى على روح العبودية وعبادة الأشخاص الأمر الذى جعلهم يتشبعون بالفكرة الديمقراطية الاسلامية والمساواة التى فرضوها على البلاد بعد تحريرهم من ربقة الحكم الأجنبى .

كل ذلك كان نتيجة للحكم التركى العنيف مع محاسنه ومساوئه وما أكثر محاسنه !

والسلام .

« انتهى »

عبد الحميد بن أبى زيان بنشنهو

١٣٩٢ — ١٩٧٢

بعض التواريخ الهامة

ولادة عروج		1474
ولادة خير الدين	حوالى	1486
يحل عروج بجزيرة جربة	»	1500
يحل عروج بمصر	»	1502
يحل عروج بتونس	»	1503
موت ايزابيلا ملكة أسبانيا		1504
احتلال المرسى الكبير من طرف الأسبان		1505
احتلال وهران من طرف الأسبان		1509
تأسيس سلطنة كوكو		1511
احتلال بجاية من طرف الأسبان		1512
احتلال جيجل من طرف أندريا دوريا		1513
استرجاع جيجل		1514
هجوم جيوش الاسبان على جزائر بنى مزغنة		1515
موت فرديناند ملك أسبانيا		1516
استنجاد أهل الجزائر بعروج		1516
تتويج شارل الخامس ملكا لأسبانيا		1516

هجوم الأسطول الأسباني على الجزائر من طرف ديقو دي فيرا	1516
انتخاب شارل الخامس امبراطورا	1517
موت الكردينال خيمينيس دي سينيروس	1517
استشهاد عروج	1518
هجوم لارمادة شارل الخامس على الجزائر	1518
ولاء خير الدين للخليفة العثماني	1518
ثورة ابن القاضي ـ احتلاله الجزائر	1521
موته ودخول خير الدين للجزائر	1527
استرجاع صخرة الجزائر	1529
تعيين خير الدين وزير الأمور البحرية للخليفة سليمان	1532
خير الدين يحتل تونس	1534
هجوم الأسطول الأسباني على تونس	1535
هجوم الأسطول الأسباني على الجزائر	1541
موت حسن آغا	1545
موت خير الدين	1546 - 1548
موت حسن بن خير الدين	1570

الكتب المعول عليها

أ ـ بالعربيـــة :

ـ ابن خلدون ـ عبد الرحمن ـ كتاب العبر فى المبتدأ والخبر لأيام العرب والعجم والبربر طبعة دار الكتاب اللبنانى ١٩٥٩

ـ ابن خلدون ـ يحيى ـ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ـ مطبعة فونطانا الجزائر ١٩٢٣

ـ ابن عسكر ـ أبو عبد الله محمد ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر المخطوط الموضوع بالمكتبة الوطنية بالجزائر .

ـ الأدريسى . وصف افريقيا من كتاب روجار .

الافرانى ـ نزهة الهادى

ـ البكرى ـ أبو عبيد ـ وصف افريقيا من كتاب المسالك والممالك .

ـ التشريفات (الجزائرية) جمعها ديفولس

ـ جلال (دكتور) يحيى ـ المغرب الكبير ـ الدار القومية للطباعة القاهرة ١٩٦٦

ـ الكعاك عثمان ـ موجز التاريخ العام للجزائر ـ مكتبة العرب تونس ١٣٤٤ هـ

ـ محمد سعيد بن الأمير عبد القادر ـ تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر واخبار الجزائر ١٩٠٣

ـ المدنى (أحمد توفيق) ـ كتاب الجزائر ـ دار الكتاب الجزائر ١٩٦٣

ـ المدنى (أحمد توفيق) ـ حرب ٣٠٠ سنة بين الجزائر وأسبانيا الشركة الوطنية للطبع والنشر ١٩٦٨

ـ الناصرى (أحمد بن خالد) ـ كتاب الاستقصى فى تاريخ المغرب الأقصى ـ دار الكتاب الدار البيضاء

ـ نور الدين عبد القادر ـ صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ـ كلية الآداب ١٩٦٩

ـ نور الدين عبد القادر ـ مصحح الكتاب غزوات عروج وخير الدين ردوسي الجزائر ١٩٣٤

٢ ــ الكتب باللغات الأجنبية

Amrouche (Marcel) - Terres et hommes d'Algérie - Bâconnier - Alger

Aucapitaine (Baron Henri) - Confins militaires de la Grande Kabylie sous la domination turque - Moquet - Paris - 1857.

Baudicour (Louis) - La guerre et le Gouvernement de l'Algérie. Sagnier et Dray - Paris - 1853.

Bensimon, Benaim, Caravel, Gadiri, Khaldi, Marciano, Périand, Sekeg, Souquet - La régence d'Alger et le monde turc - 1949.

Berburgger - Alger des corsaires - R.A. 1867.
" Mers-el-Kebir (Suarez) R.A. 1865-66-67.
" Oran sous les Espagnols - Traduction des rapports espagnols sur la prise de Mers-el-Kébir - 1505 R.A. 1867.
" Alger - Ce qu'y était l'esclavage au 17e siècle, R.A. 1868.
" Bougie - Conquête espagnole. R.A. 1868.

Barbaresques - (Histoire des Etats) - 1757 - Ouvrage ancien, traduit de l'anglais classé à la Bibliothèque Nationale d'Alger sous le n° 60.823.

Brosselard - Mémoires épigraphiques et historiques sur les tombeaux des émirs Beni Ziyan - Imprimerie nationale - Paris - 1876.

Callies (Général) - Notice correspondant à la carte historique et militaire d'Algérie et de Tunisie - Angoulême - 1954.

Chevalon (Maurice) - Particularités et curiosités du Maghreb - Alger 1958.

Cour (Auguste) - Etablissements des dynasties des Cherifs du Maroc - Leroux - Paris - 1904.

Dan (Père Pierre) - Histoire de Barbarie et de ses corsaires - Paris - 1646.

Denis (V. Sander Rang)

Devoulx - Tachrifat - Recueil de notes historiques de l'administration de l'ancienne régence d'Alger - Imp. du Gouvernement - 1853.

Djendel M. - Introduction à l'histoire de l'Algérie - S.N.E.D. - 1969.

Epaulard (V. Léon l'Africain).

Gabin Esquier - Iconographie historique d'Algérie depuis le 16e siècle jusqu'à 1871 - 3 T. - 1929.

Galibert (Léon) - L'Algérie ancienne et moderne - Furne - Paris - 1844.

Garrot (Henri) - Histoire générale de l'Algérie - Alger - 1910.

Godard (Léon) - Souvenirs de l'expédition de Ximénès en Afrique - R.A. 1861 - p. 54.

Gomaro (Francisco Lopez de) - Cronica de los barbarrojas - Madrid - 1854.

Grammont (Henri de) - Histoire d'Alger sous la domination turque - Leroux - Paris - 1887.

" " Haedo - Histoire des rois d'Alger - Traduit et annoté - R.A. 1880.

" " Quel est le lieu de la mort de Arroudj ? R.A. 1878.

" " Le nom de Arroudj dérive-t-il de Baba Arroudj ? R.A. R.A. 1885 - p. 226.

Graulle (A) - Traduction de Daouhat An Nachir d'Ibn Asker - Archives marocaines - Leroux - Paris - 1913.

Gsell (Stéphane), Marçais (Georges), Yver (G) - Histoire de l'Algérie - Boivin - Ed. 1929.

Gsell (Stéphane) - Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.

Guin (L) - Notes sur les entreprises des Espagnols pendant la première occupation d'Oran - R.A. 1886 - p. 312.

Haëdo (Fray Diego de) - Abbé de Fromesta - Histoire des rois d'Alger.

Hatin (Eugène) - Histoire pittoresque de l'Algérie - Bureau central de la publication - Paris - 1840.

Heulhard (Arthur) - Exploration scientifique de l'Algérie - T. 6 - Leroux - Paris - 1897.

Janissaires (Caserne des Janissaires à Alger) - R.A. 1859 - p. 132.

Jourdan - Alger - 1881.

" De la captivité d'Alger - Jourdan - 1911.

J.M.H.B. - Itinéraire du royaume d'Alger - Toulon 1833.

Julien (Charles André) - Histoire de l'Afrique du Nord - Payot 1951.

" Histoire de l'Afrique blanche. Que sais-je ? 1966 - Prix universitaires de France.

Jurien de la Gravière - Doria et Barberousse - Paris - 1886.

Lacoste (Yves), Nouschi (André), Prenant (André) - L'Algérie, passé et présent - Ed. sociales - Paris - 1964.

Lassus, Marçais (G), Barbès (L.), Monilleseaux, Boyer, Farran - Les productions - Paris - 1962.

Laugier de Tassy - Histoire du Royaume d'Alger - Amsterdam - 1725.

Lavisse (Ernest) et Rambaud (Alfred) - Histoire générale du IVe siècle à nos jours - Armand Colin - Paris - 1894.

Léon l'Africain - Description de l'Afrique - Epaulard - 1956.

Louis Charles - (R.P.) - Les Jésuites dans les Etats Barbaresques - Lethielleux - Paris - 1914.

Marçais (G.) V. Gsell.

" Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen-Age - Annales de l'Institut d'études Orientales - T. 13 - 1955 - Alger.

Marmol - L'Afrique - Traduction Nicolas Perrot d'Ablancourt - Paris 1667.

Mercier (E) - Histoire de l'Afrique septentrionale - Paris.

Michaud - Biographie générale - Art. Barberousse.

Ministère de la guerre (France) - Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie - 1839-40.

Morgan (Y) - Acomplete history of Algiers - London - 1731.
Nettement (Alfred) - Histoire de la conquête d'Alger - Paris - 1856.
Pananti - Relation d'un séjour à Alger - Paris - 1820.
Pellissier (E) - Mémoires historiques et géographiques de l'Algérie - Imp. Royale - 1844.
Prieur (Albert P.) - Les Barberousse - Ed. Arc-en-ciel - Paris.
Primaudaie (de la) - Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique - R.A. 1875-76-77.
Rambaud - (V. Lavisse Ernest).
Rocqueville (de) - Relations des mœurs et du Gouvernement des Turcs d'Alger - Paris - Olivier de Varennes - 1675.
Roy (J.J.E.) - Histoire de l'Algérie - 1859.
Sander Rang et F. Denis - Histoire des Barberousse - Paris - 1837.
Shaw - L'Alger, un siècle avant l'occupation française - Imp. de Carthage - Paris - 1968.
Suarez - Montanez - Mers-el-Kébir et Oran - R.A. T. 9 à 11.
Tunis - (Histoire des dernières révolutions du Royaume de) et des mouvements du Royaume d'Alger - Ouvrage ancien édité en 1689.
Venture de Paradis - Alger au 18e siècle - Ed. Fagnan - Alger - Jourdan 1898
Vinchon (Baron de) - Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques - Pougin - Paris - 1939.
Voyages en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie - Paris 1789.
Wahl (Maurice) - L'Algérie - Alcan - Paris - 1897.
Walsin Esterhazi - Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger - Ch. Gosselin - Paris - 1843.
Watbed (Ernest) - Etablissement de la domination turque en Algérie.

الفهــــرس

المقـــدمة	5
حلول اجنبى سلمى	9
بعض أسباب انحطاط المسلمين بالأندلس	10
اسباب انحطاط البلاد المغربية	11
توحيد كلمة المسيحية فى اسبانيا	13
القـــرصنة	17
توسع الأسبان بافريقيـا	23
ظهور الحكم العثمانى	27
للجزائر شعب ودولة	29
اهل الاندلس النازحون	31
تصادم القوات التركية والمسيحية	33
الحرس التركى ـ ظهور آل يعقوب بن يوسف ـ نشاة عروج	37
خروج عروج من مدلى	40
تركيب جيش عروج	43
احتلال الاسبان المرسى الكبير ووهران ـ نظام المستعمرات السياسى والعسكرى	47
نظام المستعمرة الاسبانية فى الجزائر	53
الكردينال خيمينيس دى سيسنيروس	55
احتلال بيدرو نفارو ميناء بجاية	63
بيدرو ونيفارو وجزائر بنى مزغنة	66

71 الثعالبة ونفوذهم فى الجـزائر
73 هجوم الاسبان على جزائر بنى مزغنة
76 حصار تلمسان من طرف الاسبان ـ استشهاد عروج
85 مدينة الجزائر
92 تجارة الجزائر الخارجية
93 وصف المدينة
97 الأسطول الجزائرى
103 انواع السفن الجزائرية واوصافها
107 تصرف الملوك الزيانيين عند ظهور عروج وخير الدين
109 الصعوبات التى لاقاها عروج وخير الدين فى نشر الامن بالجزائر
111 الجاسوسية والمؤامرات ضد عروج وخير الدين
117 شارل الخامس يهجم على الجزائر باسطوله
121 اوصاف عروج
124 امارة خير الدين
128 اوصاف خير الدين
129 الادارة الجزائرية فى عهد عروج وخير الدين
133 الجيش الانكشارى التركى ـ الجيش الجزائرى
143 ربط الاتصال الرسمى بين امراء الجزائر والخليفة العثمانى
147 أحمد بن القاضى
153 طـرغد
156 اندريا دى اوريا
161 استدعاء خير الدين الى الاستانة
169 الخليفة سليمان القانونى
179 شارل الخامس
182 استيلاء شارل الخامس على تونس

حسن آغا	191
ارمادة شارل الخامس ـ الهجوم على الجزائر فى عهد حسن آغا	193
امارة حسن بن خير الدين	207
صالح رئيس	211
تقسيم الجزائر الادرأى فى عهد الاتراك	215
تأثير الاتراك على الحوادث بافريقيا	219
بعض التواريخ الهامة	226
الكتب المعول عليها .	228
الصور الواردة فى الكتاب	236

الصور الواردة فى الكتاب

صورة برج اسبانى بوهران 26

صورة عروج ٨-41

صورة ضابط قرصان جزائرى 46

صورة الكردينال خيمينيس دى سيسنيروس ٧ 56

صورة الكردينال خيمينيس يعمد مسلمين 57

صورة مرسى الجزائر مع الصخور 67

صورة بابستان الجزائر 89

صورة خادم وسيده 91

صورة اسوار الجزائر 95

صورة جزائرى فى لباس تركى 96

صورة سفن جزائرية 98

صورة رئيس البحر جزائرى 102

صورة الامبراطور شارل الخامس 119

صورة خير الدين بربروس الثانى 130

صورة جنود انكشاريين فى استراحة 134

صورة الاميرال اندريا دوريا 159

صورة السلطان سليمان الثانى « القانونى » 170

صورة فرنسو الاول 170

صورة الحرب البحرية ضد الجزائر (١٥٤١) 194

صورة سفون شارل الخامس عند هجومها على الجزائر ... 197

صورة شارع باب عزون حيث دفن حسن آغا 205

صورة قصر الداى فى اعلا القصبة المشرف عليها 217

كتب المؤلف

ا ـ بالعربية A. — En arabe

- ـ النظام الادارى بالمغرب ، الطبعة الرابعة . الامنية الرباط
- ـ ما تشاهده العيون من مسائل الديون ـ الامنية الرباط
- ـ آخر ملوك غرناطة ـ الامنية الرباط
- ـ كتاب الوكالة ـ مطبعة السعادة الرباط
- ـ الملك العالم يوبا الثاني وزوجه كليوباطرة سيلينى ـ مطبعة الجيش بالجزائر ـ اعتنت بطبعه وزارة الانباء والثقافة.
- ـ التشريع بالجزائر (محاضرة)
- ـ المقارنة بين الاديان (محاضرة)
- ـ دخول الاتراك الى الجزائر
- ـ اعتقال الامير عبد القادر بفرنسا (محاضرة)
- ـ الدور الذى لعبته الجزائر فى البحر المتوسط فى القرن ١٦ نشرت الدراسة مجلة الاصالة ـ الجزائر

B. — En français — ب ـ بالفرنسية

— Du mandat ou procuration (épuisé)
— Gœthe et l'Islam (épuisé)
— Recueil de thèmes à l'usage des arabisants (épuisé)
— Le dialecte des Oulad el Hajj nomades (inédit)
— Le tombeau de Abdallah ibn Yassine (Etudes archéologiques - Hespéris, 1946)
— Contes et récits du Maroc - Omnia - Rabat
— Le régime des terres au Maghreb. E.P.A. Alger
— Hassen ben Mohamed el Ouzzane dit Léon l'Africain - L'Algérie en 1515 (Imp. de la Présidence) - Alger
— L'Algérie en 1830, ses institutions sous l'émir Abdelkader (E.P.A.) Alger
— Oran à travers l'histoire (conférence)
— Les Juifs au Maghreb (en préparation)
— Aspects de la Révolution algérienne (inédit)
— Les Almoravides et leur art (en préparation)
— Connaissance du Maghreb (E.P.A.) - Alger.

٢ ، شارع نورمندي الجزائر